سورة ق

اربعون وخمس آيات مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ وقبل التفسير نقول ما يتعلق بالسورة وهي أمور:

الأول: أن هذه السورة تُقرأ في صلاة العيد؛ لقوله تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ١١] وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤] فإن العيد يوم الزينة، فينبغي أن لا ينسى الإنسان خروجه إلى عرصات الحساب، ولا يكون في ذلك اليوم فرحًا فخورًا، ولا يرتكب فسقًا ولا فجورًا، ولما أمر النبي ﷺ بالتذكير بقوله في آخر السورة: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] ذكرهم بما يناسب حالهم في يومهم بقوله: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

الثاني: هذه السورة وسورة (ص) تشتركان في افتتاح أولهما بالحروف المعجم والقسم بالقرآن وقوله: ﴿بَلۡ﴾ والتعجب، ويشتركان في شيء آخر، وهو أن أول السورتين وآخرهما متناسبان، وذلك لأن في (ص) قال في أولها: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١] وقال في آخرها: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧] وفي (ق) قال في أولها: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وقال في آخرها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] فافتتح بما اختتم به.

والثالث: وهو أن في تلك السورة صرف العناية إلى تقرير الأصل الأول وهو التوحيد، بقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾ [ص: ٦] وفي هذه السورة إلى تقرير الأصل الآخر وهو الحشر، بقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ﴾ [ق: ٣] ولما كان افتتاح السورة في (ص) في تقرير المبدأ، قال في آخرها: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ [ص: ٧١] وختمه بحكاية بدء (خلق) آدم؛ لأنه دليل الوحدانية. ولما كان افتتاح هذه لبيان الحشر، قال في آخرها: ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾ [ق: ٤٤].

وأما التفسير ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قيل: (ق) اسم جبل محيط بالعالم، وقيل: معناه حكمة، هي قولنا: قضى الأمر. وفي ص: صدق الله، وقد ذكرنا أن الحروف تنبيهات قُدمت على القرآن؛ ليبقى السامع مقبلاً على استماع ما يرد عليه، فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق.

وذكرنا أيضًا أن العبادة منها قلبية، ومنها لسانية، ومنها جارحية ظاهرة، ووُجد في الجارحية

ما عُقل معناه، ووُجد منها ما لم يعقل معناه، كأعمال الحج من الرمي والسعي وغيرهما، ووُجد في القلبية ما عُقل بدليل، كعلم التوحيد، وإمكان الحشر، وصفات الله تعالى، وصدق الرسل، ووُجد فيها ما يُبعدها عن كونها معقولة المعنى أمور لا يمكن التصديق والجزم بها لولا السمع كالصراط الممدود الأحَدِّ من السيف الأرقِّ من الشعر، والميزان الذي يوزن به الأعمال، فكذلك كان ينبغي أن تكون الأذكار التي هي العبادة اللسانية منها ما يُعقل معناه كجميع القرآن إلا قليلاً منه، ومنها ما لا يُعقل ولا يُفهم كحرف التهجي لكون التلفظ به محض الانقياد للأمر، لا لما يكون في الكلام من طيب الحكاية والقصد إلى غرض، كقولنا: ربنا اغفر لنا وارحمنا بل يكون النطق به تعبدًا محضًا، ويؤيد هذا وجه آخر، وهو أن هذه الحروف مقسم بها، وذلك لأن الله تعالى لما أقسم بالتين والزيتون كان تشريفًا لهما، فإذا أقسم بالحروف التي هي أصل الكلام الشريف الذي هو دليل المعرفة وآلة التعريف كان أَوْلى.

وإذا عرفت هذا فنقول على هذا: فيه مباحث:

الأول: القسم من الله وقع بأمر واحد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ [العصر: ١] وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ [النجم: ١] وبحرف واحد، كما في قوله تعالى: (ص و ن) ووقع بأمرين، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢] وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١] وبحرفين، كما في قوله تعالى: (طه و طس و يس و حم) وبثلاثة أمور، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ . . . ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ﴾ . . . ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾ وبثلاثة أحرف، كما في (الم) وفي (طسم والر) وبأربعة أمور، كما في ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ [الذاريات: ١] وفي ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] وفي ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١] وبأربعة أحرف، كما في (المص المر) وبخمسة أمور، كما في ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] وفي ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ [المرسلات: ١] وفي ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ [النازعات: ١] وفي ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١] وبخمسة أحرف، كما في (كهيعص وحمعسق) ولم يقسم بأكثر من خمسة أشياء إلا في سورة واحدة وهي ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ولم يقسم بأكثر من خمسة أصول؛ لأنه يجمع كلمة الاستثقال، ولما استثقل حين رُكب لمعنى، كان استثقالها حين رُكب من غير إحاطة العلم بالمعنى أو لا لمعنى كان أشد.

البحث الثاني: عند القسم بالأشياء المعهودة، ذكر حرف القسم وهو الواو، فقال: (والطور والنجم والشمس) وعند القسم بالحروف لم يذكر حرف القسم، فلم يقل (وق وحم) لأن القسم لما كان بنفس الحروف كان الحرف مقسمًا به، فلم يورده في موضع كونه آلة القسم تسوية بين الحروف.

البحث الثالث: أقسم الله بالأشياء: كالتين والطور، ولم يقسم بأصولها، وهي الجواهر الفردة والماء والتراب. وأقسم بالحروف من غير تركيب؛ لأن الأشياء عنده يركبها على أحسن حالها، وأما الحروف إن رُكبت بمعنى، يقع الحلف بمعناه لا باللفظ، كقولنا: (والسماء والأرض) وإن رُكبت لا بمعنى، كان المفرد أشرف، فأقسم بمفردات الحروف.

البحث الرابع: أقسم بالحروف في أول ثمانية وعشرين سورة، وبالأشياء التي عددها عدد الحروف، وهي غير ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾ [الشمس: ١] في أربع عشرة سورة، لأن القسم بالأمور غير الحروف وقع في أوائل السور وفي أثنائها، كقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٧] وقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] والقسم بالحروف لم يوجد ولم يحسن إلا في أوائل السور؛ لأن ذكر ما لا يفهم معناه في أثناء الكلام المنظوم المفهوم يخل بالفهم، ولما كان القسم بالأشياء له موضعان والقسم بالحروف له موضع واحد، جعل القسم بالأشياء في أوائل السور على نصف القسم بالحروف في أوائلها.

البحث الخامس: القسم بالحروف وقع في النصفين جميعًا بل في كل سبع، وبالأشياء المعدودة لم يوجد إلا في النصف الأخير، بل لم يوجد إلا في السبع الأخير غير (والصافات)، وذلك لأنا بينا أن القسم بالحروف لم ينفك عن ذكر القرآن أو الكتاب أو التنزيل بعده إلا نادرًا فقال تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢] ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [غافر: ١، ٢] ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] ولما كان جميع القرآن معجزة مؤداة بالحروف وُجد ذلك عامًّا في جميع المواضع، ولا كذلك القسم بالأشياء المعدودة، وقد ذكرنا شيئًا من ذلك في سورة العنكبوت.

ولنذكر ما يختص بقاف: قيل: إنه اسم جبل محيط بالأرض عليه أطراف السماء. وهو ضعيف لوجوه: أحدها: أن القراءة الكثيرة الوقفُ، ولو كان اسم جبل لما جاز الوقف في الإدراج؛ لأن من قال ذلك قال بأن الله تعالى أقسم به. وثانيها: أنه لو كان كذلك لذكر بحرف القسم كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١] وذلك لأن حرف القسم يحذف حيث يكون المقسم به مستحقًّا لأن يقسم به، كقولنا: الله لأفعلن كذا، واستحقاقه لهذا غني عن الدلالة عليه باللفظ ولا يحسن أن يقال: زيد لأفعلن. ثالثها: هو أنه لو كان كما ذكر لكان يكتب قاف مع الألف والفاء كما يكتب ﴿عَيۡنٞ جَارِيَةٞ﴾ [الغاشية: ١٢] ويكتب ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي جميع المصاحف يكتب حرف (ق). رابعها: هو أن الظاهر أن الأمر فيه كالأمر في (ص، ن، حم) وهي حروف لا كلمات وكذلك في (ق) فإن قيل: هو منقول عن ابن عباس. نقول: المنقول عنه أن قاف اسم جبل، وأما أن المراد في هذا الموضع به ذلك فلا، وقيل: إن معناه قضي الأمر، وفي (ص) صدق الله، وقيل: هو اسم الفاعل من قفا يقفو، وص من صاد من المصاداة، وهي المعارضة، معناه هذا قاف جميع الأشياء بالكشف، ومعناه حينئذٍ هو قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩] إذا قلنا إن الكتاب هناك القرآن.

هذا ما قيل في (ق) وأما القراءة فيه فكثيرة وحصرها بيان معناها، فنقول: إن قلنا: هي مبنية على ما بينا فحقها الوقف إذ لا عامل فيها، فيشبه بناء الأصوات ويجوز الكسر حذرًا من التقاء الساكنين، ويجوز الفتح اختيارًا للأخف، فإن قيل: كيف جاز اختيار الفتح هاهنا، ولم يجز عند التقاء الساكنين إذا كان أحدهما آخر كلمة والآخر أول أخرى كما في قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ﴾[البينة: ١] ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ﴾[الأنعام: ٥٢]؟ نقول: لأن هناك إنما وجب التحريك وعُين الكسر في الفعل لشبهة تحرك الإعراب؛ لأن الفعل محل يرد عليه الرفع والنصب ولا يوجد فيه الجر، فاختيرت الكسرة التي لا يخفى على أحد أنها ليست بجر؛ لأن الفعل لا يجوز فيه الجر ولو فُتح لاشتبه بالنصب، وأما في أواخر الأسماء فلا اشتباه؛ لأن الأسماء محل ترد عليه الحركات الثلاث فلم يكن يمكن الاحتراز فاختاروا الأخف. وأما إن قلنا: إنها حرف مقسم به فحقها الجر، ويجوز النصب بجعله مفعولاً بأُقسم على وجه الاتصال وتقدير الباء كأن لم يوجد، وإن قلنا: هي اسم السورة، فإن قلنا مقسم بها مع ذلك فحقها الفتح لأنها لا تنصرف حينئذٍ ففتح في موضع الجر كما تقول: وإبراهيم وأحمد في القسم بهما. وإن قلنا: إنه ليس مقسمًا بها وقلنا اسم السورة، فحقها الرفع إن جعلناها خبرًا تقديره: هذه (ق)، وإن قلنا: هو من قفا يقفو فحقه التنوين كقولنا: هذا داعٍ وراعٍ، وإن قلنا: اسم جبل فالجر والتنوين وإن كان قسمًا.

ولنعد إلى التفسير فنقول: الوصف قد يكون للتمييز وهو الأكثر، كقولنا: (الكلام القديم) ليتميز عن الحادث. و(الرجل الكريم) ليمتاز عن اللئيم، وقد يكون لمجرد المدح كقولنا: (الله الكريم) إذ ليس في الوجود إله آخر حتى نميزه عنه بالكريم، وفي هذا الموضع يحتمل الوجهين، والظاهر أنه لمجرد المدح، وأما التمييز فبأن نجعل القرآن اسمًا للمقروء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[الرعد: ٣١] والمجيد: العظيم، وقيل: المجيد هو كثير الكرم. وعلى الوجهين القرآن مجيد، أما على قولنا: (المجيد هو العظيم)، فلأن القرآن عظيم الفائدة، ولأنه ذكر الله العظيم، وذكر العظيم عظيم، ولأنه لم يقدر عليه أحد من الخلق، وهو آية العظمة، يقال مَلِك عظيم، إذا لم يكن يُغلب، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[الحجر: ٨٧] أي الذي لا يقدر على مثله أحد ليكون معجزة دالة على نبوتك. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[البروج: ٢١، ٢٢] أي محفوظ من أن يطلع عليه أحد إلا بإطلاعه تعالى، فلا يبدل ولا يغير و﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾[فصلت: ٤٢] فهو غير مقدور عليه فهو عظيم، وأما على قولنا: (المجيد هو كثير الكرم) فالقرآن كريم، كل من طلب منه مقصوده وجده، وإنه مغنٍ كل من لاذ به، وإغناء المحتاج غاية الكرم، ويدل عليه هو أن المجيد مقرون بالحميد في قولنا: (إنك حميد مجيد) فالحميد هو المشكور، والشكر على الإنعام، والمنعم كريم، فالمجيد هو الكريم البالغ في الكرم.

وفيه مباحث:

الأول: القرآن مقسم به فالمقسم عليه ماذا؟ نقول: فيه وجوه، وضبطها بأن نقول: ذلك إما أن يفهم بقرينة حالية أو قرينة مقالية، والمقالية إما أن تكون متقدمة على المقسم به أو متأخرة، فإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متقدمة فلا متقدم هناك لفظًا إلا ﴿قٓ﴾ فيكون التقدير: هذا ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أو (ق) أنزلها الله تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾ كما يقول: (هذا حاتم والله) أي هو

المشهور بالسخاء ويقول: (الهلال رأيته والله)، وإن قلنا بأنه مفهوم من قرينة مقالية متأخرة، فنقول: ذلك أمران: أحدهما: المنذر. والثاني: الرجع، فيكون التقدير: والقرآن المجيد إنك المنذر، أو: والقرآن المجيد إن الرجع لكائن؛ لأن الأمرين ورد القسم عليهما ظاهرًا: أما الأول: فيدل عليه قوله تعالى: ﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إلى أن قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ١ - ٦]. وأما الثاني: فدل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ١ - ٧] وهذا الوجه يظهر عليه غاية الظهور على قول من قال (ق) اسم جبل، فإن القسم يكون بالجبل والقرآن، وهناك القسم بالطور والكتاب المسطور وهو الجبل والقرآن، فإن قيل: أي الوجهين منهما أظهر عندك؟ قلت: الأول؛ لأن المنذر أقرب من الرجع، ولأن الحروف رأيناها مع القرآن والمقسم كونه مرسلاً ومنذرًا، وما رأينا الحروف ذُكرت وبعدها الحشر، واعتبر ذلك في سور، منها قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ﴾ [السجدة: ١ - ٣] ولأن القرآن معجزة دالة على كون محمد رسول الله، فالقسم به عليه يكون إشارة إلى الدليل على طريقة القسم، وليس هو بنفسه دليلاً على الحشر، بل فيه أمارات مفيدة للجزم بالحشر بعد معرفة صدق الرسول، وأما إن قلنا: (هو مفهوم بقرينة حالية)، فهو كون محمد ﷺ على الحق ولكلامه صفة الصدق، فإن الكفار كانوا ينكرون ذلك، والمختار ما ذكرناه.

والثاني: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ [ق: ٢] يقتضي أن يكون هناك أمر مضرب عنه فما ذلك؟ نقول: قال الواحدي ووافقه الزمخشري: إنه تقدير قوله: ما الأمر كما يقولون ونزيده وضوحًا. فنقول على ما اخترناه: فإن التقدير، والله أعلم ق والقرآن المجيد إنك لتنذر، فكأنه قال بعده: وإنهم شكوا فيه فأضرب عنه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝﴾

يعني لم يقتنعوا بالشك في صدق الأمر وطرحه بالترك وبُعد الإمكان، بل جزموا بخلافه حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة، فإن قيل: فما الحكمة في هذا الاختصار العظيم؟ في موضع واحد حذف المقسم عليه والمضرب عنه، وأتى بأمر لا يفهم إلا بعد الفكر العظيم ولا يفهم مع الفكر إلا بالتوفيق العزيز؟ فنقول: إنما حذف المقسم عليه لأن الترك في بعض المواضع يفهم منه ظهور لا يفهم من الذكر، وذلك لأن من ذكر الملك العظيم في مجلس وأثنى عليه يكون قد عظَّمه، فإذا قال له غيره: (هو لا يذكر في هذا المجلس) يكون بالإرشاد إلى ترك الذكر دالاً على عظمته فوق ما يستفيد صاحبه بذكره، فالله تعالى يقول: لَبيان رسالتك أظهر من أن يُذكر. وأما حذف المضرب عنه فلأن المضرب عنه إذا ذُكر وأُضرب عنه بأمر آخر إنما يحسن إذا كان بين

المذكورين تفاوت ما، فإذا عظُم التفاوت لا يحسن ذكرهما مع الإضراب، مثاله: يحسن أن يقال: الوزير يعظم فلانًا بل الملك يعظمه. ولا يحسن أن يقال: البواب يعظم فلانًا بل الملك يعظمه. لكون البون بينهما بعيدًا؛ إذ الإضراب للتدرج، فإذا ترك المتكلم المضرب عنه صريحًا وأتى بحرف الإضراب، استفيد منه أمران: أحدهما: أنه يشير إلى أمر آخر قبله. وثانيهما: أنه يجعل الثاني تفاوتًا عظيمًا مثل ما يكون ومما لا يذكر، وههنا كذلك لأن الشك بعد قيام البرهان بعيد، لكن القطع بخلافه في غاية ما يكون من البعد.

المبحث الثالث: (أنْ) مع الفعل يكون بمثابة ذكر المصدر، تقول: أمرت بأن أقوم وأمرت بالقيام، وتقول: ما كان جوابه إلا أن قال، وما كان جوابه إلا قوله كذا وكذا، وإذا كان كذلك فلم ينزل عن الإتيان بالمصدر حيث جاز أن يقال: أمرت أن أقوم من غير حرف الإلصاق، ولا يجوز أن يقال: أمرت القيام بل لا بد من الباء، ولذلك قالوا: أي عجبوا من مجيئه؟ نقول: ﴿أَن جَآءَهُمْ﴾ وإن كان في المعنى قائمًا مقام المصدر، لكنه في الصورة فعل وحرف، وحروف التعدية كلها حروف جارة والجار لا يدخل على الفعل، فكان الواجب أن لا يدخل، فلا أقل من أن يجوز عدم الدخول، فجاز أن يقال: ﴿عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ ولا يجوز عجبوا مجيئهم لعدم المانع من إدخال الحروف عليه.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمْ﴾ يصلح أن يكون مذكورًا كالمقرر لتعجبهم، ويصلح أن يكون مذكورًا لإبطال تعجبهم: أما التقرير فلأنهم كانوا يقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] و﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥] إشارة إلى أنه كيف يجوز اختصاصكم بهذه المنزلة الرفيعة مع اشتراكنا في الحقيقة واللوازم؟! وأما الإبطال فلأنه إذا كان واحدًا منهم ويُرى بين أظهرهم، وظهر عليه ما عجز عنه كلهم ومَن بعدهم، كان يجب عليهم أن يقولوا: هذا ليس من عنده ولا من عند أحد من جنسنا، فهو من عند الله!! بخلاف ما لو جاءهم واحد من خلاف جنسهم وأتى بما يعجزون عنه، فإنهم كانوا يقولون: نحن لا نقدر لأن لكل نوع خاصية، فإن خاصية النعامة بلع النار، والطيور الطير في الهواء، وابن آدم لا يقدر عليه. فإن قيل: الإبطال جائز لأن قولهم كان باطلاً، ولكن تقرير الباطل كيف يجوز؟! نقول: المبين لبطلان الكلام يجب أن يورده على أبلغ ما يمكن ويذكر فيه كل ما يتوهم أنه دليل عليه، ثم يبطله؛ فلذلك قال: عجبتم بسبب أنه منكم، وهو في الحقيقة سبب لهذا التعجب. فإن قيل: النبي ﷺ كان بشيرًا ونذيرًا والله تعالى في جميع المواضع قدم كونه بشيرًا على كونه نذيرًا، فلمَ لم يذكر: عجبوا أن جاءهم بشير منهم؟ نقول: هو لما لم يتعين للبشارة موضعًا كان في حقهم منذرًا لا غير.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

قال الزمخشري: هذا تعجب آخر من أمر آخر وهو الحشر الذي أشار إليه بقوله ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] فعجبوا من كونه منذرًا من وقوع الحشر، ويدل عليه النظر في أول

سورة ص حيث قال فيه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ص: ٤] وقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥] ذكر تعجبهم من أمرين. والظاهر أن قولهم: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ إشارة إلى مجيء المنذر لا إلى الحشر، ويدل عليه وجوه: الأول: هو أن هناك ذكر ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بعد الاستفهام الإنكاري فقال: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ وقال هاهنا: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ ولم يكن ما يقع الإشارة إليه إلا مجيء المنذر. ثم قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الثاني: ههنا وجد بعد الاستبعاد بالاستفهام أمر يؤدي معنى التعجب وهو قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ فإنه استبعاد وهو كالتعجب، فلو كان التعجب أيضًا عائدًا إليه لكان كالتكرار، فإن قيل: التكرار الصريح يلزم من جعل قولك ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عائدًا إلى مجيء المنذر، فإن تعجبهم منه عُلم من قوله: ﴿عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم﴾ فقوله ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يكون تكرارًا، نقول: ذلك ليس بتكرار بل هو تقرير، وذلك لأنه لما قال: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ بصيغة الفعل وجاز أن يتعجب الإنسان مما لا يكون عجيبًا كما قال تعالى: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٧٣] ويقال في العرف: (لا وجه لتعجبك مما ليس بعجب) فكأنهم لما عجبوا قيل لهم: لا معنى لفعلكم وعجبكم فقالوا ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فكيف لا نعجب منه؟ ويدل عليه أنه تعالى قال هاهنا: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بحرف الفاء، وقال في (ص): ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] لأن قولهم: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ كان تعنتًا غير مرتب على ما تقدم، و﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أمر مرتب على ما تقدم، أي عجبوا وأنكروا عليه ذلك، فقالوا: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ فكيف لا نعجب منه؟ ويدل عليه أيضًا قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] بلفظ الإشارة إلى البعد، وقوله: (هذا) إشارة إلى الحاضر القريب، فينبغي أن يكون المشار إليه بذلك غير المشار إليه بهذا، وذلك لا يصح إلا على قولنا.

قوله تعالى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ٨ ﴾

ثم قال تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ٣﴾.

فإنهم لما أظهروا العجب من رسالته أظهروا استبعاد كلامه، وهذا كما قال تعالى عنهم ﴿قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [سبأ: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ [سبأ: ٤٣].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: فقوله: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ إنكار منهم بقول أو بمفهوم دل عليه قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ق: ٢] لأن الإنذار لما لم يكن إلا بالعذاب المقيم والعقاب الأليم، كان فيه

الإشارة للحشر، فقالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

المسألة الثانية: (ذلك) إشارة إلى ما قاله وهو الإنذار، وقوله: ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] إشارة إلى المجيء على ما قلنا، فلما اختلفت الصفتان نقول: المجيء والجائي كل واحد حاضر. وأما الإنذار وإن كان حاضرًا لكن لكون المنذر به لما كان غير حاضر قالوا فيه ذلك، والرجع مصدر رجع يرجع إذا كان متعديًا، والرجوع مصدره إذا كان لازمًا، وكذلك الرُّجعى مصدر عند لزومه، والرجع أيضًا يصح مصدرًا للازم، فيحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي رجوع بعيد، ويحتمل أن يكون المراد الرجع المتعدي، ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨] وعلى الثاني قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ [النازعات: ١٠] أي مرجعون فإنه من الرجع المتعدي، فإن قلنا: هو من المتعدي، فقد أنكروا كونه مقدورًا في نفسه.

ثم إن الله تعالى قال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾

إشارة إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه، وذلك لأن الله تعالى يجمع أجزاء كل واحد من الموتى لا يشتبه عليه جزء أحد على الآخر، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجوع منه ببعيد، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] حيث جعل للعلم مدخلاً في الإعادة. وقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ﴾ يعني لا تخفى علينا أجزاؤهم بسبب تشتتها في تخوم الأرضين، وهذا جواب لما كانوا يقولون: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] يعني أن ذلك إشارة إلى أنه تعالى كما يعلم أجزاءهم يعلم أعمالهم من ظلمهم وتعديهم بما كانوا يقولون وبما كانوا يعملون، ويحتمل أن يقال: معنى قوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ هو أنه عالم بتفاصيل الأشياء، وذلك لأن العلم إجمالي وتفصيلي، فالإجمالي كما يكون عند الإنسان الذي يحفظ كتابًا ويفهمه، ويعلم أنه إذا سئل عن أية مسألة تكون في الكتاب يحضر عنده الجواب، ولكن ذلك لا يكون نصب عينيه حرفًا بحرف، ولا يخطر بباله في حالة بابًا بابًا، أو فصلاً فصلاً، ولكن عند العرض على الذهن لا يحتاج إلى تجديد فكر وتحديد نظر، والتفصيلي مثل الذي يعبر عن الأشياء، والكتاب الذي كتب فيه تلك المسائل، وهذا لا يوجد عند الإنسان إلا في مسألة أو مسألتين. أما بالنسبة إلى كتاب فلا يقال: ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ يعني العلم عندي كما يكون في الكتاب أعلم جزءًا جزءًا وشيئًا شيئًا. والحفيظ يحتمل أن يكون بمعنى المحفوظ، أي محفوظ من التغيير والتبديل، ويحتمل أن يكون بمعنى الحافظ، أي حافظ أجزاءهم وأعمالهم بحيث لا ينسى شيئًا منها، والثاني هو الأصح لوجهين: أحدهما: أن الحفيظ بمعنى الحافظ وارد في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وقال تعالى: ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦] ولأن الكتاب على ما ذكرنا للتمثيل فهو يحفظ الأشياء، وهو مستغنٍ عن أن يحفظ.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ ردٌّ عليهم، فإن قيل: ما المضروب عنه؟ نقول: فيه وجهان: أحدهما: تقديره لم يَكذب المنذر، بل كذبوا هم، وتقديره هو أنه تعالى لما قال عنهم إنهم

قالوا: ﴿هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢] كان في معنى قولهم: إن المنذر كاذب، فقال تعالى: لم يكذب المنذر، بل هم كذبوا، فإن قيل: ما الحق؟ نقول: يحتمل وجوهًا: الأول: البرهان القائم على صدق رسول الله ﷺ. الثاني: الفرقان المنزل. وهو قريب من الأول لأنه برهان. الثالث: النبوة الثابتة بالمعجزة القاهرة فإنها حق. الرابع: الحشر الذي لا بد من وقوعه فهو حق، فإن قيل: بَيِّن لنا معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ وأية حاجة إليها، يعني أن التكذيب متعد بنفسه، فهل هي للتعدية إلى مفعول ثانٍ أو هي زائدة، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]؟ نقول: فيه بحث وتحقيق، وهي في هذا الموضع لإظهار معنى التعدية، وذلك لأن التكذيب هو النسبة إلى الكذب، لكن النسبة تارة توجد في القائل، وأخرى في القول، تقول: كَذَّبني فلان وكنت صادقًا، وتقول: كَذَّب فلان قول فلان، ويقال كَذَّبه، أي جعله كاذبًا، وتقول: قلت لفلان: زيد يجيء غدًا، فتأخر عمدًا حتى كَذَّبني وكَذَّب قولي، والتكذيب في القائل يستعمل بالباء وبدونها، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١] وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣] وفي القول كذلك غير أن الاستعمال في القائل بدون الباء أكثر، قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤] وقال: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٌ مِّن قَبۡلِكَۚ﴾ [فاطر: ٤] إلى غير ذلك، وفي القول الاستعمال بالباء أكثر، قال الله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ [القمر: ٤٢] وقال: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ [الزمر: ٣٢]. والتحقيق فيه هو أن المفعول المطلق هو المصدر؛ لأنه هو الذي يصدر من الفاعل، فإن من ضرب لم يصدر منه غير الضرب، غير أن له محلاً يقع فيه فيسمى مضروبًا، ثم إذا كان ظاهرًا لكونه محلاً للفعل يستغني بظهوره عن الحرف فيعدى من غير حرف، يقال: ضربت عَمْرًا، وشربت خمرًا، للعلم بأن الضرب لا بد له من محل يقوم به، والشرب لا يستغني عن مشروب يتحقق فيه، وإذا قلت: (مررت) يحتاج إلى الحرف ليظهر معنى التعدية لعدم ظهوره في نفسه؛ لأن من قال: مر السحاب يُفهم منه مرور ولا يفهم منه مَن مر به، ثم إن الفعل قد يكون في الظهور دون الضرب والشرب، وفي الخفاء دون المرور، فيجوز الإتيان فيه بدون الحرف لظهوره الذي فوق ظهور المرور، ومع الحرف لكون الظهور دون ظهور الضرب، ولهذا لا يجوز أن تقول: ضربت بعمرو، إلا إذا جعلته آلة الضرب. أما إذا ضربته بسوط أو غيره، فلا يجوز فيه زيادة الباء، ولا يجوز مروا به إلا مع الاشتراك، وتقول: مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له؛ لأن المسح إمرار اليد بالشيء فصار كالمرور، والشكر فعل جميل غير أنه يقع بمحسن، فالأصل في الشكر: الفعل الجميل، وكونه واقعًا بغيره كالبيع، بخلاف الضرب، فإنه إمساس جسم بجسم بعنف، فالمضروب داخل في مفهوم الضرب أولاً، والمشكور داخل في مفهوم الشكر ثانيًا، إذا عرفت هذا فالتكذيب في القائل ظاهر لأنه هو الذي يصدق أو يكذب، وفي القول غير ظاهر فكان الاستعمال فيه بالباء أكثر والباء فيه لظهور معنى التعدية.

وقوله: ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ في الجائي وجهان: أحدهما: أنه هو المكذَّب، تقديره: كذبوا بالحق لما جاءهم الحق، أي لم يؤخروه إلى الفكر والتدبر. ثانيهما: الجائي ههنا هو الجائي في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢] تقديره: كذبوا بالحق لما جاءهم المنذر، والأول لا يصح على قولنا (الحق وهو الرجع)، لأنهم لا يكذبون به وقت المجيء، بل يقولون: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢].

وقوله: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مختلف مختلط، قال الزجاج وغيره: لأنهم تارة يقولون ساحر وأخرى شاعر، وطورًا ينسبونه إلى الكهانة، وأخرى إلى الجنون. والأصح أن يقال: هذا بيان الاختلاف المذكور في الآيات، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾ يدل على أمر سابق أضرب عنه، وقد ذكرنا أنه الشك، وتقديره: والقرآن المجيد، إنك لمنذر، وإنهم شكُّوا فيك، بل عجبوا، بل كَذَّبوا. وهذه مراتب ثلاث: الأولى: الشك، وفوقها التعجب؛ لأن الشاك يكون الأمران عنده سيين، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به، والمكذب: الذي يجزم بخلاف ذلك، فكأنهم كانوا شاكِّين وصاروا ظانين وصاروا جازمين فقال: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ ويدل عليه الفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ لأنه حينئذ يصير كونهم ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مرتبًا على ما تقدم، وفيما ذكروه لا يكون مرتبًا. فإن قيل: المريج، المختلط، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل؛ لأن الشاك ينتهي إلى درجة الظن، والظان ينتهي إلى درجة القطع، وعند القطع لا يبقى الظن، وعند الظن لا يبقى الشك، وأما ما ذكروه ففيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب، بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون، وكذا إلى الشعر بعد السحر، وإلى السحر بعد الشعر، فهذا هو المريج. نقول: كان الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يديه ولسانه، فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج ووقع الدرك مع المرج، وأما ما ذكروه فاللائق به تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨] لأن ما كان يصدر منهم في حقه كان قولاً مختلفًا، وأما الشك والظن والجزم فأمور مختلفة، وفيه لطيفة وهي أن إطلاق لفظ المريج على ظنهم وقطعهم ينبئ عن عدم كون ذلك الجزم صحيحًا لأن الجزم الصحيح لا يتغير، وكان ذلك منهم واجب التغير فكان أمرهم مضطربًا، بخلاف المؤمن الموفق فإنه لا يقع في اعتقاده تردد ولا يوجد في معتقده تعدد.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

إشارة إلى الدليل الذي يدفع قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] وهذا كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١] وقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ﴾[الأحقاف: ٣٣] . وفيه مسائل:

المسألة الأولى: همزة الاستفهام تارة تدخل على الكلام ولا واو فيه، وتارة تدخل عليه وبعدها واو، فهل بين الحالتين فرق؟ نقول: فرق أدق مما على الفرق، وهو أن يقول القائل: أزيد في الدار بعد وقد طلعت الشمس؟ يذكره للإنكار، فإذا قال: أو زيدًا في الدار بعد وقد طلعت الشمس؟ يشير بالواو إشارة خفية إلى أن قبح فعله صار بمنزلة فعلين قبيحين، كأنه يقول بعد ما سمع ممن صدر عن زيد هو في الدار: (أغفل وهو في الدار بعد)، لأن الواو تنبئ عن ضيف أمر مغاير لما بعدها وإن لم يكن هناك سابق لكنه يومئ بالواو إليه زيادة في الإنكار، فإن قيل: قال في موضع: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾[الأعراف: ١٨٥] وقال هاهنا: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ بالفاء فما الفرق؟ نقول: هاهنا سبق منهم إنكار الرجع فقال بحرف التعقيب بمخالفه، فإن قيل: ففي (يس) سبق ذلك بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ﴾[يس: ٧٨] نقول: هناك الاستدلال بالسموات لما لم يعقب الإنكار على عقيب الإنكار استدل بدليل آخر، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[يس: ٧٩] ثم ذكر الدليل الآخر، وهاهنا الدليل كان عقيب الإنكار فذكر بالفاء. وأما قوله ههنا بلفظ النظر، وفي الأحقاف بلفظ الرؤية، ففيه لطيفة وهي أنهم ههنا لما استبعدوا أمر الرجع بقولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ استبعد استبعادهم، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ لأن النظر دون الرؤية، فكأن النظر كان في حصول العلم بإنكار الرجع ولا حاجة إلى الرؤية ليقع الاستبعاد في مقابلة الاستبعاد، وهناك لم يوجد منهم بإنكار مذكور فأرشدهم إليه بالرؤية التي هي أتم من النظر، ثم إنه تعالى كمل ذلك وجمله بقوله: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ ولم يقل في السماء لأن النظر في الشيء ينبئ عن التأمل والمبالغة، والنظر إلى الشيء ينبئ عنه؛ لأن (إلى) للغاية فينتهي النظر عنده في الدخول في معنى الظرف فإذا انتهى النظر إليه ينبغي أن ينفذ فيه حتى يصح معنى الظرفية. وقوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تأكيد آخر، أي وهو ظاهر فوق رءوسهم غير غائب عنهم.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ إشارة إلى وجه الدلالة وأولوية الوقوع وهي للرجع:

أما وجه الدلالة فإن الإنسان له أساس هي العظام التي هي كالدعامة وقوى وأنوار كالسمع والبصر، فبناء السماء أرفع من أساس البدن، وزينة السماء أكمل من زينة الإنسان بلحم وشحم.

وأما الأولوية فإن السماء ما لها من فروج فتأليفها أشد، وللإنسان فروج ومسام، ولا شك أن التأليف الأشد كالنسج الأصفق، والتأليف الأضعف كالنسج الأسخف، والأول أصعب عند الناس وأعجب، فكيف يستبعدون الأدون مع علمهم بوجود الأعلى من الله تعالى؟ قالت الفلاسفة: الآية دالة على أن السماء لا تقبل الخرق. وكذلك قالوا في قوله: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣] وقوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ: ١٢] وتعسفوا فيه لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ صريح في عدم ذلك، والإخبار عن عدم الشيء لا يكون إخبارًا عن عدم إمكانه، فإن من قال: ما لفلان

قالٌ؟ لا يدل على نفي إمكانه، ثم إنه تعالى بيّن خلاف قولهم بقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ [المرسلات: ٩] وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١] وقال: ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦] في مقابلة قوله: ﴿سَبْعًا شِدَادًا﴾ وقال: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧] إلى غير ذلك، والكل في الرد عليهم صريح وما ذكروه في الدلالة ليس بظاهر، بل وليس له دلالة خفية أيضًا، وأما دليلهم المعقول فأضعف وأسخف من تمسكهم بالمنقول.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾

إشارة إلى دليل آخر، ووجه دلالة الأرض هو أنهم قالوا: الإنسان إذا مات وفارقته القوة الغاذية والنامية لا تعود إليه تلك القوة. فنقول: الأرض أشد جمودًا وأكثر خمودًا، والله تعالى يُنبت فيها أنواع النبات وينمو ويزيد، فكذلك الإنسان تعود إليه الحياة. وذَكَر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في السماء ثلاثة أمور: في الأرض المد وإلقاء الرواسي والإنبات فيها، وفي السماء البناء والتزيين وسد الفروج، وكل واحد في مقابلة واحد: فالمد في مقابلة البناء؛ لأن المد وضع والبناء رفع، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة مزينة لها، والإنبات في الأرض شقها كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ [عبس: ٢٥، ٢٦] وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها، وإذا علمت هذا ففي الإنسان أشياء موضوعة وأشياء مرفوعة، وأشياء ثابتة كالأنف والأذن وأشياء متحركة كالمقلة واللسان، وأشياء مسدودة الفروج كدور الرأس والأغشية المنسوجة نسجًا ضعيفًا كالصفاق، وأشياء لها فروج وشقوق كالمناخر والصماخ والفم وغيرها، فالقادر على الأضداد في هذا المهاد، في السبع الشداد، غير عاجز عن خلق نظيرها في هذه الأجساد. (و) تفسير الرواسي قد ذكرناه في سورة لقمان، والبهيج: الحسن.

وقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

يحتمل أن يكون الأمران عائدين إلى الأمرين المذكورين وهما السماء والأرض، على أن خلق السماء تبصرة وخَلْق الأرض ذكرى، ويدل عليه أن السماء زينتها مستمرة غير مستجدة في كل عام فهي كالشيء المرئي على مرور الزمان، وأما الأرض فهي كل سنة تأخذ زخرفها، فذكر السماء تبصرة والأرض تذكرة، ويحتمل أن يكون كل واحد من الأمرين موجودًا في كل واحد من الأمرين، فالسماء تبصرة والأرض كذلك، والفرق بين التبصرة والتذكرة هو أن فيها آيات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر وآيات متجددة مذكرة عند التناسي، وقوله: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي راجع إلى التفكر والتذكر والنظر في الدلائل.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

إشارة إلى دليل آخر وهو ما بين السماء والأرض، فيكون الاستدلال بالسماء والأرض وما

بينهما، وذلك إنزال (الماء من) السماء من فوق، وإخراج النبات من تحت. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذا الاستدلال قد تقدم بقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧] فما الفائدة في إعادته بقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾؟ نقول: قوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ استدلال بنفس النبات أي الأشجار تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت ينمو ويزيد بأن يرجع الله تعالى إليه قوة النشوء والنماء كما يعيدها إلى الأشجار بواسطة ماء السماء ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه حذف تقديره: (وحَب الزرع الحصيد) وهو المحصود، أي أنشأنا جنات يُقطف ثمارها وأصولها باقية، وزرعًا يُحصد كل سنة ويُزرع في كل عام أو عامين، ويحتمل أن يقال: التقدير: (ونبت الحب الحصيد) والأول هو المختار، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ إشارة إلى المختلط من جنسين، لأن الجنات تُقطف ثمارها وتثمر من غير زراعة كل سنة، لكن النخل يؤبر ولولا التأبير لم يثمر، فهو جنس مختلط من الزرع والشجر، فكأنه تعالى خلق ما يُقطف كل سنة ويُزرع، وخَلَق ما لا يُزرع كل سنة ويُقطف مع بقاء أصلها، وخَلَق المركب من جنسين في الأثمار؛ لأن بعض الثمار فاكهة ولا قوت فيه، وأكثر الزرع قوت، والثمر فاكهة وقوت.

والباسقات: الطوال من النخيل.

وقوله تعالى: ﴿بَاسِقَٰتٖ﴾ يؤكد كمال القدرة والاختيار، وذلك من حيث إن الزرع إن قيل فيه إنه يمكن أن يُقطف من ثمرته لضعفه وضعف حجمه، فكذلك يحتاج إلى إعادته كل سنة، والجنات لكبرها وقوتها تبقى وتثمر سنة بعد سنة. فيقال: أليس النخل الباسقات أكثر وأقوى من الكرم الضعيف، والنخل محتاجة كل سنة إلى عمل عامل والكرم غير محتاج، فالله تعالى هو الذي قدر ذلك لذلك، لا للكبر والصغر والطول والقصر.

قوله تعالى: ﴿لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ أي منضود بعضها فوق بعض في أكمامها كما في سنبله الزرع وهو عجيب، فإن الأشجار الطوال أثمارها بارزها متميز بعضها من بعض لكل واحد منها أصل يخرج منه كالجوز واللوز وغيرهما، والطلع كالسنبلة الواحدة يكون على أصل واحد.

ثم قال تعالى: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ﴾ وفيه وجهان: أحدهما: نصب على المصدر لأن الإنبات رزق فكأنه تعالى قال: أنبتناها إنباتًا للعباد. والثاني: نصب على كونه مفعولاً له، كأنه قال: أنبتناها لرزق العباد.

وهاهنا مسائل:

المسألة الأولى: قال في خلق السماء والأرض: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ﴾ [ق: ٨] وفي الثمار قال: ﴿رِّزۡقٗا﴾ والثمار أيضًا فيها تبصرة، وفي السماء والأرض أيضًا منفعة غير التبصرة والتذكرة، فما الحكمة في اختيار الأمرين؟ نقول: فيه وجوه: أحدها: أن نقول: الاستدلال وقع لوجود أمرين: أحدهما الإعادة والثاني البقاء بعد الإعادة فإن النبي ﷺ كان يخبرهم بحشر وجمع يكون بعد الثواب الدائم والعقاب الدائم، وأنكروا ذلك، فأما الأول فالله القادر على خلق السموات

والأرض قادر على خلق الخلق بعد الفناء، وأما الثاني فلأن البقاء في الدنيا بالرزق والقادر على إخراج الأرزاق من النجم والشجر، قادر على أن يرزق العبد في الجنة ويبقى، فكأن الأول تبصرة وتذكرة بالخلق، والثاني تذكرة بالبقاء بالرزق، ويدل على هذا الفصل بينهما بقوله: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ حيث ذكر ذلك بعد الآيتين، ثم بدأ بذكر الماء وإنزاله وإنباته النبات. ثانيها: أن منفعة الثمار الظاهرة هي الرزق فذكرها، ومنفعة السماء الظاهرة ليست أمرًا عائدًا إلى انتفاع العباد لبعدها عن ذهنهم، حتى أنهم لو توهموا عدم الزرع والثمر لظنوا أن يهلكوا، ولو توهموا عدم السماء فوقهم لقالوا لا يضرنا ذلك. مع أن الأمر بالعكس أَوْلى، لأن السماء سبب الأرزاق بتقدير الله، وفيها غير ذلك من المنافع، والثمار وإن لم تكن (مَا) كان العيش، كما أنزل الله على قوم المن والسلوى وعلى قوم المائدة من السماء، فذكر الأظهر للناس في هذا الموضع. ثالثها: قوله: ﴿رِزْقًا﴾ إشارة إلى كونه منعمًا؛ لكون تكذيبهم في غاية القبح، فإنه يكون إشارة (للتكذيب) بالمنعم وهو أقبح ما يكون.

المسألة الثانية: قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨] فقيَّد العبد بكونه منيبًا، وجعل خلقها تبصرة لعباده المخلصين.

وقال: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ مطلقًا لأن الرزق حصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكرًا شاكرًا للإنعام، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام، فلم يخصص الرزق بقيد.

المسألة الثالثة: ذكر في هذه الآية أمورًا ثلاثة أيضًا وهي إنبات الجنات والحَب والنخل كما ذكر في السماء والأرض في كل واحدة أمورًا ثلاثة، وقد ثبت أن الأمور الثلاثة في الآيتين المتقدمين متناسبة، فهل هي كذلك في هذه الآية؟ نقول: قد بينا أن الأمور الثلاثة إشارة إلى الأجناس الثلاثة، وهي التي يبقى أصلها سنين ولا تحتاج إلى عمل عامل، والتي لا يبقى أصلها وتحتاج كل سنة إلى عمل عامل، والتي يجتمع فيها الأمران، وليس شيء من الثمار والزروع خارجًا عنه أصلاً، كما أن أمور الأرض منحصرة في ثلاثة: ابتداء وهو المد، ووسط وهو الثبات بالجبال الراسية، وثالثها هو غاية الكمال وهو الإنبات والتزيين بالزخارف.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ عطفًا على ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾.

وفيه بحثان:

الأول: إن قلنا: إن الاستدلال بإنبات الزرع وإنزال الماء كان لإمكان البقاء بالرزق، فقوله: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ إشارة إلى أنه دليل على الإعادة كما أنه دليل على البقاء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فإن قيل: كيف يصح قولك استدلالاً، وإنزال الماء كان لبيان البقاء مع أنه تعالى قال بعد ذلك: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾. وقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فيكون الاستدلال على البقاء قبل الاستدلال على الإحياء، والإحياء سابق على الإبقاء، فينبغي أن يبين أولاً أنه يحيي الموتى، ثم يبين أنه يبقيهم. نقول: لما كان الاستدلال بالسموات والأرض على الإعادة كافيًا بعد ذكر دليل

الإحياء، ذكر دليل الإبقاء، ثم عاد واستدرك فقال: هذا الدليل الدال على الإبقاء دال على الإحياء، وهو غير محتاج إليه لسبق دليلين قاطعين، فبدأ ببيان البقاء وقال: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ﴾ [ق: ٩] ثم ثنى بإعادة ذكر الإحياء فقال: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾.

وإن قلنا: إن الاستدلال بإنزال الماء وإنبات الزرع لا لبيان إمكان الحشر، فقوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ﴾ ينبغي أن يكون مغايرًا لقوله: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ بخلاف ما لو قلنا بالقول الأول لأن الإحياء وإن كان غير الإنبات لكن الاستدلال لما كان به على أمرين متغايرين، جاز العطف، تقول: خرج للتجارة وخرج للزيارة، ولا يجوز أن يقال: خرج للتجارة وذهب للتجارة إلا إذا كان الذهاب غير الخروج، فنقول: الإحياء غير إنبات الرزق لأن بإنزال الماء من السماء يخضر وجه الأرض ويخرج منها أنواع من الأزهار ولا يتغذى به ولا يقتات، وإنما يكون به زينة وجه الأرض وهو أعم من الزرع والشجر لأنه يوجد في كل مكان، والزرع والثمر لا يوجدان في كل مكان، فكذلك هذا الإحياء، فإن قيل: فكان ينبغي أن يقدم في الذكر لأن اخضرار وجه الأرض يكون قبل حصول الزرع والثمر، ولأنه يوجد في كل مكان بخلاف الزرع والثمر. نقول: لما كان إنبات الزرع والثمر أكمل نعمة قدمه في الذكر.

الثاني: في قوله: ﴿بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ﴾ نقول: جاز إثبات التاء في الميت وحذفها عند وصف المؤنث بها؛ لأن المَيْت تخفيف للمَيِّت، والميت فيعل بمعنى فاعل فيجوز فيه إثبات التاء لأن التسوية في الفعيل بمعنى المفعول، كقوله: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فإن قيل: لمَ سَوَّى بين المذكر والمؤنث في الفعيل بمعنى المفعول؟ قلنا: لأن الحاجة إلى التمييز بين الفاعل والمفعول أشد من الحاجة إلى التمييز بين المفعول المذكر والمفعول المؤنث نظرًا إلى المعنى ونظرًا إلى اللفظ: فأما المعنى فظاهر، وأما اللفظ فلأن المخالفة بين الفاعل والمفعول في الوزن والحرف أشد من المخالفة بين المفعول والمفعول له، إذا عُلم هذا فنقول: في الفعيل لم يتميز الفاعل بحرف فإن فعيلاً جاء بمعنى الفاعل كالنصير والبصير، وبمعنى المفعول كالكسير والأسير، ولا يتميز بحرف عند المخالفة إلا الأقوى فلا يتميز عند المخالفة الأدنى، والتحقيق فيه أن فعيلاً وُضع لمعنى لفظي، والمفعول وُضع لمعنى حقيقي، فكأن القائل قال: استعملوا لفظ المفعول للمعنى الفلاني، واستعملوا لفظ الفعيل مكان لفظ المفعول، فصار فعيل كالموضوع للمفعول، والمفعول كالموضوع للمعنى، ولما كان تغير اللفظ تابعًا لتغير المعنى تغير المفعول لكونه بإزاء المعنى، ولم يتغير الفعيل لكونه بإزاء اللفظ في أول الأمر، فإن قيل: فما الفرق بين هذا الموضع وبين قوله ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣] حيث أثبت التاء هناك؟ نقول: الأرض أراد بها الوصف فقال: ﴿ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ لأن معنى الفاعلية ظاهر هناك والبلدة الأصل فيها الحياة؛ لأن الأرض إذا صارت حية صارت آهلة، وأقام بها الناس وعمروها فصارت بلدة فأسقط التاء؛ لأن معنى الفاعلية ثبت فيها، والذي بمعنى الفاعل لا يثبت فيه التاء،

وتحقيق هذا قوله: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبا: ١٥]حيث أثبت التاء حيث ظهر بمعنى الفاعل، ولم يثبت حيث لم يظهر، وهذا بحث عزيز.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي كالإحياء ﴿ٱلْخُرُوجُ﴾ فإن قيل: الإحياء يشبه به الإخراج لا الخروج. فنقول: تقديره ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فتشققت وخرج منها النبات، كذلك تشقق ويخرج منها الأموات، وهذا يؤكد قولنا الرجع بمعنى الرجوع في قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]لأنه تعالى بيّن لهم ما استبعدوه، فلو استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي لناسب أن يقول: كذلك الإخراج. ولما قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ فُهم أنهم أنكروا الرجوع فقال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ نقول: فيه معنى لطيف على القول الآخر، وذلك لأنهم استبعدوا الرجع الذي هو من المتعدي بمعنى الإخراج، والله تعالى أثبت الخروج، وفيهما مبالغة تنبيهًا على بلاغة القرآن مع أنها مستغنية عن البيان، ووجهها هو أن الرجع والإخراج كالسبب للرجوع والخروج، والسبب إذا انتفى ينتفي المسبب جزمًا، وإذا وُجد قد يتخلف عنه المسبب لمانع، تقول: كسرته فلم ينكسر، وإن كان مجازًا، والمسبب إذا وُجد فقد وُجد سببه وإذا انتفى لا ينتفي السبب لما تقدم، إذا عُلم هذا فهم أنكروا وجود السبب ونفوه وينتفي المسبب عند انتفائه جزمًا فبالغوا وأنكروا الأمر جميعًا؛ لأن نفي السبب نفي المسبب، فأثبت الله الأمرين بالخروج كما نفوا الأمرين جميعًا بنفي الإخراج.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٣﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

ذكر المكذبين تذكيرًا لهم بحالهم ووبالهم، وأنذرهم بإهلاكهم واستئصالهم، وتفسيره ظاهر وفيه تسلية للرسول ﷺ وتنبيه بأن حاله كحال من تقدمه من الرسل، كُذبوا وصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونَصَرهم ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ فيهم وجوه: من المفسرين من قال: هم قوم شعيب. ومنهم من قال: هم الذين جاءهم من أقصى المدينة رجل يسعى وهم قوم عيسى عليه السلام، ومنهم من قال: هم أصحاب الأخدود، والرس موضع نُسبوا إليه أو فعل وهو حفر البئر، يقال: رس إذا حفر بئرًا. وقد تقدم في سورة الفرقان ذلك، وقال هاهنا: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وقال: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ لأن لوطًا كان مرسلاً إلى طائفة من قوم إبراهيم عليه السلام معارف لوط، ونوح كان مرسلاً إلى خلق عظيم، وقال: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ ولم يقل قوم فرعون، وقال: ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ لأن فرعون كان هو المغتر المستخف بقومه المستبد بأمره، وتُبع كان معتمدًا بقومه فجعل الاعتبار لفرعون، ولم يقل إلى قوم فرعون.

وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾. يحتمل وجهين: أحدهما: أن كل واحد كذب رسوله فهم كَذَّبوا الرسل، واللام حينئذٍ لتعريف العهد. وثانيهما وهو الأصح: هو أن كل واحد كذب

جميع الرسل، واللام حينئذٍ لتعريف الجنس، وهو على وجهين: أحدهما: أن المكذب للرسول مكذب لكل رسول. وثانيهما وهو الأصح: أن المذكورين كانوا منكرين للرسالة والحشر بالكلية. وقوله: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي ما وعد الله من نصرة الرسل عليهم وإهلاكهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾. وفيه وجهان: أحدهما: أنه استدلال بدلائل الأنفس؛ لأنا ذكرنا مرارًا أن الدلائل آفاقية ونفسية كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] ولما قرن الله تعالى دلائل الآفاق عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٩] وفي غير ذلك ذكر الدليل النفسي. وعلى هذا فيه لطائف لفظية ومعنوية:

أما (اللفظية) فهي أنه تعالى في الدلائل الآفاقية عطف بعضها على بعض بحرف الواو فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: ١٩] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩] ثم في الدليل النفسي ذكر حرف الاستفهام والفاء بعدها إشارة إلى أن تلك الدلائل من جنس، وهذا من جنس، فلم يجعل هذا تبعًا لذلك، ومثل هذا مراعى في أواخر يس، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ﴾ [يس: ٧٧] ثم لم يعطف الدليل الآفاقي هاهنا؟ نقول: والله أعلم ههنا وجد منهم الاستبعاد بقول: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] فاستدل بالأكبر وهو خلق السموات، ثم نزل كأنه قال: لا حاجة إلى ذلك الاستدلال بل في أنفسهم دليل جواز ذلك، وفي سورة يس لم يذكر استبعادهم فبدأ بالأدنى وارتقى إلى الأعلى.

والوجه الثاني: يحتمل أن يكون المراد بالخلق الأول هو خلق السموات؛ لأنه هو الخلق الأول وكأنه تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ﴾ [ق: ٦] ثم قال: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ بهذا الخلق؟ ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ويؤيد هذا الوجه هو أن الله تعالى قال بعد هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] فهو كالاستدلال بخلق الإنسان وهو معطوف بحرف الواو على ما تقدم من الخلق وهو بناء السماء ومد الأرض وتنزيل الماء وإنبات الجنّات، وفي تعريف الخلق الأول وتنكير خلق جديد وجهان: أحدهما: ما عليه الأمران لأن الأول عرفه كل واحد وعلم لنفسه، والخلق الجديد لم يعلم لنفسه ولم يعرفه كل أحد ولأن الكلام عنهم وهم لم يكونوا عالمين بالخلق الجديد.

والوجه الثاني: أن ذلك لبيان إنكارهم للخلق الثاني من كل وجه، كأنهم قالوا: أيكون لنا خلق ما؟! على وجه الإنكار له بالكلية. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ تقديره ما عيينا بل هم في شك من خلق جديد، يعني لا مانع من جهة الفاعل، فيكون من جانب المفعول وهو الخلق الجديد؛ لأنهم كانوا يقولون: ذلك محال. وامتناع وقوع المحال بالفاعل لا يوجب عجزًا فيه، ويقال للمشكوك فيه ملتبس كما يقال لليقين إنه ظاهر وواضح، ثم إن اللبس يسند إلى الأمر كما قلنا: إنه يقال: إن هذا أمر ظاهر، وهذا أمر ملتبس، وهاهنا أسند الأمر إليهم حيث قال: ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ﴾

وذلك لأن الشيء يكون وراء حجاب والناظر إليه بصير فيختفي الأمر من جانب الرائي فقال هاهنا ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾ ومِن في قوله: ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يفيد فائدة وهي ابتداء الغاية، كأن اللبس كان حاصلاً لهم من ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون ابتداء استدلال بخلق الإنسان، وهذا على قولنا: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥] معناه خلق السموات. وثانيهما: أن يكون تتميم بيان خلق الإنسان، وعلى هذا قولنا (الخلق الأول) هو خلق الإنسان أول مرة، ويحتمل أن يقال: هو تنبيه على أمر يوجب عودهم عن مقالهم، وبيانه أنه تعالى لما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ كان ذلك إشارة إلى أنه لا يخفى عليه خافية ويعلم ذوات صدورهم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بيان لكمال علمه، والوريد: العرق الذي هو مجرى الدم يجري فيه ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن، والله أقرب من ذلك بعلمه؛ لأن العرق تحجبه أجزاء اللحم ويخفى عنه، وعلم الله تعالى لا يحجب عنه شيء، ويحتمل أن يقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ بتفرد قدرتنا فيه يجري فيه أمرنا كما يجري الدم في عروقه.

قوله تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿إِذْ﴾ ظرف، والعامل فيه ما في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وفيه إشارة إلى أن المكلف غير متروك سدى، وذلك لأن الملك إذا أقام كتابًا على أمر اتكل عليهم، فإن كان له غفلة عنه فيكون في ذلك الوقت يتكل عليهم، وإذا كان عند إقامة الكتاب لا يبعد عن ذلك الأمر ولا يغفل عنه، فهو عند عدم ذلك أقرب إليه وأشد إقبالاً عليه، فنقول: الله في وقت أخذ الملكين منه فعله وقوله أقرب إليه من عرقه المخالط له، فعندما يخفى عليهما شيء يكون حفظنا بحاله أكمل وأتم، ويحتمل أن يقال: التلقي من الاستقبال، يقال: فلان يتلقى الركب، وعلى هذا الوجه فيكون معناه وقت ما يتلقاه المتلقيان يكون عن يمينه وعن شماله قعيد، فالمتلقيان على هذا الوجه هما الملكان اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما يأخذ أرواح الصالحين وينقلها إلى السرور والحبور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين وينقلها إلى الويل والثبور إلى يوم الحشر من القبور، فقال تعالى وقت تلقيهما وسؤالهما: إنه من أي القبيلين يكون عند الرجل قعيد عن اليمين وقعيد عن الشمال، يعني الملكان ينزلان وعنده

ملكان آخران كاتبان لأعماله يسألانهما من أي القبيلين كان، فإن كان من الصالحين يأخذ روحه ملك السرور، ويرجع إلى الملك الآخر مسرورًا حيث لم يكن مسرورًا ممن يأخذها هو، وإن كان من الطالحين يأخذها ملك العذاب ويرجع إلى الآخر محزونًا حيث لم يكن ممن يأخذها هو، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ٢١] فالشهيد هو القعيد والسائق هو المتلقي يتلقى أخذ روحه من ملك الموت فيسوقه إلى منزله وقت الإعادة. وهذا أعرف الوجهين وأقربهما إلى الفهم، وقول القائل: (جلست عن يمين فلان) فيه إنباء عن تنحٍّ ما عنه احترامًا له واجتنابًا منه، وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] المخالط لأجزائه المُداخل في أعضائه والملك متنح عنه فيكون علمنا به أكمل من علم الكاتب، لكن من أجلس عنده أحدًا ليكتب أفعاله وأقواله ويكون الكاتب ناهضًا خبيرًا والملك الذي أجلس الرقيب يكون جبارًا عظيمًا، فنفسه أقرب إليه من الكاتب بكثير، والقعيد هو الجليس، كما أن قعد بمعنى جلس.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

أي شدته التي تُذهب العقول وتُذهل الفِطن، وقوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: أن يكون المراد منه الموت فإنه حق، كأن شدة الموت تُحضر الموت والباء حينئذٍ للتعدية، يقال: جاء فلان بكذا أي أحضره. وثانيهما: أن يكون المراد من الحق ما أتى به من الدين لأنه حق وهو يظهر عند شدة الموت، وما من أحد إلا وهو في تلك الحالة يُظهر الإيمان لكنه لا يُقبل إلا ممن سبق منه ذلك وآمن بالغيب، ومعنى المجيء به هو أنه يُظهره، كما يقال الدين الذي جاء به النبي ﷺ أي أظهره، ولما كانت شدة الموت مظهرة له قيل فيه جاء به، والباء حينئذٍ يحتمل أن يكون المراد منها ملبسة يقال: جئتك بأمل فسيح وقلب خاشع. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى الموت ويحتمل أن يكون إشارة إلى الحق، وحاد عن الطريق، أي مال عنه، والخطاب قيل مع النبي ﷺ وهو منكر، وقيل مع الكافرين وهو أقرب، والأقوى أن يقال: هو خطاب عام مع السامع، كأنه يقول: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أيها السامع.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾

عطف على قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [ق: ١٩] والمراد منه إما النفخة الأولى فيكون بيانًا لما يكون عند مجيء سكرة الموت، أو النفخة الثانية وهو أظهر لأن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ بالنفخة الثانية أليق ويكون قوله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ إشارة إلى الإماتة، وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إشارة إلى الإعادة والإحياء، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ذكر الزمخشري أنه إشارة إلى المصدر الذي من قوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ أي وقت ذلك النفخ يوم الوعيد. وهو ضعيف لأن (يوم) لو كان منصوبًا لكان ما ذكرنا ظاهرًا وأما رفع (يوم) فيفيد أن ذلك نفس اليوم، والمصدر لا يكون نفس

الزمان وإنما يكون في الزمان فالأَوْلى أن يقال: ذلك إشارة إلى الزمان المفهوم من قوله: ﴿وَنُفِخَ﴾ لأن الفعل كما يدل على المصدر يدل على الزمان، فكأنه تعالى قال: ذلك الزمان يوم الوعيد، والوعيد هو الذي أوعد به من الحشر والإيتاء والمجازاة.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾

قد بينا من قبل أن السائق هو الذي يسوقه إلى الموقف ومنه إلى مقعده، والشهيد هو الكاتب، والسائق لازم للبر والفاجر أما البر فيساق إلى الجنة وأما الفاجر فإلى النار، وقال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الزمر: ٧١] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ﴾ [الزمر: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ إما على تقدير يقال له أو قيل له ﴿لَّقَدْ كُنتَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] والخطاب عام، أما الكافر فمعلوم الدخول في هذا الحكم وأما المؤمن فإنه يزداد علمًا ويظهر له ما كان مخفيًا عنه ويرى علمه يقينًا رأي المعتبر يقينًا فيكون بالنسبة إلى تلك الأحوال وشدة الأهوال كالغافل، وفيه الوجهان اللذان ذكرناهما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩] والغفلة شيء من الغطاء كاللبس وأكثر منه؛ لأن الشاك يلتبس الأمر عليه، والغافل يكون الأمر بالكلية محجوبًا قلبه عنه وهو الغلف.

وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي أزلنا عنك غفلتك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ وكان من قبل كليلاً، وقرينك حديدًا، وكان في الدنيا خليلاً، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ وفي القرين وجهان: أحدهما: الشيطان الذي زَيَّن الكفر له والعصيان، وهو الذي قال تعالى فيه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥] وقال تعالى: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] وقال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] فالإشارة بهذا المسوق إلى المرتكب الفجور والفسوق، والعتيد معناه المعد للنار، وجملة الآية معناها أن الشيطان يقول: هذا العاصي شيء، هو عندي معد لجهنم أعددته بالإغواء والإضلال. والوجه الثاني: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي القعيد الشهيد الذي سبق ذكره وهو الملك، وهذا إشارة إلى كتاب أعماله، وذلك لأن الشيطان في ذلك الوقت لا يكون له من المكانة أن يقول ذلك القول، ولأن قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ فيكون عتيد صفته، وثانيهما أن تكون موصولة، فيكون عتيد محتملاً الثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون خبرًا بعد خبر والخبر الأول ﴿مَا لَدَىَّ﴾ معناه هذا الذي هو لديَّ وهو عتيد. وثانيها: أن يكون عتيد هو الخبر لا غير، و﴿مَا لَدَىَّ﴾ يقع كالوصف المميز للعتيد عن غيره، كما تقول: هذا الذي عند زيد، وهذا الذي يجيئني عمرو، فيكون الذي عندي والذي يجيئني لتمييز المشار إليه عن غيره، ثم

يخبر عنه بما بعده، ثم يقال للسائق أو الشهيد: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ فيكون هو أمرًا لواحد، وفيه وجهان: أحدهما أنه ثنى تكرار الأمر كما ألق ألق، وثانيهما عادة العرب ذلك.

وقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الكفَّار يحتمل أن يكون من الكفران، فيكون بمعنى كثير الكفران، ويحتمل أن يكون من الكفر، فيكون بمعنى شديد الكفر، والتشديد في لفظة (فَعَّال) يدل على شدة في المعنى. والعنيد فعيل بمعنى فاعل من عند عنودًا ومنه العناد، فإن كان الكَفَّار من الكفران، فهو أنكر نعم الله مع كثرتها.

قوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: كثير المنع للمال الواجب، وإن كان من الكفر، فهو أنكر دلائل وحدانية الله مع قوتها وظهورها، فكان شديد الكفر عنيدًا حيث أنكر الأمر اللائح والحق الواضح، وكان كثير الكفران لوجود الكفران منه عند كل نعمة، عنيد ينكرها مع كثرتها عن المستحق الطالب، والخير هو المال، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧] حيث بدأ ببيان الشرك، وثنى بالامتناع من إيتاء الزكاة، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكَفَّار من الكفران، كأنه يقول: كَفَرَ أنعم الله تعالى، ولم يؤد منها شيئًا لشكر أنعمه. ثانيهما: شديد المنع من الإيمان فهو مناع للخير وهو الإيمان الذي هو خير محض من أن يدخل في قلوب العباد، وعلى هذا ففيه مناسبة شديدة إذا جعلنا الكَفَّار من الكفر، كأنه يقول: كفر بالله، ولم يقتنع بكفره حتى منع الخير من الغير.

وقوله تعالى: ﴿مُّعْتَدٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن يكون قوله: ﴿مُّعْتَدٍ﴾ مرتبًا على ﴿مَّنَّاعٍ﴾ بمعنى مناع الزكاة، فيكون معناه لم يؤد الواجب، وتعدى ذلك حتى أخذ الحرام أيضًا بالربا والسرقة، كما كان عادة المشركين. وثانيهما: أن يكون قوله: ﴿مُّعْتَدٍ﴾ مرتبًا على ﴿مَّنَّاعٍ﴾ بمعنى منع الإيمان، كأنه يقول: منع الإيمان ولم يقنع به حتى تعداه، وأهان من آمن وآذاه، وأعان من كفر وآواه.

وقوله تعالى: ﴿مُّرِيبٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ذو ريب، وهذا على قولنا: الكَفَّار كثير الكفران، والمناع مانع الزكاة، كأنه يقول: لا يعطي الزكاة لأنه في ريب من الآخرة والثواب فيقول: لا أقرب مالاً من غير عوض. وثانيهما: ﴿مُّرِيبٍ﴾ يوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة، والإرابة جاءت بالمعنيين جميعًا، وفي الآية ترتيب آخر غير ما ذكرناه، وهو أن يقال: هذا بيان أحوال الكفر بالنسبة إلى الله، وإلى رسول الله، وإلى اليوم الآخر: فقوله: ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ إشارة إلى حاله مع الله يكفر بعد ويعاند آياته، وقوله: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ﴾ إشارة إلى حاله مع رسول الله، فيمنع الناس من اتباعه، ومن الإنفاق على من عنده، ويتعدى بالإيذاء وكثرة الهذاء، وقوله: ﴿مُّرِيبٍ﴾ إشارة إلى حاله بالنسبة إلى اليوم الآخر يريب فيه ويرتاب، ولا يظن أن

الساعة قائمة، فإن قيل: قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ إلى غير ذلك يوجب أن يكون الإلقاء خاصًّا بمن اجتمع فيه هذه الصفات بأسرها، والكفر كافٍ في إيراث الإلقاء في جهنم والأمر به. فنقول: قوله تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ليس المراد منه الوصف المميز، كما يقال: أعط العالم الزاهد، بل المراد الوصف المبين بكون الموصوف موصوفًا به إما على سبيل المدح، أو على سبيل الذم، كما يقال: هذا حاتم السخي، فقوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يفيد أن الكفار عنيد ومناع، فالكفار كافر؛ لأن آيات الوحدانية ظاهرة، ونعم الله تعالى على عبده وافرة، وعنيد ومناع للخير؛ لأنه يمدح دينه ويذم دين الحق فهو يمنع، ومريب لأنه شاكٌّ في الحشر، فكل كافر فهو موصوف بهذه الصفات.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝﴾

فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه بدل من قوله: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] ثانيها: أنه عطف على ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ثالثها: أن يكون عطفًا على قوله: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ كأنه قال: (ألقيا في جهنم كل كفار عنيد) أي والذي جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه بعد ما ألقيتموه في جهنم في عذاب شديد من عذاب جهنم.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ وهو جواب لكلام مقدر، كأن الكافر حينما يلقى في النار يقول: ربنا أطغاني شيطاني!! فيقول الشيطان: ربنا ما أطغيته، يدل عليه قوله تعالى بعد هذا: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] لأن الاختصام يستدعي كلامًا من الجانبين وحينئذٍ هذا، كما قال الله تعالى في هذه السورة وفي ص: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ [ص: ٦٠] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦١، ٦٤].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزمخشري: المراد بالقرين في الآية المتقدمة هو الشيطان لا المَلَك الذي هو شهيد وقعيد. واستدل عليه بهذا. وقال غيره، المراد المَلَك لا الشيطان، وهذا يصلح دليلًا لمن قال ذلك، وبيانه هو أنه في الأول لو كان المراد الشيطان، فيكون قوله: ﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣] معناه هذا الشخص عندي عتيد متعد للنار اعتدته بإغوائي، فإن الزمخشري صرّح في تفسير تلك بهذه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مناقضًا لقوله أعتدته وللزمخشري أن يقول: الجواب عنه من وجهين: أحدهما: أن يقول: إن الشيطان يقول: أعتدته بمعنى زينت له الأمر وما ألجأته فيصح القولان من الشيطان. وثانيهما: أن تكون الإشارة إلى حالين: ففي الحالة الأولى إنما فعلت به ذلك إظهارًا للانتقام من بني آدم، وتصحيحًا لما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢] ثم إذا رأى العذاب وأنه معه مشترك وله على الإغواء عذاب، كما قال

تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾[ص: ٨٤، ٨٥] فيقول ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فيرجع عن مقالته عند ظهور العذاب.

المسألة الثانية: قال هاهنا: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ من غير واو، وقال في الآية الأولى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾[ق: ٢٣] بالواو العاطفة، وذلك لأن في الأول الإشارة وقعت إلى معنيين مجتمعين، وأن كل نفس في ذلك الوقت تجيء ومعها سائق، ويقول الشهيد ذلك القول، وفي الثاني لم يوجد هناك معنيان مجتمعان حتى يذكر بالواو، والفاء في قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ﴾[ق: ٢٦] لا يناسب قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مناسبة مقتضية للعطف بالواو.

المسألة الثالثة: القائل ههنا واحد، وقال ﴿رَبَّنَا﴾ ولم يقل رب، وفي كثير من المواضع مع كون القائل واحدًا، قال رب، كما في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾[الأعراف: ١٤٣] وقول نوح: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى﴾[نوح: ٢٨] وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ﴾[يوسف: ٣٣] وقوله: ﴿قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١] إلى غير ذلك، وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[ص: ٧٩] نقول في جميع تلك المواضع القائل طالب، ولا يحسن أن يقول الطالب: يا رب عمرني واخصصني وأعطني كذا، وإنما يقول: أعطنا لأن كونه ربًّا لا يناسب تخصيص الطالب، وأما هذا الموضع فموضع الهيبة والعظمة وعرض الحال دون الطلب فقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ يعني أن ذلك لم يكن بإطغائه، وإنما كان ضالاً متغلغلاً في الضلال فطغى.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الوجه في اتصاف الضلال بالبعيد؟ نقول: الضال يكون أكثر ضلالاً عن الطريق، فإذا تمادى في الضلال وبقي فيه مدة يبعد عن المقصد كثيرًا، وإذا علم الضلال قصر في الطريق من قريب فلا يبعد عن المقصد كثيرًا، فقوله: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وصف المصدر بما يوصف به الفاعل، كما يقال: كلام صادق وعيشة راضية، أي ضلال ذو بعد، والضلال إذا بعد مداه وامتد الضال فيه يصير بيّنًا ويظهر الضلال؛ لأن من حاد عن الطريق وأبعد عنه تتغير عليه السمات والجهات ولا يرى عين المقصد ويتبين له أنه ضل عن الطريق، وربما يقع في أودية ومفاوز ويظهر له أمارات الضلال بخلاف من حاد قليلاً، فالضلال وصفه الله تعالى بالوصفين في كثير من المواضع فقال تارة في ضلال مبين وأخرى قال: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ إشارة إلى قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٤٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾[الحجر: ٤٢] أي لم يكونوا من العباد، فجعلهم أهل العناد، ولو كان لهم في سبيلك قدم صدق لما كان لي عليهم من يد. والله أعلم.

المسألة الثالثة: كيف قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مع أنه قال: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[الحجر: ٣٩]؟ قلنا: الجواب عنه من ثلاثة أوجه: وجهان قد تقدما في الاعتذار عما قاله الزمخشري. والثالث: هو أن يكون المراد من قوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي لأديمنهم على الغواية كما أن الضال إذا قال له شخص أنت على الجادة، فلا تتركها، يقال: إنه يضله، كذلك هاهنا، وقوله: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي ما كان ابتداء الإطغاء مني.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾.

قد ذكرنا أن هذا دليل على أن هناك كلامًا قبل قوله: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾[ق: ٢٧] وهو قول الملقى في النار ربنا أطغاني، وقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ يفيد مفهومه أن الاختصام كان ينبغي أن يكون قبل الحضور والوقوف بين يدي.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

تقرير للمنع من الاختصام وبيان لعدم فائدته، كأنه يقول: قد قلت: إنكم إذا اتبعتم الشيطان تدخلون النار وقد اتبعتموه. فإن قيل: ما حكم الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾؟ قلنا: فيها وجوه: أحدها: أنها مزيدة كما في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[المؤمنون: ٢٠]، على قول من قال إنها هناك زائدة، وقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾[النساء: ٦] وثانيها: معدية فقَدَّمت بمعنى تقدمت كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ﴾[الحجرات: ١] ثالثها: في الكلام إضمار تقديره: وقد قدمت إليكم مقترنًا بالوعيد ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ فيكون المقدم هو قوله، ما يبدل القول لدي. رابعها: هي المصاحبة يقول القائل: اشتريت الفرس بلجامه وسرجه، أي معه فيكون كأنه تعالى قال: قدمت إليكم ما يجب مع الوعيد على تركه بالإنذار.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون قوله: ﴿لَدَىَّ﴾ متعلقًا بالقول، أي ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾.

وثانيهما: أن يكون ذلك متعلقًا بقوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ أي لا يقع التبديل عندي.

وعلى الوجه الأول في القول الذي لديه وجوه. أحدها: هو أنهم لما قالوا حتى يبدل ما قيل في حقهم: ﴿أَلْقِيَا﴾[ق: ٢٤] بقول الله بعد اعتذارهم: لا تلقياه، فقال تعالى: ما يبدل هذا القول لدي، وكذلك قوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾[الزمر: ٧٢] لا تبديل له. ثانيها: هو قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[السجدة: ١٣] أي لا تبديل لهذا القول. ثالثها: لا خلف في إيعاد الله تعالى كما لا إخلاف في ميعاد الله، وهذا يرد على المرجئة حيث قالوا: ما ورد في القرآن من الوعيد، فهو تخويف لا يحقق الله شيئًا منه، وقالوا: الكريم إذا وعد أنجز ووفى،

وإذا أوعد أخلف وعفا. رابعها: لا يبدل القول السابق أن هذا شقي، وهذا سعيد، حين خلقت العباد، قلت: هذا شقي ويعمل عمل الأشقياء، وهذا تقي ويعمل عمل الأتقياء، وذلك القول عندي لا تبديل له بسعي ساع ولا سعادة إلا بتوفيق الله تعالى.

وأما على الوجه الثاني ففي ﴿مَا يُبَدَّلُ﴾ وجوه أيضًا: أحدها: لا يُكذب لدي ولا يفترى بين يدي، فإني عالم علمت من طغى ومن أطغى، ومن كان طاغيًا ومن كان أطغى، فلا يفيدكم قولكم أطغاني شيطاني، ولا قول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ [ق: ٢٧] ثانيها: إشارة إلى معنى قوله تعالى: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] كأنه تعالى قال: لو أردتم أن لا أقول: (فألقياه في العذاب الشديد) كنتم بدلتم هذا من قبل بتبديل الكفر بالإيمان قبل أن تقفوا بين يدي، وأما الآن فما يبدل القول لدي. كما قلنا في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ [ق: ٢٨] المراد أن اختصامكم كان يجب أن يكون قبل هذا حيث قلت: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] ثالثها: معناه لا يبدل الكفر بالإيمان لديَّ، فإن الإيمان عند اليأس غير مقبول، فقولكم: (ربنا وإلهنا) لا يفيدكم فمن تكلم بكلمة الكفر لا يفيده قوله ربنا ما أشركنا، وقوله ربنا آمنا. وقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾ إشارة إلى نفي الحال كأنه تعالى يقول: ما يبدل اليوم لديَّ القول؛ لأن (ما) يُنفى بها الحال إذا دخلت على الفعل المضارع، يقول القائل: ماذا تفعل غدًا؟ يقال: ما أفعل شيئًا، أي في الحال، وإذا قال القائل: ماذا يفعل غدًا، يقال لا يفعل شيئًا أو لن يفعل شيئًا إذا أُريد زيادة بيان النفي، فإن قيل: هل فيه بيان معنوي يفيد افتراق ما ولا في المعنى؟ نقول: نعم، وذلك لأن كلمة (لا) أدل على النفي لكونها موضوعة للنفي وما في معناه كالنهي خاصة لا يفيد الإثبات إلا بطريق الحذف أو الإضمار، وبالجملة فبطريق المجاز كما في قوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [البلد: ١] وأما (ما) فغير متمحضة للنفي لأنها واردة لغيره من المعاني حيث تكون اسمًا، والنفي في الحال لا يفيد النفي المطلق لجواز أن يكون مع النفي في الحال الإثبات في الاستقبال، كما يقال: ما يفعل الآن شيئًا وسيفعل إن شاء الله، فاختص بما لم يتمحض نفيًا حيث لم تكن متمحضة للنفي، لا يقال: إن لا للنفي في الاستقبال والإثبات في الحال، فاكتفى في الاستقبال بما لم يتمحض نفيًا لأنا نقول: ليس كذلك إذ لا يجوز أن يقال: لا يفعل زيد ويفعل الآن، نعم يجوز أن يقال: لا يفعل غدًا ويفعل الآن لكون قولك: (غدًا) يجعل الزمان مميزًا فلم يكن قولك لا يفعل للنفي في الاستقبال بل كان للنفي في بعض أزمنة الاستقبال، وفي مثالنا قلنا: ما يفعل وسيفعل، وما قلنا: سيفعل غدًا وبعد غد، بل هاهنا نفينا في الحال وأثبتنا في الاستقبال من غير تمييز زمان من أزمنة الاستقبال عن زمان، ومثاله في العكس أن يقال: لا يفعل زيد وهو يفعل، من غير تعيين وتمييز، ومعلوم أن ذلك غير جائز. وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مناسب لما تقدم على الوجهين جميعًا.

أما إذا قلنا بأن المراد من قوله: ﴿لَدَىَّ﴾ أن قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ [ق: ٢٦] وقول القائل في قوله:

﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢] لا تبديل له، فظاهر؛ لأن الله تعالى بيّن أن قوله: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤] لا يكون إلا للكافر العنيد فلا يكون هو ظلاّمًا للعبيد. وأما إذا قلنا بأن المراد ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ بل كان الواجب التبديل قبل الوقوف بين يدي، فكذلك لأنه أنذر من قبل، وما عذب إلا بعد أن أرسل وبيّن السبل.

وفيه مباحث لفظية ومعنوية:

أما اللفظية: فهي في الباء من قوله ليس ﴿بِظَلَّٰمٖ﴾ وفي اللام من قوله: ﴿لِّلۡعَبِيدِ﴾ أما الباء فنقول: الباء تدخل في المفعول به حيث لا يكون تعلق الفعل به ظاهرًا، ولا يجوز إدخالها فيه حيث يكون في غاية الظهور، ويجوز الإدخال والترك حيث لا يكون في غاية الظهور ولا في غاية الخفاء، فلا يقال: (ضربت بزيد) لظهور تعلق الفعل بزيد، ولا يقال: (خرجت وذهبت زيدًا) بدل قولنا (خرجت وذهبت بزيد) لخفاء تعلق الفعل بزيد فيهما، ويقال: (شكرته وشكرت له) للتوسط فكذلك خبر (ما) لما كان مشبهًا بالمفعول، وليس في كونه فعلاً غير ظاهر غاية الظهور؛ لأن إلحاق الضمائر التي تلحق بالأفعال الماضية كالتاء والنون في قولك: لست ولستم ولستن ولسنا يصحح كونها فعلاً كما في قولك: كنت وكنا، لكن في الاستقبال يبين الفرق حيث نقول: يكون وتكون، وكن، ولا نقول ذلك في ليس وما يشبه بها فصارتا كالفعل الذي لا يظهر تعلقه بالمفعول غاية الظهور، فجاز أن يقال: ليس زيد جاهلاً وليس زيد بجاهل، كما يقال: مسحته ومسحت به وغير ذلك مما يعدى بنفسه وبالباء، ولم يجز أن يقال: كان زيد بخارج وصار عمرو بدارج؛ لأن صار وكان فعل ظاهر غاية الظهور بخلاف ليس وما النافية، وهذا يؤيد قول من قال: (ما هذا بشرًا) وهذا ظاهر.

البحث الثاني: لو قال قائل: كان ينبغي أن لا يجوز إخلاء خبر ما عن الباء، كما لا يجوز إدخال الباء في خبر كان، وخبر ليس يجوز فيه الأمران. وتقرير هذا السؤال هو أن كان لما كان فعلاً ظاهرًا جعلناه بمنزلة (ضَرَب) حيث منعنا دخول الباء في خبره كما منعناه في مفعوله، و(ليس) لما كان فعلاً من وجه نظرًا إلى قولنا لست ولسنا ولستم، ولم يكن فعلاً ظاهرًا نظرًا إلى صيغ الاستقبال والأمر جعلناه متوسطًا وجوزنا إدخال الباء في خبره وتركه، كما قلنا في مفعول شكرته وشكرت له، و(ما) لما لم يكن فعلاً بوجه كان ينبغي أن يكون بمنزلة الفعل الذي لا يتعدى إلى المفعول إلا بالحرف وكان ينبغي أن لا يجيء خبره إلا مع الباء كما لا يجيء مفعول ذهب إلا مع الباء، ويؤيد هذا أنا فرقنا بين ما وليس وكان، وجعلنا لكل واحدة مرتبة ليست للأخرى، فجوزنا تأخير كان في اللفظ حيث جوزنا أن يقول القائل (زيد خارجًا كان) وما جوزنا (زيد خارجًا ليس)، لأن (كان) فعل ظاهر و(ليس) دونه في الظهور، وما جوزنا تأخير (ما) عن أحد شطري الكلام أيضًا بخلاف (ليس)، حيث لا يجوز أن يقول القائل: زيد ما بظلام، إلا أن يعيد ما يرجع إليه فيقول (زيد ما هو بظلام) فصار بينهما ترتيب ما يوجه، وليس يؤخر عن أحد الشطرين ولا

يؤخر في الكلام بالكلية، وكان يؤخر بالكلية لما ذكرنا من الظهور والخفاء، فكذلك القول في إلحاق الباء كان ينبغي أن لا يصح إخلاء خبر ما عن الباء، وفي ليس يجوز الأمران، وفي كان لا يجوز الإدخال، وهذا هو المعتمد عليه في لغة بني تميم حيث قالوا: إن ما بعد (ما) إذا جعل خبرًا يجب إدخال الباء عليه فإن لم تدخل عليه يكون ذلك معربًا على الابتداء أو على وجه آخر ولا يكون خبرًا. والجواب عن السؤال هو أن نقول: الأكثر إدخال الباء في خبر ما ولا سيما في القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٣]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ﴾ [فاطر: ٢٢]، ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ﴾ [البقرة: ١٦٧]، ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ وأما الوجوب فلا لأن ما أشبه ليس في المعنى في الحقيقة وخالفها في العوارض وهو لحوق التاء والنون، وأما في المعنى فهما لنفي الحال فالشبه مقتضٍ لجواز الإخلاء والمخالفة مقتضية لوجوب الإدخال، لكن ذلك المقتضي أقوى لأنه راجع إلى الأمر الحقيقي، وهذا راجع إلى الأمر العارضي وما بالنفس أقوى مما بالعارض، وأما التقديم والتأخير فلا يلزم منه وجوب إدخال الباء.

وأما الكلام في اللام فنقول: اللام لتحقيق معنى الإضافة، يقال: غلام زيد وغلام لزيد، وهذا في الإضافات الحقيقية بإثبات التنوين فيه، وأما في الإضافات اللفظية كقولنا: ضارب زيد وقاتل عمرو، فإن الإضافة فيه غير معنوية، فإذا خرج الضارب عن كونه مضافًا بإثبات التنوين فقد كان يجب أن يعاد الأصل وينصب ما كان مضافًا إليه الفاعل بالمفعول به ولا يؤتى باللام لأنه حينئذٍ لم تبق الإضافة في اللفظ، ولم تكن الإضافة في المعنى، غير أن اسم الفاعل منحط الدرجة عن الفعل فصار تعلقه بالمفعول أضعف من تعلق الفعل بالمفعول، وصار من باب الأفعال الضعيفة التعلق حيث بينا جواز تعديتها إلى المفعول بحرف وغير حرف، فلذلك جاز أن يقال: ضارب زيد أو ضارب لزيد، كما جاز: مسحته ومسحت به وشكرته وشكرت له، وذلك إذا تقدم المفعول كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣] للضعف.

وأما المعنوية فمباحث:

الأول: الظَّلَّام مبالغة في الظالم ويلزم من إثباته إثبات أصل الظلم، إذا قال القائل: (هو كذاب) يلزم أن يكون كاذبًا كثر كذبه، ولا يلزم من نفيه نفي أصل الكذب لجواز أن يقال: فلان ليس بكذاب كثير الكذب لكنه يكذب أحيانًا، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ﴾ لا يفهم منه نفي أصل الظلم والله ليس بظالم فما الوجه فيه؟ نقول: الجواب عنه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الظلّام بمعنى الظالم كالتمّار بمعنى التامر وحينئذٍ يكون اللام في قوله: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ لتحقيق النسبة لأن الفعّال حينئذٍ بمعنى ذي ظلم، وهذا وجه جيد مستفاد من الإمام زين الدين أدام الله فوائده.

والثاني: ما ذكره الزمخشري وهو أن ذلك أمر تقديري، كأنه تعالى يقول: لو ظلمت عبدي الضعيف الذي هو محل الرحمة لكان ذلك غاية الظلم وأما أنا بذلك. فيلزم من نفي كونه ظلامًا نفي كونه ظالمًا، ويحقق هذا الوجه إظهار لفظ العبيد حيث يقول: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي في

ذلك اليوم الذي امتلأت جهنم مع سعتها حتى تصيح وتقول: لم يبق لي طاقة بهم، ولم يبق فيَّ موضع لهم فهل من مزيد؟ استفهام استكثار، فذلك اليوم مع أني أُلقي فيها عددًا لا حصر له لا أكون بسبب كثرة التعذيب كثير الظلم. وهذا مناسب، وذلك لأنه تعالى خصص النفي بالزمان حيث قال: ما أنا بظلام يوم نقول: أي وما أنا بظلام في جميع الأزمان أيضًا، وخصص بالعبيد حيث قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ولم يطلق، فكذلك خصص النفي بنوع من أنواع الظلم ولم يطلق، فلم يلزم منه أن يكون ظالمًا في غير ذلك الوقت، وفي حق غير العبيد وإن خصص والفائدة في التخصيص أنه أقرب إلى التصديق من التعميم. والثالث: هذا يدل على أن التخصيص بالذكر لا يدل على نفي ما عداه؛ لأنه نفى كونه ظلامًا ولم يلزم منه نفي كونه ظالمًا، ونفي كونه ظلامًا للعبيد، ولم يلزم منه نفي كونه ظلامًا لغيرهم، كما قال في حق الآدمي: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢].

البحث الثاني: قال هاهنا: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ من غير إضافة، وقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾ [النمل: ٨١]، ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] على وجه الإضافة، فما الفرق بينهما؟ نقول: الكلام قد يخرج أولاً مخرج العموم، ثم يخصص لأمر ما لا لغرض التخصيص، يقول القائل: (فلان يعطي ويمنع) ويكون غرضه التعميم، فإن سأل سائل: يعطي من، ويمنع من؟ يقول: زيدًا وعَمْرًا، ويأتي بالمخصص لا لغرض التخصيص، وقد يخرج أولاً مخرج الخصوص، فيقول: (فلان يعطي زيدًا ماله) إذا علمت هذا فقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ﴾ كلام لو اقتصر عليه لكان للعموم، فأتى بلفظ العبيد لا لكون عدم الظلم مختصًّا بهم، بل لكونهم أقرب إلى كونهم محل الظلم من نفسه تعالى، وأما النبي ﷺ فكان في نفسه هاديًا، وإنما أراد نفي ذلك الخاص فقال: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِي ٱلۡعُمۡيِ﴾ وما قال: ما أنت بهادٍ، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

البحث الثالث: العبيد يحتمل أن يكون المراد منه الكفار، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [يس: ٣٠] يعني أعذبهم وما أنا بظلام لهم، ويحتمل أن يكون المراد منه المؤمنين، ووجهه هو أن الله تعالى يقول: لو أبدلت القول ورحمت الكافر، لكنت في تكليف العباد ظالمًا لعبادي المؤمنين؛ لأني منعتهم من الشهوات لأجل هذا اليوم، فإن كان ينال من لم يأت بما أتى المؤمن ما يناله المؤمن، لكان إتيانه بما أتى به من الإيمان والعبادة غير مفيد فائدة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، ومعنى قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥] ويحتمل أن يكون المراد التعميم.

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾

العامل في ﴿يَوۡمَ﴾ ماذا؟ فيه وجوه: الأول: ما أنا بظلام مطلقًا. والثاني: الوقت، حيث قال

ما أنا يوم كذا، ولم يقل: ما أنا بظلام في سائر الأزمان، وقد تقدم بيانه، فإن قيل: فما فائدة التخصيص؟ نقول: النفي الخاص أقرب إلى التصديق من النفي العام لأن المتوهم ذلك، فإن قاصر النظر يقول: يوم يُدخل الله عبده الضعيف جهنم يكون ظالمًا له، ولا يقول: بأنه يوم خلقه يرزقه ويربيه يكون ظالمًا، ويتوهم أنه يظلم عبده بإدخاله النار، ولا يتوهم أنه يظلم نفسه أو غير عبيده المذكورين، ويتوهم أنه من يدخل خلقًا كثيرًا لا يجوزه حد، ولا يدركه عد النار، ويتركهم فيها زمانًا لا نهاية له - كثير الظلم، فنفى ما يتوهم دون ما لا يتوهم.

وقوله: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ بيان لتصديق قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنه لبيان استكثارها الداخلين، كما أن من يضرب غيره ضربًا مبرحًا، أو يشتمه شتمًا قبيحًا فاحشًا، ويقول المضروب: هل بقي شيء آخر؟! ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لأن الامتلاء لا بد من أن يحصل، فلا يبقى في جهنم موضع خالٍ حتى تطلب المزيد. والثاني: هو أنها تطلب الزيادة، وحينئذٍ لو قال قائل: فكيف يفهم مع هذا معنى قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: أحدها: أن هذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، وفيه لطيفة، وهي أن جهنم تتغيظ على الكفار فتطلبهم، ثم يبقى فيها موضع لعصاة المؤمنين، فتطلب جهنم امتلاءها لظنها بقاء أحد من الكفار خارجًا، فيدخل العاصي من المؤمنين، فيبرد إيمانه حرارتها، ويسكن إيقانه غيظها فتسكن، وعلى هذا يُحمل ما ورد في بعض الأخبار، أن جهنم تطلب الزيادة حتى يضع الجبار قدمه، والمؤمن جبار متكبر على ما سوى الله تعالى ذليل متواضع لله. الثاني: أن تكون جهنم تطلب أولاً سعة في نفسها، ثم مزيدًا في الداخلين لظنها بقاء أحد من الكفار. الثالث: أن الملء له درجات، فإن الكيل إذا ملئ من غير كبس صح أن يقال: ملئ وامتلأ، فإذا كُبس يسع غيره ولا ينافي كونه ملآن أو لا، فكذلك في جهنم ملأها الله ثم تطلب زيادة تضييقًا للمكان عليهم وزيادة في التعذيب، والمزيد جاز أن يكون بمعنى المفعول، أي هل بقي أحد تزيد به.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾

بمعنى قريبًا أو بمعنى قريب، والأول أظهر. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: ما وجه التقريب، مع أن الجنة مكان والأمكنة يُقرب منها وهي لا تقرب؟ نقول: الجواب عنه من وجوه: الأول: أن الجنة لا تُزال ولا تُنقل، ولا المؤمن يؤمر في ذلك اليوم بالانتقال إليها مع بُعدها، لكن الله تعالى يطوي المسافة التي بين المؤمن والجنة فهو التقريب. فإن قيل: فعلى هذا ليس إزلاف الجنة من المؤمن بأَوْلى من إزلاف المؤمن من الجنة، فما الفائدة في قوله: أزلفت الجنة؟ نقول: إكرامًا للمؤمن، كأنه تعالى أراد بيان شرف المؤمن المتقي أنه ممن يُمشى إليه ويُدنى منه. الثاني: قربت من الحصول في الدخول، لا بمعنى القرب

المكاني، يقال يطلب من الملك أمرًا خطيرًا، والملك بعيد عن ذلك، ثم إذا رأى منه مخايل إنجاز حاجته، يقال قرب الملك وما زلت أنهي إليه حالك حتى قربته، فكذلك الجنة كانت بعيدة الحصول؛ لأنها بما فيها لا قيمة لها، ولا قدرة للمكلف على تحصيلها لولا فضل الله تعالى، كما قال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إلاَّ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى»، فقيل ولا أنت يا رسول الله؟ فقال: «وَلاَ أَنَا»[1] وعلى هذا فقوله (غير) نصب على الحال، تقديره قربت من الحصول، ولم تكن بعيدة في المسافة حتى يقال كيف قربت. الثالث: هو أن الله تعالى قادر على نقل الجنة من السماء إلى الأرض فيقربها للمؤمن. وأما إن قلنا: إنها قربت، فمعناه جُمعت محاسنها، كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ [الزخرف: ٧١].

المسألة الثانية: على هذا الوجه وعلى قولنا: قربت تقريب حصول ودخول، فهو يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي في ذلك اليوم ولم يكن قبل ذلك، وأما في جمع المحاسن فربما يزيد الله فيها زينة وقت الدخول، وأما في الحصول فلأن الدخول قبل ذلك كان مستبعدًا إذا لم يقدر الله دخول المؤمنين الجنة في الدنيا ووعد به في الآخرة فقربت في ذلك اليوم. وثانيهما: أن يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي أزلفت في الدنيا، إما بمعنى جمع المحاسن فلأنها مخلوقة وخلق فيها كل شيء، وإما بمعنى تقريب الحصول فلأنها تحصل بكلمة حسنة، وأما على تفسير الإزلاف بالتقريب المكاني فلا يكون ذلك محمولاً إلا على ذلك الوقت، أي أزلفت في ذلك اليوم للمتقين.

المسألة الثالثة: إن حُمل على القرب المكاني، فما الفائدة في الاختصاص بالمتقين مع أن المؤمن والكافر في عرصة واحدة؟ فنقول: قد يكون شخصان في مكان واحد وهناك مكان آخر هو إلى أحدهما في غاية القرب، وعن الآخر في غاية البعد، مثاله مقطوع الرجلين والسليم الشديد العَدْو إذا اجتمعا في موضع وبحضرتهما شيء لا تصل إليه اليد بالمد، فذلك بعيد عن المقطوع وهو في غاية القرب من العادي، أو نقول: إذا اجتمع شخصان في مكان وأحدهما أحيط به سد من حديد ووُضع بقربه شيء لا تناله يده بالمد، والآخر لم يُحِط به ذلك السد يصح أن يقال: هو بعيد عن المسدود وقريب من المحظوظ والمجدود.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون نصبًا على الظرف يقال: (اجلس غير بعيد مني) أي مكانًا غير بعيد؛ وعلى هذا فقوله: (غير بعيد) يفيد التأكيد وذلك لأن القريب قد يكون بعيدًا بالنسبة إلى شيء، فإن المكان الذي هو على مسيرة يوم قريب بالنسبة إلى البلاد النائية وبعيد

(١) لم أجده بهذا اللفظ، إنما الصواب ما جاء في الصحيحين من رواية أبي هريرة، أخرجه البخاري في كتاب (المرضى)، باب: (نهي تمني المريض الموت) (٥/ ٢١٤٧)، حديث رقم (٥٣٤٩) من طريق سعيد المقبري عن أبي هريرة... به، ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٧٠/ ٢٨١٦)، كلاهما من طريق أبي عبيد، مولى عبد الرحمن بن عوف عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لن يُدخل أحدًا منكم عمله الجنة» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله...» الحديث. واللفظ للبخاري.

بالنسبة إلى متنزهات المدينة، فإذا قال قائل: أيما أقرب المسجد الأقصى أو البلد الذي هو بأقصى المغرب أو المشرق؟ يقال له المسجد الأقصى قريب. وإن قال: أيهما أقرب هو أو البلد؟ يقال له: هو بعيد. فقوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ . . . ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي قربت قربًا حقيقيًا لا نسبيًا حيث لا يقال فيها إنها بعيدة عنه مقايسة أو مناسبة، ويحتمل أن يكون نصبًا على الحال تقديره: (قُربت حال كون ذلك غاية التقريب) أو نقول: على هذا الوجه يكون معنى أزلفت قربت وهي غير بعيد، فيحصل المعنيان جميعًا الإقراب والاقتراب أو يكون المراد القرب والحصول لا للمكان فيحصل معنيان القرب المكاني بقوله غير بعيد والحصول بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾.

وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مع قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ على التأنيث يحتمل وجوهًا: الأول: إذا قلنا إن ﴿غَيْرَ﴾ نصب على المصدر تقديره مكانًا غير. الثاني: التذكير فيه كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف: ٥٦] إجراء لفعيل بمعنى فاعل مجرى فعيل بمعنى مفعول. الثالث: أن يقال ﴿غَيْرَ﴾ منصوب نصبًا على المصدر على أنه صفة مصدر محذوف تقديره: أزلفت الجنة إزلافًا غير بعيد، أي عن قدرتنا. فإنا قد ذكرنا أن الجنة مكان، والمكان لا يقرب وإنما يقرب منه، فقال: الإزلاف غير بعيد عن قدرتنا فإنا نطوي المسافة بينهما.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾

ثم قال تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ قال الزمخشري: هي جملة معترضة بين كلامين، وذلك لأن قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل عن المتقين، كأنه تعالى قال: (أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ لِكُلِّ أَوَّابٍ) كما في قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ [الزخرف: ٣٣] غير أن ذلك بدل الاشتمال وهذا بدل الكل وقال: ﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى الثواب، أي هذا الثواب ما توعدون أو إلى الإزلاف المدلول عليه بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ [ق: ٣١] أي هذا الإزلاف ما وُعدتم به، ويحتمل أن يقال: هو كلام مستقل ووجهه أن ذلك محمول على المعنى لا ما يوعد به، يقال للموعود هذا لك. وكأنه تعالى قال: هذا ما قلت إنه لكم.

ثم قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ بدلاً عن الضمير في ﴿تُوعَدُونَ﴾، وكذلك إن قرئ بالياء يكون تقديره (هذا لكل أواب) بدلاً عن الضمير، والأواب: الرجاع، قيل: هو الذي يرجع من الذنوب ويستغفر، والحفيظ: الحافظ للذي يحفظ توبته من النقض. ويحتمل أن يقال: الأواب هو الرجاع إلى الله بفكره، والحفيظ الذي يحفظ الله في ذكره، أي رجع إليه بالفكر فيرى كل شيء واقعًا به وموجدًا منه، ثم إذا انتهى إليه حفظه بحيث لا ينساه عند الرخاء والنعماء، والأواب والحفيظ كلاهما من باب المبالغة، أي يكون كثير الأوب شديد الحفظ، وفيه وجوه أُخر أدق، وهو أن الأواب هو الذي رجع عن متابعة هواه في الإقبال على ما سواه، والحفيظ هو الذي إذا أدركه بأشرف قواه لا يتركه فيكمل بها تقواه ويكون هذا تفسيرًا للمتقي؛ لأن المتقي هو الذي

اتقى الشرك والتعطيل ولم ينكره ولم يعترف بغيره، والأواب هو الذي لا يعترف بغيره ويرجع عن كل شيء غير الله تعالى، والحفيظ هو الذي لم يرجع عنه إلى شيء مما عداه.

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾

وفي ﴿مَّنْ﴾ وجوه: أحدها وهو أغربها: أنه منادى، كأنه تعالى قال: يا من خشي الرحمن أدخلوها بسلام. وحذف حرف النداء شائع. وثانيها: ﴿مَّنْ﴾ بدل عن (كل) في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾[ق: ٣٢] من غير إعادة حرف الجر، تقديره أزلفت الجنة لمن خشي الرحمن بالغيب. ثالثها: في قوله تعالى: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾[ق: ٣٢] موصوف معلوم غير مذكور كأنه يقول: لكل شخص أواب أو عبد أو غير ذلك، فقوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ بدل عن ذلك الموصوف. هذه وجوه ثلاثة ذكرها الزمخشري، وقال: لا يجوز أن يكون بدلاً عن أواب أو حفيظ؛ لأن أواب وحفيظ قد وُصف به موصوف معلوم غير مذكور كما بيناه والبدل في حكم المبدل منه، فتكون (مَنْ) موصوفًا بها و(مَن) لا يوصف بها، لا يقال: الرجل من جاءني جالسني، كما يقال: الرجل الذي جاءني جالسني. هذا تمام كلام الزمخشري، فإن قال قائل: إذا كان (مَن) والذي يشتركان في كونهما من الموصولات فلماذا لا يشتركان في جواز الوصف بهما؟ نقول: الأمر معقول نبينه في (ما)، ومنه يتبين الأمر فيه فنقول: (ما) اسم مبهم يقع على كل شيء، فمفهومه هو شيء لكن الشيء هو أعم الأشياء، فإن الجوهر شيء والعَرَض شيء والواجب شيء والممكن شيء والأعم قبل الأخص في الفهم لأنك إذا رأيت من البعد شبحًا تقول أولاً إنه شيء، ثم إذا ظهر لك منه ما يختص بالناس تقول إنسان، فإذا بان ذلك أنه ذكَرٌ قلت هو رجل، فإذا وجدته ذا قوة تقول شجاع... إلى غير ذلك، فالأعم أعرف وهو قبل الأخص في الفهم، فمفهوم (ما) قبل كل شيء فلا يجوز أن يكون صفة لأن الصفة بعد الموصوف، هذا من حيث المعقول، وأما من حيث النحو فلأن الحقائق لا يوصف بها، فلا يقال: جسم رجل جاءني كما يقال جسم ناطق جاءني لأن الوصف يقوم بالموصوف والحقيقة تقوم بنفسها لا بغيرها، وكل ما يقع وصفًا للغير يكون معناه شيء له كذا، فقولنا: (عالم) معناه شيء له علم أو عالمية فيدخل في مفهوم الوصف شيء مع أمر آخر وهو له كذا، لكن (ما) لمجرد شيء فلا يوجد فيه ما يتم به الوصف وهو الأمر الآخر الذي معناه ذو كذا، فلم يجز أن يكون صفة. وإذا بان القول فمَن في العقلاء كـ(ما) في غيرهم وفيهم فمَن معناه إنسان أو ملك أو غيرهما من الحقائق العاقلة، والحقائق لا تقع صفات، وأما الذي يقع على الحقائق والأوصاف ويدخل في مفهومه تعريف أكثر مما يدخل في مجاز الوصف بما دون مَن.

وفي الآية لطائف معنوية. الأولى: الخشية والخوف معناهما واحد عند أهل اللغة، لكن بينهما فرق وهو أن الخشية من عظمة المخشي، وذلك لأن تركيب حرف (خ ش ي) في تقاليبها يلزمه معنى الهيبة يقال شيخ للسيد والرجل الكبير السن وهم جميعًا مهيبان، والخوف خشية من ضعف

الخاشي وذلك لأن تركيب (خ و ف) في تقاليبها يدل على الضعف تدل عليه الخيفة والخفية، ولولا قرب معناهما لما ورد في القرآن ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] و﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] والمخفي فيه ضعف كالخائف، إذا علمت هذا تبين لك اللطيفة وهي أن الله تعالى في كثير من المواضع ذكر لفظ الخشية حيث كان الخوف من عظمة المخشي، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] فإن الجبل ليس فيه ضعف يكون الخوف من ضعفه، وإنما الله عظيم يخشاه كل قوي و﴿هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] مع أن الملائكة أقوياء، وقال تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] أي تخافهم إعظامًا لهم إذ لا ضعف فيك بالنسبة إليهم، وقال تعالى: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] أي لا تخف ضعفًا فإنهم لا عظمة لهم، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾ [الإنسان: ٧] حيث كان عظمة اليوم بالنسبة إلى عظمة الله ضعيفة، وقال: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] أي بسبب مكروه يلحقكم من الآخرة، فإن المكروهات كلها مدفوعة عنكم، وقال تعالى: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١] وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣] لوحدته وضعفه وقال هارون: ﴿إِنِّى خَشِيتُ﴾ [طه: ٩٤] لعظمة موسى في عين هارون لا لضعف فيه، وقال: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠] حيث لم يكن لضعف فيه، وحاصل الكلام أنك إذا تأملت استعمال الخشية وجدتها مستعملة لخوف بسبب عظمة المخشي، وإذا نظرت إلى استعمال الخوف وجدته مستعملاً لخشية من ضعف الخائف، وهذا في الأكثر، وربما يتخلف المدعى عنه لكن الكثرة كافية.

الثانية: قال الله تعالى هاهنا: ﴿خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ مع أن وصف الرحمة غالبًا يقابل الخشية إشارة إلى مدح المتقي حيث لم تمنعه الرحمة من الخوف بسبب العظمة، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] إشارة إلى ذم الكافر حيث لم تحمله الألوهية التي تنبئ عنها لفظة الله وفيها العظمة على خوفه وقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] لأن ﴿إِنَّمَا﴾ للحصر فكان فيه إشارة إلى أن الجاهل لا يخشاه، فذكر الله ليبين أن عدم خشيته مع قيام المقتضى وعدم المانع وهو الرحمة، وقد ذكرنا ذلك في سورة يس، ونزيد ههنا شيئًا آخر، وهو أن نقول: لفظة: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ إشارة إلى مقتضى لا إلى المانع، وذلك لأن الرحمن معناه واهب الوجود بالخلق، والرحيم واهب البقاء بالرزق، وهو في الدنيا رحمان حيث أوجدنا بالرحمة، ورحيم حيث أبقى بالرزق، ولا يقال لغيره رحيم لأن البقاء بالرزق قد يظن أن مثل ذلك يأتي ممن يطعم المضطر، فيقال: فلان هو الذي أبقى فلانًا، وهو في الآخرة أيضًا رحمان حيث يوجدنا، ورحيم حيث يرزقنا، وذكرنا ذلك في تفسير الفاتحة حيث قلنا: قال: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارة إلى كونه رحمانًا في الدنيا حيث خلقنا، رحيمًا في الدنيا حيث رزقنا رحمة، ثم قال مرة أخرى بعد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ

﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أي هو رحمن مرة أخرى في الآخرة بخلقنا ثانيًا، واستدللنا عليه بقوله بعد ذلك: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] أي يخلقنا ثانيًا، ورحيم يرزقنا ويكون هو المالك في ذلك اليوم، إذا علمت هذا فمن يكون منه وجود الإنسان لا يكون خوفه خشية من غيره، فإن القائل يقول لغيره: أخاف منك أن تقطع رزقي أو تبدل حياتي. فإذا كان الله تعالى رحمانًا منه الوجود ينبغي أن يخشى، فإن من بيده الوجود بيده العدم، وقال ﷺ: «خَشْيَةُ اللَّه رَأْسُ كُلِّ حِكْمَةٍ»(١) وذلك لأن الحكيم إذا تفكر في غير الله وجده محل التغير، يجوز عليه العدم في كل طرفة عين، وربما يقدر الله عدمه قبل أن يتمكن من الإضرار؛ لأن غير الله إن لم يقدر الله أن يضر لا يقدر على الضرر، وإن قدر عليه بتقدير الله فسيزول الضرر بموت المعذِّب أو المعذَّب، وأما الله تعالى فلا راد لما أراد ولا آخر لعذابه.

وقال تعالى: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي كانت خشيتهم قبل ظهور الأمور حيث تُرى رأي العين، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ إشارة إلى صفة مدح أخرى، وذلك لأن الخاشي قد يهرب ويترك القرب من المخشي ولا ينتفع، وإذا علم المخشي أنه تحت حكمه تعالى علم أنه لا ينفعه الهرب، فيأتي المخشي وهو (غير) خاشٍ فقال: ﴿وَجَآءَ﴾ ولم يذهب كما يذهب الآبق.

وقوله تعالى: ﴿بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ الباء فيه يحتمل وجوهًا ذكرناها في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [ق: ١٩]. أحدها: التعدية، أي أحضر قلبًا سليمًا، كما يقال: ذهب به، إذا أذهبه. ثانيها: المصاحبة، يقال: اشترى فلان الفرس بسرجه، أي مع سرجه، وجاء فلان بأهله، أي مع أهله. ثالثها وهو أعرفها: الباء للسبب، يقال: ما أخذ فلان إلا بقول فلان وجاء بالرجاء له، فكأنه تعالى قال: جاء وما جاء إلا بسبب إنابة في قلبه، علم أنه لا مرجع إلا إلى الله، فجاء بسبب قلبه المنيب، والقلب المنيب كالقلب السليم في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٤] أي سليم من الشرك، ومَن سَلِم من الشرك يترك غير الله ويرجع إلى الله فكان منيبًا، ومن أناب إلى الله برئ من الشرك فكان سليمًا

قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ۝٣٤ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ۝٣٥﴾

ثم قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ﴾.

فالضمير عائد إلى الجنة التي في ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ﴾ [ق: ٣١] أي لما تكامل حسنها وقربها وقيل لهم: إنها منزلكم بقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢] أذن لهم في دخولها. **وفيه مسائل:**

---

(١) ضعيف: أخرجه القضاعي في (مسند الشهاب) (١/ ٥٩)، حديث رقم (٤١)، وابن أبي الدنيا في (الورع) (١/ ٤٣)، حديث رقم (١١)، كلاهما من طريق سعيدة بنت حكامة، عن أمها، عن أبيها، عن مالك بن دينار، عن أنس بن مالك. . . به، وفي إسناده حكامة قال ابن حجر في (اللسان) (٢/ ٣٣١)، حكامة لا شيء. وقال العقيلي: أحاديث حكامة كشبه أحاديث القصاص وليس لها أصل. رواه ابن أبي حاتم في (تفسيره) (٢/ ٣٢٣)، حديث رقم (٢٨٦٩)، من طريق عثمان بن عبد الرحمن عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس عن أبي العالية. . . به، وهذا إسناد مرسل.

المسألة الأولى: الخطاب مع من؟ نقول: إن قرئ (ما توعدون) بالتاء فهو ظاهر إذ لا يخفى أن الخطاب مع الموعودين، وإن قرئ بالياء فالخطاب مع المتقين، أي يقال للمتقين: ادخلوها.

المسألة الثانية: هذا يدل على أن ذلك يتوقف على الإذن، وفيه من الانتظار ما لا يليق بالإكرام. نقول: ليس كذلك، فإن من دعا مكرمًا إلى بستانه يفتح له الباب ويجلس في موضعه، ولا يقف على الباب من يرحبه، ويقول: إذا بلغت بستاني فادخله، وإن لم يكن هناك أحد يكون قد أخل بإكرامه، بخلاف من يقف على بابه قوم يقولون: ادخل باسم الله، يدل على الإكرام قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ كما يقول المضيف: ادخل مصاحبًا بالسلامة والسعادة والكرامة، والباء للمصاحبة في معنى الحال، أي سالمين مقرونين بالسلامة، أو معناه ادخلوها مسلَّمًا عليكم، ويسلم الله وملائكته عليكم. ويحتمل عندي وجهًا آخر، وهو أن يكون ذلك إرشادًا للمؤمنين إلى مكارم الأخلاق في ذلك اليوم كما أُرشدوا إليها في الدنيا، حيث قال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] فكأنه تعالى قال: هذه داركم ومنزلكم، ولكن لا تتركوا حسن عادتكم، ولا تُخلوا بمكارم أخلاقكم، فادخلوها بسلام، ويصيحون سلامًا على من فيها، ويسلم من فيها عليهم، ويقولون: السلام عليكم. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] أي يسلِّمون على من فيها، ويسلِّم من فيها عليهم، وهذا الوجه إن كان منقولاً فنعم، وإن لم يكن منقولاً فهو مناسب معقول أيده دليل منقول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ حتى لا يدخل في قلبهم أن ذلك ربما ينقطع عنهم فتبقى في قلبهم حسرته. فإن قيل: المؤمن قد علم أنه إذا دخل الجنة خُلد فيها، فما الفائدة في التذكير؟ والجواب عنه من وجهين. أحدهما: أن قوله: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قول قاله الله في الدنيا إعلامًا وإخبارًا، وليس ذلك قولاً يقوله عند قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ فكأنه تعالى أخبرنا في يومنا أن ذلك اليوم يوم الخلود. ثانيهما: اطمئنان القلب بالقول أكثر، قال الزمخشري: في قوله: ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ إضمار تقديره: ذلك يوم تقدير الخلود، ويحتمل أن يقال: اليوم يُذكر ويراد الزمان المطلق سواء كان يومًا أو ليلاً، نقول: يوم وُلد لفلان ابن يكون السرور العظيم. ولو وُلد له بالليل لكان السرور حاصلاً، فتريد به الزمان، فكأنه تعالى قال: ذلك زمان الإقامة الدائمة.

ثم قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

وفي الآية ترتيب في غاية الحسن، وذلك لأنه تعالى بدأ ببيان إكرامهم حيث قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] ولم يقل: (قُرِّب المتقون من الجنة) بيانًا للإكرام حيث جعلهم ممن تنقل إليهم الجنان بما فيها من الحسان، ثم قال لهم: هذا لكم، بقوله: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ [ق: ٣٢] ثم بيّن أنه أجر أعمالهم الصالحة بقوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وقوله: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [ق: ٣٣] فإنَّ تصَرُّف المالك الذي مَلَك شيئًا بعوض أتم فيه من تصَرُّف مِن مَلِك بغير عوض؛ لإمكان الرجوع في التمليك بغير عوض، ثم زاد في الإكرام بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ [ق: ٣٤] كما بينا أن ذلك إكرام؛

لأن مَن فتح بابه للناس، ولم يقف ببابه من يرحب الداخلين، لا يكون قد أتى بالإكرام التام، ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] أي لا تخافوا ما لحقكم من قبل حيث أخرج أبويكم منها، فهذا دخول لا خروج بعده منها. ثم لما بيّن أنهم فيها خالدون قال: لا تخافوا انقطاع أرزاقكم وبقاءكم في حاجة، كما كنتم في الدنيا من كان يعمر ينكس ويحتاج، بل لكم الخلود، ولا ينفد ما تُمتعون به، فلكم ما تشاءون في أي وقت تشاءون، وإلى الله المنتهى، وعند الوصول إليه والمثول بين يديه، فلا يوصف ما لديه، ولا يطلع أحد عليه، وعظمة من عنده تدلك على فضيلة ما عنده. هذا هو الترتيب.

وأما التفسير ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣٤] على سبيل المخاطبة، ثم قال: ﴿لَهُم﴾ ولم يقل (لكم) ما الحكمة فيه؟ الجواب عنه من وجوه. الأول: هو أن قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ مقدر فيه: يقال لهم، أي يقال لهم ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ فلا يكون على هذا التفاتًا. الثاني: هو أنه من باب الالتفات، والحكمة الجمع بين الطرفين، كأنه تعالى يقول: أكرمهم به في حضورهم، ففي حضورهم الحبور، وفي غيبتهم الحور والقصور. والثالث: هو أن يقال: قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ جاز أن يكون كلامًا مع الملائكة، يقول للملائكة: توكلوا بخدمتهم، واعلموا أن لهم ما يشاءون فيها، فأحضِروا بين أيديهم ما يشاءون، وأما أنا فعندي ما لا يخطر ببالهم، ولا تقدرون أنتم عليه.

المسألة الثانية: قد ذكرنا أن لفظ ﴿مَزِيدٍ﴾ يحتمل أن يكون معناه الزيادة، فيكون كما في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يكون بمعنى المفعول، أي عندنا ما نزيده على ما يرجون وما يكون مما يشتهون:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

لما أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم، أنذرهم بما يعجل لهم من العذاب المهلك والإهلاك المدرك، وبَيَّن لهم حال مَن تقدمهم، وقد تقدم تفسيره في مواضع، والذي يختص بهذا الموضع أمور.

أحدها: إذا كان ذلك للجمع بين الإنذار بالعذاب العاجل والعقاب الآجل، فلمَ توسطهما قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥]؟ نقول: ليكون ذلك دعاء بالخوف والطمع، فذكر حال الكفور المعاند، وحال الشكور العابد في الآخرة ترهيبًا وترغيبًا، ثم قال تعالى: إن كنتم في شك من العذاب الأبدي الدائم، فما أنتم في ريب من العذاب العاجل

المهلك الذي أهلك أمثالكم، فإن قيل: فلمَ لم يجمع بين الترهيب والترغيب في العاجلة، كما جمع بينهما في الآجلة، ولم يذكر حال من أسلم من قبل وأنعم عليه، كما ذكر حال من أشرك به فأهلكه؟ نقول: لأن النعمة كانت قد وصلت إليهم، وكانوا متقلبين في النعم، فلم يذكرهم به، وإنما كانوا غافلين عن الهلاك فأنذرهم به، وأما في الآخرة، فكانوا غافلين عن الأمرين جميعًا، فأخبرهم بهما.

الثاني: قوله تعالى: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ في معناه وجوه: أحدها: هو ما قاله تعالى في حق ثمود: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩] من قوتهم خرقوا الطرق ونقبوها، وقطعوا الصخور وثقبوها. ثانيها: نقبوا، أي ساروا في الأسفار ولم يجدوا ملجأ ومهربًا، وعلى هذا يحتمل أن يكون المراد أهل مكة، أي هم ساروا في الأسفار، ورأوا ما فيها من الآثار. ثالثها: (فَنَقَبُوا في البِلاَدِ) أي صاروا نقباء في الأرض، أراد ما أفادهم بطشهم وقوتهم، ويدل على هذا الفاءُ؛ لأنها تصير حينئذٍ مفيدة ترتب الأمر على مقتضاه، تقول: كان زيد أقوى من عمرو فغلبه، وكان عمرو مريضًا فغلبه زيد. كذلك هاهنا قال تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ فصاروا نقباء في الأرض، وقرئ: ﴿فَنَقَّبُواْ﴾ بالتشديد، وهو أيضًا يدل على ما ذكرنا في الوجه الثالث؛ لأن التنقيب: البحث، وهو من نقب، بمعنى صار نقيبًا.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. يحتمل وجوهًا ثلاثة: الأول: على قراءة من قرأ بالتشديد يحتمل أن يقال: هو مفعول، أي بحثوا عن المحيص ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. الثاني: على القراءات جميعًا استفهام بمعنى الإنكار، أي لم يكن لهم محيص. الثالث: هو كلام مستأنف كأنه تعالى يقول لقوم محمد ﷺ: هم أُهلكوا مع قوة بطشهم فهل من محيص لكم تعتمدون عليه؟ والمحيص كالمحيد غير أن المحيص معدل ومهرب عن الشدة، يدلك عليه قولهم: وقعوا في حيص بيص، أي في شدة وضيق، والمحيد معدل وإن كان لهم بالاختيار، يقال: حاد عن الطريق نظرًا، ولا يقال: حاص عن الأمر نظرًا.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾.

الإشارة إلى الإهلاك، ويحتمل أن يقال: هو إشارة إلى ما قاله من إزلاف الجنة وملء جهنم وغيرهما، والذكرى اسم مصدر هو التذكر والتذكرة، وهي في نفسها مصدر ذكره يذكره ذكرًا وذكرى وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قيل: المراد قلب موصوف بالوعي، أي لمن كان له قلب واعٍ، يقال: لفلان مال، أي كثير فالتنكير يدل على معنى في الكمال، والأَوْلى أن يقال: هو لبيان وضوح الأمر بعد الذكر وأن لا خفاء فيه لمن كان له قلب ما ولو كان غير كامل، كما يقال: أعطه شيئًا ولو كان درهمًا، ونقول: الجنة لمن عمل خيرًا ولو حسنة، فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى لمن يصح أن يقال له قلب، وحينئذٍ فمن لا يتذكر لا قلب له أصلاً، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨] حيث لم تكن آذانهم وألسنتهم وأعينهم مفيدة لما يُطلب منها، كذلك من لا يتذكر، كأنه لا قلب له،

ومنه قوله تعالى: ﴿كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] أي هم كالجماد، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤] أي لهم صور، وليس لهم قلب للذكر ولا لسان للشكر.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع، وإلقاء السمع كناية عن الاستماع؛ لأن من لا يسمع فكأنه حفظ سمعه وأمسكه، فإذا أرسله حصل الاستماع، فإن قيل: على قول من قال التنكير في القلب للتكثير يظهر حسن ترتيب في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ وذلك لأنه يصير كأنه تعالى يقول: إن في ذلك لذكرى لمن كان ذا قلب واعٍ ذكي يستخرج الأمور بذكائه، أو ألقى السمع ويستمع من المنذر فيتذكر. وأما على قولك: المراد مَن صح أن يقال له قلب ولو كان غير واعٍ لا يظهر هذا الحسن. نقول: على ما ذكرنا ربما يكون الترتيب أحسن وذلك لأن التقدير يصير كأنه تعالى قال: فيه ذكرى لكل واحد كيف كان له قلب لظهور الأمر، فإن كان لا يحصل لكل أحد فلمن يستمع حاصل. ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ حيث لم يقل أو استمع لأن الاستماع ينبئ عن طلب زائد، وأما إلقاء السمع فمعناه أن الذكرى حاصلة لمن لا يمسك سمعه بل يرسله إرسالاً، وإن لم يقصد السماع كالسامع في الصوت الهائل فإنه يحصل عند مجرد فتح الأذن وإن لم يقصد السماع، والصوت الخفي لا يُسمع إلا باستماع وتطلُّب، فنقول: الذكرى حاصلة لمن كان له قلب كيف كان قلبه لظهورها، فإن لم تحصل فلمن له أذن غير مسدودة كيف كان حاله، سواء استمع باجتهاده أو لم يجتهد في سماعه. فإن قيل: فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ للحال وهو يدل على أن إلقاء السمع بمجرده غير كافٍ، نقول: هذا يصحح ما ذكرناه لأنا قلنا بأن الذكرى حاصلة لمن له قلب ما، فإن لم تحصل له فتحصل له إذا ألقى السمع وهو حاضر بباله من القلب، وأما على الأول فمعناه من ليس له قلب واعٍ، يحصل له الذكر إذا ألقى السمع وهو حاضر بقلبه، فيكون عند الحضور بقلبه يكون له قلب واعٍ، وقد فرض عدمه، هذا إذا قلنا بأن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ بمعنى الحال، وإذا لم نقل به فلا يرد ما ذُكر. وهو يحتمل غير ذلك، بيانه هو أن يقال: (ذلك) إشارة إلى القرآن وتقريره هو أن الله تعالى لما قال في أول السورة: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ [ق: ١، ٢] وذكر ما يدفع تعجبهم وبَيّن كونه منذرًا صادقًا وكون الحشر أمرًا واقعًا ورَغّب وأرهب بالثواب والعذاب آجلاً وعاجلاً وأتم الكلام، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي القرآن الذي سبق ذكره ﴿لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أو لمن يستمع، ثم قال: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي المنذر الذي تعجبتم منه شهيد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ [الفتح: ٨] وقال تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ۝٣٨﴾

أعاد الدليل مرة أخرى، وقد ذكرنا تفسير ذلك في الم السجدة، وقلنا: إن الأجسام ثلاثة

أجناس. أحدها: السموات، ثم حركها وخصصها بأمور ومواضع، وكذلك الأرض خلقها ثم دحاها، وكذلك ما بينهما خلق أعيانها وأصنافها ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إشارة إلى ستة أطوار، والذي يدل عليه ويقرره هو أن المراد من الأيام لا يمكن أن يكون هو المفهوم في وضع اللغة؛ لأن اليوم عبارة في اللغة عن زمان مكث الشمس فوق الأرض من الطلوع إلى الغروب، وقبل السموات لم يكن شمس ولا قمر، لكن اليوم يطلق ويراد به الوقت، يقال: يوم يولد للملك ابن يكون سرور عظيم ويوم يموت فلان يكون حزن شديد، وإن اتفقت الولادة أو الموت ليلاً، ولا يتعين ذلك ويدخل في مراد العاقل لأنه أراد باليوم مجرد الحين والوقت، إذا علمت الحال من إضافة اليوم إلى الأفعال فافهم ما عند إطلاق اليوم في قوله: ﴿سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وقال بعض المفسرين: المراد من الآية الرد على اليهود، حيث قالوا: بدأ الله تعالى خلق العالم يوم الأحد وفرغ منه في ستة أيام آخرها يوم الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على عرشه. فقال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ ردًّا عليهم. والظاهر أن المراد الرد على المشرك والاستدلال بخلق السموات والأرض وما بينهما. وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي ما تعبنا بالخلق الأول حتى لا نقدر على الإعادة ثانيًا، والخلق الجديد كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]وأما ما قاله اليهود ونقلوه من التوراة فهو إما تحريف منهم أو لم يعلموا تأويله، وذلك لأن الأحد والاثنين أزمنة متميز بعضها عن بعض، فلو كان خلق السموات ابتدئ يوم الأحد لكان الزمان متحققًا قبل الأجسام، والزمان لا ينفك عن الأجسام فيكون قبل خلق الأجسام أجسام أُخر، فيلزم القول بقدم العالم وهو مذهب الفلاسفة، ومن العجيب أن بين الفلاسفة والمشبهة غاية الخلاف، فإن الفلسفي لا يثبت لله تعالى صفة أصلاً ويقول بأن الله تعالى لا يقبل صفة بل هو واحد من جميع الوجوه، فعلمه وقدرته وحياته هو حقيقته وعينه وذاته. والمشبهي يثبت لله صفة الأجسام من الحركة والسكون والاستواء والجلوس والصعود والنزول. فبينهما منافاة، ثم إن اليهود في هذا الكلام جمعوا بين المسألتين فأخذوا بمذهب الفلاسفة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي القدم حيث أثبتوا قبل خلق الأجسام أيامًا معدودة وأزمنة محدودة، وأخذوا بمذهب المشبهة في المسألة التي هي أخص المسائل بهم وهي الاستواء على العرش، فأخطأوا (وضلوا) وأضلوا في الزمان والمكان جميعًا.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

ثم قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ قال من تقدم ذكرهم من المفسرين: إن معناه اصبر على ما يقولون من حديث التعب بالاستلقاء. وعلى ما قلنا معناه اصبر على ما يقولون إن هذا لشيء عجيب، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ وما ذكرناه أقرب لأنه مذكور، وذِكر اليهود وكلامهم لم يَجْرِ.

وقوله:﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل وجوهًا:

أحدها:أن يكون الله أمر النبي ﷺبالصلاة، فيكون كقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ الَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤].

وقوله تعالى:﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ إشارة إلى طرفي النهار.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ السُّجُودِ ۝٤٠﴾

وقوله:﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى زلفًا من الليل، ووجه هذا أن النبي ﷺله شغلان: أحدهما: عبادة الله. وثانيهما: هداية الخلق، فإذا هداهم ولم يهتدوا، قيل له: أقبِل على شغلك الآخر وهو عبادة الحق.

ثانيها:سَبِّح بحمد ربك، أي نَزِّهه عما يقولون ولا تسأم من امتناعهم بل ذكِّرهم بعظمة الله تعالى ونزِّهه عن الشرك والعجز عن الممكن الذي هو الحشر قبل الطلوع وقبل الغروب، فإنهما وقت اجتماعهم ﴿ وَمِنَ الَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي أوائل الليل، فإنه أيضًا وقت اجتماع العرب، ووجه هذا أنه لا ينبغي أن تسأم من تكذيبهم فإن الرسل من قبلك أوذوا وكُذبوا وصبروا على ما كُذبوا وأوذوا، وعلى هذا فلقوله تعالى: ﴿ وَأَدْبَـٰرَ السُّجُودِ﴾ فائدة جليلة وهي الإشارة إلى ما ذكرنا أن شغل الرسول أمران: العبادة والهداية، فقوله: ﴿ وَأَدْبَـٰرَ السُّجُودِ﴾ أي عقب ما سجدت وعبدت نزِّه ربك بالبرهان عند اجتماع القوم ليحصل لك العبادة بالسجود والهداية أدبار السجود. ثالثها: أن يكون المراد قل (سبحان الله)، وذلك لأن ألفاظًا معدودة جاءت بمعنى التلفظ بكلامهم، فقولنا كبِّر يطلق ويراد به قول القائل الله أكبر، وسلِّم يراد به قوله السلام عليكم، وحمِّد يقال لمن قال الحمد لله، ويقال هلِّل لمن قال لا إله إلا الله، وسبِّح لمن قال سبحان الله، ووجه هذا أن هذه أمور تتكرر من الإنسان في الكلام، والحاجة تدعو إلى الإخبار عنها، فلو قال القائل: فلان قال لا إله إلا الله أو قال: الله أكبر، طوَّل الكلام، فمست الحاجة إلى استعمال لفظة واحدة مفيدة لذلك لعدم تكرر ما في الأول.

وأما مناسبة هذا الوجه للكلام الذي هو فيه، فهي أن تكذيبهم الرسول وتعجبهم من قوله أو استهزاءهم - كان يوجب في العادة أن يشتغل النبي ﷺبلعنهم وسبهم والدعاء عليهم، فقال: فاصبر على ما يقولون واجعل كلامك بدل الدعاء عليهم التسبيح لله والحمد له، ولا تكن كصاحب الحوت أو كنوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]بل ادع إلى ربك، فإذا ضجرت عن ذلك بسبب إصرارهم فاشتغل بذكر ربك في نفسك.

وفيه مباحث:

البحث الأول:استعمل الله التسبيح تارة مع اللام في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ١]، و﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ﴾ [فصلت: ٣٨]وأخرى مع الباء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

[الواقعة: ٧٤] ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] وثالثة من غير حرف في قوله: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] وقوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقوله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] فما الفرق بينها؟ نقول: أما الباء فهي الأهم وبالتقديم أَوْلى في هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [طه: ١٣٠] فنقول أما على قولنا: المراد من سبح قل سبحان الله، فالباء للمصاحبة أي مقترنًا بحمد الله، فيكون كأنه تعالى قال: قل سبحان الله والحمد لله. وعلى قولنا: المراد التنزيه لذلك، أي نزِّهه واقرنه بحمده، أي سبحه واشكره حيث وفقك الله لتسبيحه، فإن السعادة الأبدية لمن سبحه، وعلى هذا فيكون المفعول غير مذكور لحصول العلم به من غير ذكر، تقديره: سبح الله بحمد ربك، أي ملتبسًا ومقترنًا بحمد ربك، وعلى قولنا: صلِّ، نقول: يحتمل أن يكون ذلك أمرًا بقراءة الفاتحة في الصلاة، يقال: صلّى فلان بسورة كذا أو صلّى بقل هو الله أحد، فكأنه يقول: صلِّ بحمد الله أي مقروءًا فيها: الحمد لله ربّ العالمين. وهو أبعد الوجوه.

وأما التعدية من غير حرف فنقول: هو الأصل لأن التسبيح يتعدى بنفسه لأن معناه تبعيد من السوء، وأما اللام فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون كما في قول القائل: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له. وثانيهما: أن يكون لبيان الأظهر، أي يسبحون الله وقلوبهم لوجه الله خالصة.

البحث الثاني: قال هاهنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [ق: ٣٩] ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ من غير باء، فما الفرق بين الموضعين؟ نقول: الأمر في الموضعين واحد على قولنا: التقدير سبح الله مقترنًا بحمد ربك؛ وذلك لأن سبح الله كقول القائل فسبحه، غير أن المفعول لم يُذكر، أولاً: لدلالة قوله بحمد ربك عليه. وثانيًا: لدلالة ما سبق عليه لم يذكر بحمد ربك، الجواب الثاني على قولنا سبح بمعنى صلِّ، يكون الأول أمرًا بالصلاة، والثاني أمرًا بالتنزيه، أي وصلِّ بحمد ربك في الوقت، وبالليل نزهه عما لا يليق، وحينئذٍ يكون هذا إشارة إلى العمل والذكر والفكر. فقوله: ﴿وَسَبِّحْ﴾ إشارة إلى خير الأعمال وهو الصلاة، وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارة إلى الذكر، وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى الفكر حين هدوء الأصوات، وصفاء الباطن، أي نزِّهه عن كل سوء بفكرك، واعلم أنه لا يتصف إلا بصفات الكمال ونعوت الجلال، وقوله تعالى: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ قد تقدم بعض ما يقال في تفسيره، ووجه آخر هو أنه إشارة إلى الأمر بإدامة التسبيح، فقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارة إلى أوقات الصلاة، وقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ يعني بعدما فرغت من السجود وهو الصلاة، فلا تترك تسبيح الله وتنزيهه بل داوِم أدبار السجود ليكون جميع أوقاتك في التسبيح فيفيد فائدة قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] وقوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨] وقرئ: (وإدبار السجود).

البحث الثالث: الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ ما وجهها؟ نقول: هي تفيد تأكيد الأمر بالتسبيح من الليل، وذلك لأنه يتضمن الشرط، كأنه يقول: وأما من الليل فسبحه، وذلك لأن الشرط يفيد

أن عند وجوده يجب وجود الجزاء، وكأنه تعالى يقول: النهار محل الاشتغال وكثرة الشواغل، فأما الليل فمحل السكون والانقطاع فهو وقت التسبيح. أو نقول بالعكس، الليل محل النوم والثبات والغفلة، فقال: أما الليل فلا تجعله للغفلة بل اذكر فيه ربك ونزِّهه.

البحث الرابع: ﴿وَمِنَ﴾ في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون لابتداء الغاية، أي من أول الليل فسبحه، وعلى هذا فلم يذكر له غاية لاختلاف ذلك بغلبة النوم وعدمها، يقال: أنا من الليل أنتظرك. ثانيهما: أن يكون للتبعيض، أي اصرف من الليل طرفًا إلى التسبيح، يقال: من مالك منع ومن الليل انتبه، أي بعضه.

البحث الخامس: قوله: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ عطف على ماذا؟ نقول: يحتمل أن يكون عطفًا على ما قبل الغروب، كأنه تعالى قال: (وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب وأدبار السجود) وذكر بينهما قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ وعلى هذا ففيه ما ذكرنا من الفائدة وهي الأمر بالمداومة، كأنه قال: سبح قبل طلوع الشمس، وإذا جاء وقت الفراغ من السجود قبل الطلوع فسبح، وسبح قبل الغروب، وبعد الفراغ من السجود قبل الغروب سبحه. فيكون ذلك إشارة إلى صرف الليل إلى التسبيح، ويحتمل أن يكون عطفًا على ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ وعلى هذا يكون عطفًا على الجار والمجرور جميعًا، تقديره: وبعض الليل (فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ).

قوله تعالى: ﴿ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾ ﴾

هذا إشارة إلى بيان غاية التسبيح، يعني اشتغِل بتنزيه الله وانتظِر المنادي، كقوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ما الذي يستمعه؟ قلنا: يحتمل وجوهًا ثلاثة: أحدها: أن يترك مفعوله رأسًا ويكون المقصود كن مستمعًا ولا تكن مثل هؤلاء المعرضين الغافلين، يقال: هو رجل سميع مطيع. ولا يراد مسموع بعينه كما يقال: فلان وكّاس، وفلان يعطي ويمنع. ثانيهما: استمع لما يوحي إليك. ثالثها: استمع نداء المنادي.

المسألة الثانية: ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ منصوب بأي فعل؟ نقول: هو مبني على المسألة الأولى، إن قلنا: (استمع لا مفعول له) فعامله ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] تقديره: يخرجون يوم ينادي المنادي، وإن قلنا: (مفعوله لما يوحى) فتقديره (واستمع) لما يوحى (يوم ينادي) ويحتمل ما ذكرنا وجهًا آخر، وهو ما يوحي أي ما يوحى ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ اسمعه، فإن قيل: استمع عطف على فاصبر وسبِّح وهو في الدنيا، والاستماع يكون في الدنيا، وما يوحى ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ لا يستمع في الدنيا، نقول: ليس بلازم ذلك لجواز أن يقال: صلِّ وادخل الجنة، أي صلِّ في الدنيا وادخل الجنة في العقبى، فكذلك هاهنا، ويحتمل أن يقال بأنَّ استمِع

بمعنى انتظِر فيحتمل الجمع في الدنيا، وإن قلنا: استمع الصيحة وهو نداء المنادي: يا عظام انتشري، والسؤال الذي ذكره علم الجواب منه، وجواب آخر نقوله حينئذٍ وهو أن الله تعالى قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨] قلنا: إن من شاء الله هم الذين علموا وقوع الصيحة، واستيقظوا لها، فلم تزعجهم، كمن يري برقًا أومض، وعلم أن عقبيه يكون رعد قوي فينظره ويستمع له، وآخر غافل فإذا رعد بقوة ربما يغشى على الغافل ولا يتأثر منه المستمع، فقال: استمع ذلك كي لا تكون ممن يُصعق في ذلك اليوم.

المسألة الثالثة: ما الذي ينادي المنادي؟ فيه وجوه محتملة منقولة معقولة وحَصْرها بأن نقول: المنادي إما أن يكون هو الله تعالى أو الملائكة أو غيرهما وهم المكلفون من الإنس والجن في الظاهر، وغيرهم لا ينادي: فإن قلنا: (هو تعالى) ففيه وجوه: أحدها: ينادي: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. ثانيها: ينادي: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤] مع قوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣٤] ومثله قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [ق: ٤١] وقال: ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١]. ثالثها: غيرهما لقوله تعالى: ﴿يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ وغير ذلك، وأما على قولنا: (المنادي غير الله) ففيه وجوه أيضًا: أحدها: قول إسرافيل: أيتها العظام البالية اجتمعوا للوصل واستمعوا للفصل. ثانيها: النداء مع النفس، يقال للنفس: ارجعي إلى ربك لتدخلي مكانك من الجنة أو النار. ثالثها: ينادي منادٍ: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار، كما قال تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] وعلى قولنا: (المنادي هو المكلف) فيحتمل أن يقال: هو ما بَيَّن الله تعالى في قوله: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧] أو غير ذلك إلا أن الظاهر أن المراد أحد الوجهين الأولين؛ لأن قوله: (المنادي) للتعريف وكون الملك في ذلك اليوم مناديًا معروف عُرف حاله وإن لم يجر ذكره، فيقال: قال ﷺ وإن لم يكن قد سبق ذكره، وأما أن الله تعالى منادٍ فقد سبق في هذه السورة في قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾ [ق: ٢٤] وهذا نداء، وقوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠] وهو نداء، وأما المكلف ليس كذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ إشارة إلى أن الصوت لا يخفى على أحد، بل يستوي في استماعه كل أحد، وعلى هذا فلا يبعد حمل المنادي على الله تعالى إذ ليس المراد من المكان القريب نفس المكان بل ظهور النداء، وهو من الله تعالى أقرب، وهذا كما قال في هذه السورة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] وليس ذلك بالمكان.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

هذا تحقيق ما بينا من الفائدة في قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ [ق: ٤١] أي لا تكن من الغافلين حتى لا تُصعق يوم الصيحة، وبيانه هو أنه قال: (استمِع) أي كن قبل أن تستمع مستيقظًا لوقوعه، فإن السمع لا بد منه، أنت وهم فيه سواء فهم يسمعون لكن من غير استماع فيصعقون وأنت تسمع بعد الاستماع فلا يؤثر فيك إلا ما لا بد منه و﴿يَوْمَ﴾ يحتمل وجوهًا: أحدها: ما قاله الزمخشري

أنه بدل من (يوم) في قوله: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ والعامل فيهما الفعل الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ أي يخرجون يوم يسمعون. ثانيها: أن ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ﴾ العامل فيه ما في قوله: (ذلك) ﴿يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ العامل فيه ما ذكرنا. ثالثها: أن يقال: (استمع) عامل في (يوم ينادي) كما ذكرنا وينادي عامل في يسمعون، وذلك لأن يوم ينادي وإن لم يجز أن يكون منصوبًا بالمضاف إليه وهو ينادي لكن غيره يجوز أن يكون منصوبًا به، يقال: اذكر حال زيد ومذلته يوم ضَرَبه عمرو، ويوم كان عمرو واليًا، إذا كان القائل يريد بيان مذلة زيد عندما صار زيد يكرم بسبب من الأسباب، فلا يكون يوم كان عمرو واليًا منصوبًا بقوله (اذكر) لأن غرض القائل التُذكير بحال زيد ومذلته وذلك يوم الضرب، لكن يوم كان عمرو منصوب بقوله ضربه عمرو يوم كان واليًا، فكذلك هاهنا قال: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ لئلا تكون ممن يفزع ويُصعق، ثم بَيَّن هذا النداء بقوله: ﴿يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾ يوم يسمعون، أي لا يكون نداءً خفيًّا بحيث لا يسمعه بعض الناس بل يكون نداؤه بحيث تكون نسبته إلى من في أقصى المغرب كنسبته إلى من في المشرق، وكلكم تسمعون، ولا شك أن مثل هذا الصوت يجب أن يكون الإنسان متهيئًا لاستماعه، وذلك يشغل النفس بعبادة الله تعالى وذكره والتفكير فيه، فظهر فائدة جليلة من قوله: (فاصبر، وسبح، واستمع يوم يناد المناد، ويوم يسمعون) واللام في الصيحة للتعريف، وقد عرف حالها وذكرها الله مرارًا كما في قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩] وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الصافات: ١٩] وقوله: ﴿نَفۡخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣].

وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ جلز أن يكون متعلقًا بالصيحة، أي الصيحة بالحق يسمعونها. وعلى هذا ففيه وجوه:

الأول: الحق: الحشر، أي الصيحة بالحشر وهو حق يسمعونها، يقال: صاح زيد بـ(يا قوم اجتمعوا) على حد استعمال تكلم بهذا الكلام وتقديره حينئذٍ: يسمعون الصيحة بيا عظام اجتمعي وهو المراد بالحق. الثاني: الصيحة بالحق، أي باليقين والحق هو اليقين، يقال: صاح فلان بيقين لا بظن وتخمين، أي وُجد منه الصياح يقينًا لا كالصدى وغيره، وهو يجري مجرى الصفة للصيحة، يقال: استمع سماعًا بطلب، وصاح صيحة بقوة، أي قوية، فكأنه قال: الصيحة المحققة. الثالث: أن يكون معناه الصيحة المقترنة بالحق وهو الوجود، يقال: (كن) فيتحقق ويكون، ويقال: اذهب بالسلام وارجع بالسعادة، أي مقرونًا ومصحوبًا، فإن قيل: زد بيانًا فإن الباء في الحقيقة للإلصاق فكيف يُفهم معنى الإلصاق في هذه المواضع؟ نقول: التعدية قد تتحقق بالباء، يقال: (ذهب بزيد) على معنى ألصق الذهاب بزيد فوجد قائمًا به فصار مفعولاً، فعلى قولنا: (المراد يسمعون صيحة من صاح بـ: يا عظام اجتمعي) هو تعدية المصدر بالباء، يقال: أعجبني ذهاب زيد بعمرو، وكذلك قوله: ﴿ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي ارفع الصوت على الحق وهو الحشر، وله موعد نبينه في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني: أن يكون الحق متعلقًا بقوله: ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ أي يسمعون الصيحة بالحق، وفيه

وجهان: الأول: هو قول القائل: سمعته بيقين. الثاني: الباء في يسمعون بالحق قسم، أي يسمعون الصيحة بالله الحق. وهو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ﴾ فيه وجهان: أحدهما: ذلك إشارة إلى يوم، أي ذلك اليوم يوم الخروج. ثانيهما: ذلك إشارة إلى نداء المنادي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

قد ذكرنا في سورة يس ما يتعلق بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾، وأما قوله: ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فالمراد من الإحياء الإحياء أولاً ﴿وَنُمِيتُ﴾ إشارة إلى الموتة الأولى، وقوله: ﴿وَإِلَيْنَا﴾ بيان للحشر فقدم ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ لتعريف عظمته، يقول القائل: (أنا أنا) أي مشهور و ﴿نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أمور مؤكِّدة معنى العظمة ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ بيان للمقصود.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ﴾ العامل فيه هو ما في قوله: ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢] من الفعل، أي يخرجون يوم تشقق الأرض عنهم سراعًا. وقوله: ﴿سِرَاعًاۚ﴾ حال للخارجين لأن قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾ يفيد كونهم مفعولين بالتشقق فكان التشقق عند الخروج من القبر، كما يقال: كُشف عنه فهو مكشوف عنه، فيصير سراعًا هيئة المفعول، كأنه قال: (مسرعين) والسِّراع جمع سريع كالكرام جمع كريم.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى التشقق عنهم، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الإخراج المدلول عليه بقوله سراعًا، ويحتمل أن يكون معناه ذلك الحشر حشر يسير؛ لأن الحشر عُلم مما تقدم من الألفاظ.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بتقديم الظرف يدل على الاختصاص، أي هو علينا هين لا على غيرنا، وهو إعادة جواب قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣] والحشر: الجمع ويوم القيامة جمع الأجزاء بعضها إلى بعض وجمع الأرواح مع الأشباح، أي يجمع بين كل روح وجسدها وجمع الأمم المتفرقة والرمم المتمزقة، والكل واحد في الجمع.

ثم قال تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

فيه وجوه:

أحدها: تسلية لقلب النبي ﷺ والمؤمنين وتحريض لهم على ما أمر به النبي ﷺ من الصبر والتسبيح، أي اشتغِل بما قلناه ولا يشغلك الشكوى إلينا فإنا نعلم أقوالهم ونرى أعمالهم. وعلى هذا فقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ مناسب له، أي لا تقل بأني أُرسلت إليهم لأهديهم، فكيف

أشتغل بما يشغلني عن الهداية وهو الصلاة والتسبيح؟! فإنك ما بُعثتَ مسلطًا على دواعيهم وقُدَرهم، وإنما أُمرت بالتبليغ، وقد بلَّغت فاصبر وسبِّح وانتظِر اليوم الذي يفصل فيه بينكم.

ثانيها: هي كلمة تهديد وتخويف لأن قوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣] ظاهر في التهديد بالعلم بعملكم لأن من يعلم أن مرجعه إلى الملك ولكنه يعتقد أن الملك لا يعلم ما يفعله - لا يمتنع من القبائح، أما إذا علم أنه يعلمه وعنده غيبه وإليه عوده يمتنع، فقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ و﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ وهو ظاهر في التهديد، وهذا حينئذٍ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

ثالثها: تقرير الحشر وذلك لأنه لما بيّن أن الحشر عليه يسير لكمال قدرته ونفوذ إرادته، ولكن تمام ذلك بالعلم الشامل حتى يميز بين جزء بدنين جزء بدن زيد وجزء بدن عمرو فقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ لكمال قدرتنا، ولا يخفى علينا الأجزاء لمكان علمنا، وعلى هذا فقوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ معناه نحن نعلم عين ما يقولون في قولهم ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ [المؤمنون: ٨٢] ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] فيقول: نحن نعلم الأجزاء التي يقولون فيها إنها ضالة وخفيه، ولا يكون المراد نحن نعلم وقولهم في الأول جاز أن تكون ما مصدرية فيكون المراد من قوله: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي قولهم، وفي الوجه الآخر تكون خبرية، وعلى هذا الدليل فلا يصح قوله: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ إذ لا عالم بتلك الأجزاء سواه حتى يقول: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾ نقول قد علم الجواب عنه مرارًا من وجوه:

أحدها: أن (أفعل) لا يقتضي الاشتراك في أصل الفعل كما في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] وفي قوله تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]، وفي قوله: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

ثانيها: معناه نحن أعلم بما يقولون من كل عالم بما يعلمه. والأول أصح وأظهر وأوضح وأشهر.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ فيه وجوه: أحدها: أنه للتسلية أيضًا، وذلك لأنه لما مَنَّ عليه بالإقبال على الشغل الأخروي وهو العبادة أخبر بأنه لم يصرف عن الشغل الآخر وهو البعث، كما أن الملك إذا أمر بعض عبيده بشغلين فظهر عجزه في أحدهما، يقول له: أقبِل على الشغل الآخر منهما ونحن نبعث من يقدر على الذي عجزت عنه منهما، فقال: (اصبر. وسبح، وما أنت.. بجبار) أي فما كان امتناعهم بسبب تجبر منك أو تكبر فاشمأزوا من سوء خلقك، بل كنت بهم رؤوفًا وعليهم عطوفًا، وبالغت وبلَّغت وامتنعوا، فأقبِل على الصبر والتسبيح غير مصروف عن الشغل الأول بسبب جبروتك، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٢ - ٤]، ثانيها: هو بيان أن النبي ﷺ أتى بما عليه من الهداية، وذلك لأنه أرسله منذرًا وهاديًا لا ملجئًا ومجبرًا، وهذا كما في قوله تعالى:

﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۚ﴾ [الشورى: ١٨] أي تحفظهم من الكفر والنار.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم﴾ في معنى قول القائل: اليوم فلان علينا، في جواب من يقول: من عليكم اليوم؟ أي مَن الوالي عليكم؟ ثالثها: هو بيان لعدم وقت نزول العذاب بعد، وذلك لأن النبي ﷺ لما أنذر وأعذر وأظهر لم يؤمنوا كان يقول: إن هذا وقت العذاب، فقال: نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بمسلط فذكِّر بعذابي إن لم يؤمنوا من بقي منهم ممن تعلم أنه يؤمن ثم تسلط. ويؤيد هذا قول المفسرين أن الآية نزلت قبل نزول آية القتال، وعلى هذا فقوله: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي من بقي منهم ممن يخاف يوم الوعيد، وفيه وجوه أُخر: أحدها: أنا بينا في أحد الوجوه أن قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ﴾ [ق: ٣٩] معناه أقبِل على العبادة، ثم قال: ولا تترك الهداية بالكلية بل وذكّر المؤمنين ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقوله: ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ فيه وجوه: الأول: فذكِّر بما في القرآن واتل عليهم القرآن يحصل لهم بسبب ما فيه المنفعة. الثاني: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أي بيّن به أنك رسول لكونه معجزًا، وإذا ثبت كونك رسولاً لزمهم قبول قولك في جميع ما تقول به. الثالث: المراد فذكِّر بمقتضى ما في القرآن من الأوامر الواردة بالتبليغ والتذكير، وحينئذٍ يكون ذكر القرآن لانتفاع النبي ﷺ به، أي اجعل القرآن إمامك، وذكّرهم بما أُخبرت فيه بأن تذكرهم. وعلى الأول معناه اتل عليهم القرآن ليتذكروا بسببه.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ من جملة ما يبين كون الخشية دالة على عظمة المخشي أكثر مما يدل عليه الخوف، حيث قال: ﴿يَخَافُ﴾ عندما جعل المخوف عذابه ووعيده، وقال: ﴿وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠] عندما جعل المخوف نفسه العظيمة، وفي هذه الآية إشارة إلى الأصول الثلاثة، وقوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ إشارة إلى أنه مرسل مأمور بالتذكير منزل عليه القرآن حيث قال: ﴿بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ وقوله: ﴿وَعِيدِ﴾ إشارة إلى اليوم الآخر، وضمير المتكلم في قوله: ﴿وَعِيدِ﴾ يدل على الوحدانية، فإنه لو قال: (من يخاف وعيد الله) كان يذهب وهم الله إلى كل صوب فلذا قال: ﴿وَعِيدِ﴾ والمتكلم أعرف المعارف وأبعد عن الإشراك به وقبول الاشتراك فيه، وقد بينا في أول السورة أن أول السورة وآخرها متقاربان في المعنى حيث قال في الأول: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] وقال في آخرها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

وهذا آخر تفسير هذه السورة، والحمد لله ربّ العالمين، وصلاته على خاتم النبيّين وسيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه وأزواجه وذريته أجمعين.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ق

وهي خمسٌ وأربعون آية

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الآية: ٣٨][١].

وفي صحيح مسلم عن أمِّ هشام بنت حارثةَ بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً، سنتين أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس[٢].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، سألَ أبا واقدٍ الليثيّ: ما كان يقرأُ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأُ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١][٣].

وعن جابر بن سَمُرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، وكان[٤] صلاتُه بعدُ تخفيفاً[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/٣٣٩ .

(٢) صحيح مسلم (٨٧٣): (٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١): (١٤).

(٤) في (ق) و(م): وكانت.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٨٥٤) (٢١٠٠٣)، ومسلم (٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قرأ العامَّةُ: «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «قافِ» بكسر الفاء[١]؛ لأنَّ الكسرَ أخو الجزم، فلمَّا سَكَنَ آخِرُهُ، حرَّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيُّ بفتح الفاء[٢] حرَّكه إلى أخفِّ الحركات. وقرأ هارونُ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «قافُ» بالضم[٣]؛ لأنَّه في غالب الأمر حركةُ البناء، نحو: منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ.

واختلف في معنى «ق» ما هو؟ فقال يزيد[٤] وعكرمةُ والضَّحَّاكُ: هو جبل محيطٌ بالأرض من زُمرُّدةٍ خضراءَ، اخضرَّتِ السماءُ منه، وعليه طَرَفا السماءِ، والسماءُ عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصابَ الناسُ من زُمرُّدٍ، كان مما تساقطَ من ذلك الجبل[٥]. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس.

قال الفرَّاء: كان يجب على هذا أن يظهرَ الإعرابُ في «ق»؛ لأنَّه اسمٌ وليس بهجاء. قال: ولعلَّ القافَ وحدها ذُكرتْ من اسمه؛ كقول القائل[٦]:

قلتُ لها قِفي فقالتْ قافْ

أي: أنا واقفة[٧]. وهذا وجهٌ حسنٌ. وقد تقدَّم أوّل «البقرة»[٨].

---

(١) قراءة الحسن وابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

(٤) في (ف) و(ق) و(م): ابن زيد. والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٥) ينظر قولهم في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٦) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد سلف ١/ ٢٣٩ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٥ .

(٨) ١/ ٢٣٩ .

وقال وهب: أشرفَ ذو القرنين على جبلِ قاف، فرأى تحتَهُ جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبالُ حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينةٍ إلا وفيها عِرقٌ من عروقي، فإذا أراد اللهُ أنْ يزلزل مدينةً، أمرني فحرَّكتُ عِرقي ذلك، فتزلزلتْ تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمةِ الله؛ قال: إنَّ شأن ربِّنا لعظيمٌ، وإنَّ ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام، من جبالِ ثلجٍ يحطم بعضُها بعضاً، لولا هي لاحترقتُ من حرِّ جهنَّم. قال: زدني، قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تُرْعَدُ فرائصُه، يخلقُ الله من كلِّ رِعدةٍ مئةَ ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يدي الله تعالى، منكِّسو رؤوسهم، فإذا أذِنَ الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلَّا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ:٣٨] يعني قول: لا إله إلا الله[١].

وقال الزجَّاج[٢]: قوله: «ق» أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل في «حم» أي: حُمَّ الأمرُ. وقال ابن عباس: «ق» اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به[٣]. وعنه أيضاً: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن. وهو قول قتادة[٤]. وقال القُرظيُّ: افتتاحُ أسماء الله تعالى قديرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاضٍ وقابض[٥]. وقال الشَّعبيُّ: فاتحةُ السورة[٦]. وقال أبو بكر

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٩٤ : كأن هذه من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أنّ هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق زنادقتهم، يلبّسون على الناس أمر دينهم... وإنما أباح الشارع الرواية عنهم... فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظن كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٤١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٠ .

(٤) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبريُّ ٢١/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وفيه: اسم السورة.

الورَّاق: معناه: قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما[١]. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيُّ: هو قُرْبُ الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. وقال ابنُ عطاء: أَقسم اللهُ بقوَّة قلب حبيبه محمدٍ ﷺ، حيثُ حَمَلَ الخطابَ، ولم يُؤثِّر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله[٢].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذٌ من كثرة القَدْرِ والمنزلة، لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان[٣] في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: لها[٤] في كلِّ شجرٍ نار، واسْتمجدَ المَرْخُ والعَفار[٥]. أي: استكثر هذان النوعان من النَّار، فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر[٦].

وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي: لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] وهو اختيارُ الترمذيِّ محمد بن عليٍّ قال: «ق» قَسَمٌ باسمٍ هو أعظمُ الأسماء التي خَرجتْ إلى العباد: وهو القدرة، وأقْسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم اقتصَّ ما خَرجَ من القدرة من خَلْقِ السماوات والأرضين وأرزاق العباد، وخَلْقِ الآدميين، وصفةِ يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] فوقع القسمُ على هذه الكلمة، كأنَّه قال: «ق» أي: بالقدرة والقرآن المجيد، أقسمتُ أنَّ فيما اقتصصتُ في هذه

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥.

(٢) ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٠ أن المفسرين اختلفوا في مدلول «ق» على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها.

(٣) في النكت والعيون ـ والكلام منه ـ: فلان كثير.

(٤) لفظة: لها. ليست في (م).

(٥) المَرْخ والعَفار شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف؛ وهذا المثل يضرب في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتَقدُّمٌ ليس للآخرين. المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٣-١٨٤.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠.

السورة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾[١]. وقال الأخفش[٢]: جوابه محذوف، كأنَّه قال: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ لَتُبعثُنَّ، يدلُّ عليه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ على تقدير: لأن جاءهم منذرٌ منهم، يعني محمداً ﷺ. والضميرُ للكفَّار، وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً[٣]. ثم ميَّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: فقالوا، بل قبَّح حالَهم وفِعلَهم[٤] وَوَصَفَهُمْ بالكفر، كما تقول: جاءني فلانٌ فأسمعني المكروهَ، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا.

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يُتعجَّبُ منه، وكذلك العُجابُ؛ بالضمِّ، والعُجَّابُ ـ بالتشديد ـ أكثر منه، وكذلك الأُعجوبة[٥]. وقال قتادة: عجَّبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور[٦]. والذي نصَّ عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نُبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الرَّجع: الرَّدُّ، أي: هو ردٌّ بعيد، أي: محال. يقال: رَجَعْته أرْجِعه رَجْعًا، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعاً، وفيه إضمارٌ آخر، أي: وقالوا أنُبعَثُ إذا متنا. وذِكْرُ البعثِ وإنْ لم يَجْرِ هاهنا، فقد جرى في مواضع، والقرآنُ كالسورة الواحدة. وأيضاً ذِكْرُ البعثِ منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنَّه إنَّما يُنذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٦ بنحوه. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٤) قوله: وفعلهم. من (م).

(٥) الصحاح (عجب).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكلُ من أجسادهم، فلا يَضِلُّ عنَّا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وفي الصحيح: «كلُّ ابنِ آدم يأكلُه التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدَّم[١].

وثبت أنَّ الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكلُ الأرضُ أجسادهم؛ حرَّم الله على الأرض أن تأكلَ أجسادهم. وقد بيَّنَّا هذا في كتاب «التذكرة»، وتقدَّم أيضاً في هذا الكتاب[٢].

وقال السُّدِّي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا منهم من يموتُ ومن يبقى[٣]؛ لأنَّ من مات دُفِنَ، فكأنَّ الأرض تَنقُصُ من الناس.

وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين[٤].

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: بعدَّتهم وأسمائهم، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ[٥]، أي: محفوظٌ من الشياطين، أو محفوظٌ فيه كلُّ شيء. وقيل: الكتاب عبارةٌ عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظتُهُ. وهذا تَرْكُ الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي: وعندنا كتابٌ حفيظٌ لأعمال بني آدم، لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن في قول الجميع؛ حكاه

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٥): (١٤٢)، وسلف معناه ١٧/ ٤٩٠ .

(٢) التذكرة ١/ ١٦٣-١٦٤ ، وسلف ٥/ ٤٠٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ .

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٧ نقلاً عن الثعلبي. ثم قال: وهذا قولٌ أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٦٣ .

الماورديُّ[١]. وقال الثعلبيُّ: بالحقِّ: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمدٌ ﷺ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط. يقولون مرَّةً: ساحر، ومرَّةً: شاعر، ومرَّةً: كاهن؛ قاله الضَّحَّاك وابنُ زيد. وقال قتادة: مختلِف. الحسن: مُلتبِس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد[٢]، ومنه: مَرِجَتْ أماناتُ الناس، أي: فسدت؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ: اختلط. قال أبو دؤاد:

مَرِجَ الدِّينُ فأَعْدَدْتُ له ... مُشْرِفَ الحارِكِ محبوكَ الكَتَدْ[٣]

وقال ابن عباس: المَرِيج: الأمر المنكر[٤]. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: «مريج»: مختلط[٥]. وأنشد:

فجالتْ فالتمستُ به حَشاها ... فخرَّ كأنه خُوطٌ مَريجُ[٦]

الخُوطُ: الغصن.

وقال عنه العوفيُّ: في أمرِ ضلالة[٧]، وهو قولهم: ساحرٌ شاعرٌ مجنونٌ كاهن. وقيل: متغيِّر.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤١ دون ذكر ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٠٨. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠.

(٣) الصحاح (مرج)، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٩٠، وأمالي القالي ٢/ ٣١٠. قال البكري في سمط اللآلي ٢/ ٩٥٧: الكتد: موصل العنق في الظهر، ومحبوك: مُدمج. اهـ. والحارك: أعلى الكاهل، وقيل: الحارك منبت أدنى العُرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٦، واستدل عليه ابنُ عباس بالبيت الآتي.

(٥) أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مريج: مختلف. وكذا ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٢٠ دون إسناد.

(٦) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٣. وفيه: فراغت، بدل: فجالت. قال شارحه: راغت، أي: البقرة، وخرَّ السهم: سقط كأنه خوطٌ، أي غصن. مريج، أي: سهل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠ دون ذكر العوفي.

وأصل المَرَج: الاضطراب والقلق. يقال: مَرِجَ أمرُ الناس، ومَرِج الدِّين[١]، وَمرِج الخاتم في إصبعي، إذا قَلِقَ من الهزال.

وفي الحديث: «كيف بك يا عبدَ الله إذا كنتَ في قومٍ قد مَرِجَتْ عهودُهم وأمانَاتُهم، واختلفوا، فكانوا هكذا وهكذا». وشبَّك بين أصابعه. أخرجه أبو داود[٢]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبار وتفكُّر، وأنَّ القادرَ على إيجادها قادرٌ على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا﴾ فرفعناها بلا عَمَد ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فَرْج: وهو الشَّق؛ ومنه قول امرئ القيس:

تَسُدُّ به فَرجَها من دُبُرْ[٤]

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق[٥]. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ تقدَّم في «الرعد» بيانه[٦]. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حَسَنٍ يسرُّ الناظرين. وقد تقدَّم في «الحج» بيانه[٧].

(١) في (م): ومرج أمر الدين، والمثبت موافق لغريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٧ والكلام منه.

(٢) في سننه (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وسلف ٥٨/١٣ .

(٣) ٥٥١/٢ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٦٤ ، وصدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

(٥) مجمع البيان ١٠٣/٢٦ .

(٦) ٨/١٢ .

(٧) ٣٢٥/١٤ .

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ أي: جعلنا ذلك تبصرةً لِنَدُلَّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني: جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوف عليه.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: راجعٍ إلى الله تعالى، مفكِّرٍ في قدرته[١].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ التقدير: وحبَّ النبت الحصيد، وهو كلُّ ما يُحصد. هذا قول البصريين[٢]. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، وحقُّ اليقينِ، وحبل الوريد، ونحوها؛ قاله الفرّاء[٣]. والأصل: الحبُّ الحصيد، فحُذفتِ الألف واللام، وأضيف المنعوت إلى النعت.

وقال الضحاك: حبُّ الحصيد: البُرُّ والشَّعيرُ. وقيل: كلُّ حبٍّ يُحْصد ويُدَّخر ويُقتات[٤].

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ نصب[٥] ردًّا[٦] على قوله: «وَحَبَّ الحَصِيدِ» و«بَاسِقَاتٍ» حال. والباسقات: الطِّوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال عبد الله[٧] بن شدَّاد: بُسُوقها: استقامتها في الطول[٨].

وقال سعيد بن جبير: مستويات[٩]. وقال الحسنُ وعكرمة أيضاً والفرَّاء: مواقير

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢١ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٤٢ دون نسبة.

(٥) في النسخ: نصب على الحال، ولعل قوله: «على الحال» سبق قلم. والصواب حذفه.

(٦) في (ف): معطوف.

(٧) في (م): قاله مجاهد وعكرمة وقال قتادة وعبد الله.. وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لتفسير البغوي ٤/ ٢٢١ ، وغيره.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١٢ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢١ .

حوامل؛ يقال للشاة: بَسَقَتْ، إذا ولدت[١]، قال الشاعر:

فلما تَركنا الدار ظَلَّتْ[٢] مُنيفةً بِقُرَّانَ فيه الباسقاتُ المَواقرُ[٣]

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ بسَقَ النخلُ بسُوقاً: إذا طال. قال[٤]:

لنا خمرٌ وليستْ خمرَ كَرْمٍ ولكنْ من نِتاج الباسقاتِ

كرامٌ في السماء ذَهَبْنَ طُولاً وفاتَ ثمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلانٌ على أصحابه، أي: عَلَاهم، وأبسقتِ الناقةُ: إذا وقع في ضَرْعها اللِّبأ[٥] قبل النِّتاج، فهي مُبْسِق، ونُوقٌ مباسيق.

وقال قطبةُ بنُ مالك: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ: «بَاصِقَاتٍ» بالصاد؛ ذكره الثعلبيّ[٦].

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبةَ بن مالك قال: صلَّيتُ وصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ فقرأ: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ حتى قرأ: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال: فجعلتُ أردِّدها، ولا أدري ما قال[٧]. إلَّا أنَّه يجوز[٨] إبدالُ الصاد من السين لأجل القاف[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: إذا بسقت ولدت، والمثبت من (م). وقول عكرمة في النكت والعيون ٥/ ٣٤٣ بنحوه، وأخرجه عنه الحربي في غريب الحديث ٣/ ١١٢٣ بلفظ: بسوقها كبسوق الشاة عند الولادة. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر ضمن قصة كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٢ .

(٢) في (ق): طلَّت.

(٣) البيت للراعي النُّميري، وهو في ديوانه ص١١١ ، فلما تركْنَ الدار قلت منيفة، بقُرَّان منها. . . وقوله: منيفة، أي: تامة الطول والحُسن، وقُرَّان: قرية باليمامة.

(٤) هو أبو نواس، والبيتان في ديوانه ص١١٨ ، وسلفا ٨/ ١٦٩ .

(٥) في (ظ) و(م): اللبن، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للصحاح (بسق) والكلام منه. واللِّبَأ؛ كعِنَب: أول اللبن في النِّتاج.

(٦) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٦ : فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقطبة بن مالك هو الثعلبي، ويقال الذبياني. قال البخاري وابن أبي حاتم: له صحبة. الإصابة ٨/ ١٦٥ .

(٧) صحيح مسلم (٤٥٧)، وأخرجه أحمد (١٨٩٠٣).

(٨) يعني في اللغة، لا في التلاوة، ووقع في (م): لا يجوز!

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٢-٢٨٣ والكشاف ٤/ ٥ .

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلْعُ: هو أوَّلُ ما يخرجُ من ثمر النخل؛ يقال: طَلَع الطَّلْعُ طُلُوعاً، وأَطلعتِ النخلةُ، وطَلعها: كُفُرَّاها[١] قبل أنْ ينشقَّ.

﴿نَّضِيدٌ﴾ أي: متراكبٌ قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاريّ: «النَّضِيدُ»: الكُفُرَّى مادام في أكمامه، ومعناه: منضودٌ بعضُه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[٢].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: رزقناهم رزقاً، أو على معنى: أنبتناها رزقاً؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق، أو على أنَّه مفعولٌ له، أي: أنبتناها لنرزقهم[٣]، والرزقُ: ما كان مهيَّأً للانتفاع به. وقد تقدَّم القول فيه[٤].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: من القبور، أي: كما أحيا الله هذه الأرض الميتةَ؛ فكذلك يخرجكم أحياءً بعد موتكم، فالكاف في محل رفع على الابتداء[٥]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٦]. وقال: «مَيْتًا»؛ لأنَّ المقصودَ المكانُ، ولو قال: ميتة، لجاز.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كما كذَّب هؤلاء، فكذلك كذَّب أولئك فحلَّ بهم العقاب؛ ذكَّرهم نبأَ من كان قبلَهم من المكذِّبين وخوَّفهم ما أخذهم.

---

(١) الكُفُرَّى: هو وعاء طلع النخل. الصحاح (كفر).

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٤٨٤٨).

(٣) في (م): لرزقهم. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٥ ، والكلام منه.

(٤) ١/ ٢٧٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٥ .

(٦) ١/ ٣٧٤ .

وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحقَّ عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ أي: أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابُ قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعُۢ بَعِيدٌ﴾. يقال: عَيِيتُ بالأمر، إذا لم تعرفْ وجهه[1].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في حَيْرةٍ من البعث، منهم مصدِّقٌ ومنهم مكذِّب[2]؛ يقال: لَبَس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: الناس، وقيل: آدم[3]. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥۖ﴾ أي: ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجرٌ عن المعاصي التي يُستخفى بها. ومن قال: إنَّ المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوستْ به نفسُهُ هو الأكلُ من الشجرة، ثم هو عامٌّ لولده. والوسوسةُ: حديثُ النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسمع للحَلي وَسواساً إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقد مضى في «الأعراف»[4].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌّ من ناحية حَلْقِهِ إلى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣ .

(٢) هذا معنى قول قتادة الذي أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٢١ .

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٩ .

(٤) ٩/ ١٧٥ . والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥ . وسلف شرحه ثمة.

عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمال. روي معناه عن ابن عباس[١] وغيره، وهو المعروف في اللغة. والحبل: هو الوريد، فأُضيف إلى نفسه؛ لاختلاف اللفظين[٢].

وقال الحسن: الوريد: الوتين وهو عِرقٌ معلَّقٌ بالقلب[٣]. وهذا تمثيل للقرب؛ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة.

وقيل: أي: ونحن أَملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي: ونحن أعلمُ بما توسوس به نفسه[٤] من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنَّه عِرقٌ يخالط القلب، فَعِلْمُ الربِّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عِرْقٌ يخالطُ القلب. وهذا القربُ قرب العلم والقدرة، وأبعاضُ الإنسان يَحجبُ البعضُ البعضَ، ولا يحجبُ علمَ الله شيء[٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده حين يتلقَّى المتلقيان، وهما الملكان الموكَّلان به[٦]، أي: نحن أعلم بأحواله؛ فلا نحتاج إلى مَلَكٍ يخبر، ولكنهما وَكَّلا به إلزاماً للحُجَّة، وتوكيداً للأمر عليه.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: «الْمُتَلَقِّيَانِ»: ملَكان يتلقيان عملك؛ أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متَّ طُويت صحيفةُ عملك، وقيل لك يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عَدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٤) بعدها في (ظ): وأقرب إليه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٤٦- ٣٤٧، والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

وقال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحوالِه ـ مَلَكين بالليل، ومَلَكين بالنهار يحفظانِ عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[١].

وقال سفيان: بلغني أنَّ كاتبَ الحسنات أمينٌ[٢] على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد[٣] قال: لا تعجل لعلَّه يستغفر الله.

وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «كاتبُ الحسنات على يمين الرجل، وكاتبُ السيئات على يسار الرجل[٤]، وكاتبُ الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا عَمِلَ حسنةً؛ كتبها صاحبُ اليمين عشراً، وإذا عَمِلَ سيئةً، قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعله يَسبِّح أو يستغفر»[٥].

وروي من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مقعدَ مَلَكَيك على ثَنِيَّتك، لسانُك قلمهما، وريقُك مِدَادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، فلا تستحي من الله ولا منهما»[٦].

وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر[٧] على الحنك. ورواه عوف عن الحسن

---

(١) أخرجه الطبري بنحوه مختصراً ٢١/ ٤٢٥ .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٤٢٦ ـ والقول مخرجٌ فيه ـ: أمير.

(٣) قوله: العبد، من (ف) و(م).

(٤) في (م): على يساره.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٧١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨ : وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. ورواه الطبراني في المعجم الكبير أيضاً (٧٧٦٥) بنحوه وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ١٤٨-١٤٩ .

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩ الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطأة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مقعد ملكيك» فذكره. اهـ. وأرطاة بن أشعث؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٧٠ : هالك.

(٧) في (م): الثغر.

قال: وكان الحسن يُعجبه أن ينظف عَنْفَقته(١).

وإنما قال: «قَعِيدٌ» ولم يقل: قعيدان، وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف الأوَّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه(٢)؛ ومنه قول الشاعر:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عِندكَ راضٍ والرّأيُ مختلفُ(٣)

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتاني ما جنى وأَبَى فكان وكنتُ غيرَ غَدورِ(٤)

ولم يقل: راضيان ولا غدورين.

ومذهب المبرِّد: أنَّ الذي في التلاوة أوَّلٌ، أُخِّرَ اتِّساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوَّل عليه. ومذهب الأخفش والفرَّاء: أنَّ الذي في التلاوة يؤدِّي عن الاثنين والجمع، ولا حذف في الكلام(٥).

و«قَعِيدٌ» بمعنى قاعد، كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: «قَعِيدٌ» بمعنى مُقَاعد، مثل أكيل ونديم بمعنى مُؤَاكل ومُنَادم(٦).

وقال الجوهريُّ: وفَعيلٌ وفَعولٌ؛ ممَّا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤](٧). وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ٧٥-٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣.

(٣) البيت لقيس بن الخطيم كما نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥. وسلف ١٠/ ١٨٨.

(٤) الكتاب ١/ ٧٦، ولم نقف عليه في ديوان الفرزدق.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٧٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤.

(٦) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨.

(٧) الصحاح (قعد).

أَلِـكْـنـي إلـيـهـا وخـيـرُ الـرَّسـو لِ أعـلَـمُـهُـمْ بـنـواحـي الـخـبـرْ(١)

والمراد بالقعيد هاهنا: الملازمُ الثابت، لا ضدُّ القائم(٢).

قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلَّم بشيءٍ إلَّا كُتب عليه؛ مأخوذٌ من لفظ الطعام، وهو إخراجُه من الفم.

وفي الرقيب ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّه المتَّبعُ(٣) للأمور. الثاني: أنَّه الحافظ؛ قاله السُّدِّي. الثالث: أنَّه الشاهد؛ قاله الضَّحَّاك.

وفي العتيد وجهان: أحدهما: أنَّه الحاضرُ الذي لا يغيب. الثاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ إمَّا للحفظ وإمَّا للشهادة(٤).

قال الجوهري(٥): العتيدُ الشيء الحاضر المُهَيَّأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً، وأعْتَدَه إعْتَاداً، أي: أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]، وفرسٌ عَتَدٌ وَعَتِدٌ؛ بفتح التاء وكسرها: المُعَدُّ للجري.

قلت: وكلُّه يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئِن كُنتَ منِّي في العِيان مُغَيَّباً فـذِكْـرُكَ عـنـدي فـي الـفـؤادِ عَـتـيـدُ(٦)

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يُكتبُ على الإنسان كلُّ شيءٍ حتى الأنينُ في مرضه(٧). وقال عكرمة: لا يُكتب عليه(٨) إلَّا ما يُؤجر به أو يُؤزر عليه(٩). وقيل:

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦، وقوله: ألِكْني إليها، أي: كُنْ رسولي إليها. وسلف ١٦/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) في (ف): المنيع، وفي النكت والعيون ـ والكلام منه ـ: المتتبع.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

(٥) في الصحاح (عتد).

(٦) لم نقف عليه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠.

(٨) لفظة: عليه. ليست في (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

يُكتب عليه كلُّ ما يتكلَّم به، فإذا كان آخر النهار مُحيَ عنه ما كان مباحاً، نحو: انطلِق، اقعد، كُلْ، مما لا يتعلَّق به أجرٌ ولا وِزر[١]، والله أعلم.

وروي عن أبي هريرة وأنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من حافظَين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى اللهُ في أوَّل الصحيفة خيراً، وفي آخرها خيراً، إلَّا قال الله تعالى لملائكته: اشهدوا أنِّي قد غفرتُ لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة»[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ لله ملائكةً معهم صحفٌ بيض، فأَمْلُوا في أوَّلها وفي آخرها خيراً، يُغفر لكم ما بين ذلك[٣].

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحاق، قال: حدَّثنا محمد بن موسى الحَرَشيُّ، قال: حدَّثنا سهيل بن عبد الله، قال: سمعتُ الأعمشَ يحدِّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحافظَين إذا نزلا على العبد أو الأمَة، معهما كتابٌ مختوم، فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة، فإذا أرادا أنْ ينهضا، قال أحدُهما للآخر: فُكَّ الكتاب المختومَ الذي معك، فيفكُّه له، فإذا فيه ما كتب سواء، فذلك قوله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» غريبٌ من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلَّا سهيل[٤].

وروي من حديث أنس أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: ربنا قد مات فلانٌ، فأْذَنْ لنا أنْ نصعد إلى السماء، فيقولُ الله تعالى: إنَّ سماواتي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: ربنا نقيمُ في الأرض،

(١) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠ عن الحسن وقتادة.

(٢) أخرجه عن أنس الترمذي (٩٨١). وفي إسناده تمام بن نجيح، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥ : هذا حديثٌ لا يصح، قال ابن حبان: تمام يروي أشياء موضوعة عن الثقات، كأنه المتعمد لها.

(٣) ذكر نحوه الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦ . وعزاه للطبري.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ١٧٣، ٥/ ٥٧ .

فيقولُ الله تعالى: إنَّ أرضي مملوءةٌ من خلقي يسبِّحونني، فيقولان: ياربِّ، فأين نكون؟ فيقولُ الله تعالى: قوما[١] على قبر عبدي، فكبِّراني وهلِّلاني وسبِّحاني[٢]، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: غمرتُه وشدَّتُه؛ فالإنسانُ مادام حيًّا تُكتَبُ عليه أقواله وأفعاله، ليُحاسَبَ عليها، ثم يجيئُهُ الموت، وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحقِّ فيما كان الله تعالى وعدَه وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت، سُمِّي حقًّا؛ إمَّا لاستحقاقه، وإمَّا لانتقاله إلى دار الحقّ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموت[٤]، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما[٥]؛ لأنَّ السَّكرة هي الحقّ، فأُضيفتْ إلى نفسها لاختلاف اللفظين.

وقيل: يجوز أنْ يكون الحقُّ على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي: جاءت سكرةُ أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحقُّ هو الموتُ، والمعنى وجاءت سكرةُ الموت بالموت[٦]؛ ذكره المهدويُّ.

وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أُخالفُ المصحفَ كما خالفه[٧] أبو بكر

---

(١) في (م): كونا.

(٢) في (ف) و(ق): واذكراني، وفي (ظ): وسبحاني واذكراني.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٣١). وفي إسناده عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٤/ ٩٧ : وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الإثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧-٣٤٨ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨٣ عن أبي بكر ﷺ، وهي عن ابن مسعود في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ .

(٧) في (م): خالف.

الصدِّيقُ، فقرأ: وجاءت سكرة الحقِّ بالموت. فاحتجَّ عليه بأنَّ أبا بكر رُويت عنه روايتان: إحداهما موافقةٌ للمصحف، فعليها العمل، والأخرى مرفوضةٌ، تجري مَجرى النسيان منه إنْ كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث.

قال أبو بكر الأنباريّ: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن مسروق قال: لما احتُضِرَ أبو بكرٍ أرسلَ إلى عائشةَ، فلما دخلتْ عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ[١]

فقال لها أبو بكر: هلَّا قُلتِ كما قال الله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث[٢]. والسَّكْرة واحدة السَّكَرات.

وفي الصحيح عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه رَكوةٌ ـ أو عُلْبةٌ ـ فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسحُ بهما وجهه ويقول: «لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالتْ يده. خرَّجه البخاري[٣].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العبدَ الصالح لَيُعالجُ الموتَ وسكراته، وإنَّ مفاصله لَيُسلِّمُ بعضُها على بعض، تقول: السَّلامُ عليك، تفارقني وأفارقُك إلى يوم القيامة»[٤].

---

(١) هو عجز بيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥٠ ، وفيه: النفس. بدل: يوماً. وصدره: أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى

والحشرجة: هي الغرغرة عند الموت وتردد النفَس. الصحاح (حشرج).

(٢) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ١٩٥ ، وأحمد في الزهد ص١٣٦ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي مولى الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في صحيحه (٤٤٤٩)، وسلف ٧/ ٤٠٨ .

(٤) لم نقف عليه.

وقال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين، ادعوا الله أن يهوّن عليكم هذه السَّكْرة. يعني: سَكَرات الموت.

وروي: إنَّ الموتَ أشدُّ مَن ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض(١).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرةُ الموت: ذلك ما كنتَ تفرُّ منه، وتميلُ عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحيدُ حُيُوداً وحَيْدَة وحَيْدُودَةً: مال عنه وعَدَل، وأصلُه: حَيَدَودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعْلُولٌ غير صَعْفُوق(٢). وتقولُ في الإخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً: إذا ملتَ عنه(٣)؛ قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبتَهُ وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ(٤)

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ هي النفخةُ الآخرة للبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: الذي وعده الله للكفار أنْ يعذِّبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى. والحمد لله(٥).

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اختُلِف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ من نفسه. وقال الضَّحَّاك: السائقُ من

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٤١٦ من قول شداد بن أوس.

(٢) الصحاح (حيد)، والصَّعفُوق اللئيم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) سلف ١٣/ ٣١٢ .

(٥) ٨/ ٤٣٠-٤٣١ .

الملائكة، والشهيدُ[١] من أنفسهم؛ الأيدي والأرجل[٢]؛ رواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣].

وقال أبو هريرة: السائقُ: الملَك، والشهيدُ: العمل[٤].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: سائقٌ يسوقها، وشاهدٌ يشهدُ عليها بعملها[٥].

وقال ابنُ مسلم: السائقُ قرينها من الشياطين؛ سُمِّي سائقاً؛ لأنَّه يتبُعها وإنْ لم يحثَّها[٦].

وقال مجاهد: السائقُ والشهيدُ ملَكان[٧].

وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ سائقٌ: مَلَكٌ يسوقُها إلى أمر الله، وشهيدٌ: ملكٌ[٨] يشهدُ عليها بعملها[٩].

قلت: هذا أصحُّ؛ فإنَّ في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ابنَ آدم لفي غفلة ممَّا[١٠] خلقَه الله عزَّ وجلَّ له، إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَهُ قال للملَك: اكتبْ رزقَه وأثرَه وأجلَه، واكتب[١١] شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك المَلَك، ويَبعثُ الله ملكا آخر فيحفظه حتى يُدْرِك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان

---

(١) من قوله: من نفسه. إلى هذا الموضع ساقط من (م).

(٢) أخرج القولين الطبريُّ ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦١ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣ دون نسبة.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٠ .

(٨) لفظة: ملك. ليست في (م).

(٩) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢٩ .

(١٠) في (م): عما.

(١١) في (م): واكتبه.

حسناتِه وسيئاتِه، فإذا جاءه الموتُ ارتفعَ ذلك الملَكان، ثم جاءَه[١] ملك الموت عليه السلام فيقبِضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حفرتَه ردَّ الروح في جسده، ثم يرتفعُ ملك الموت، ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحطَّ عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائقٌ، والآخر شهيد، ثم قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] قال: «حالاً بعد حال»، ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامكم أمراً عظيماً، فاستعينوا بالله العظيم».

خرَّجه أبو نعيم الحافظ من حديث [أبي] جعفر محمد[٢] بن علي، عن جابر. وقال فيه هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [أبي] جعفر، وحديثُ جابرٍ تفرَّد به عنه جابر الْجُعفيُّ وعنه المفضَّل[٣].

ثم في الآية قولان: أحدُهما: أنَّها عامةٌ في المسلم والكافر؛ وهو قول الجمهور. الثاني: أنَّها خاصةٌ في الكافر؛ قاله الضحاك[٤].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ابنُ زيد: المراد به النبيُّ ﷺ؛ أي: لقد كنتَ يا محمدُ في غفلةٍ من الرسالة في قريش في جاهليتهم[٥].

وقال ابن عباس والضحاك: إنَّ المرادَ به المشركون، أي: كانوا في غفلةٍ من عواقب أمورهم[٦]. وقال أكثر المفسرين: إنَّ المرادَ به البرُّ والفاجر. وهو

---

(١) في (م): جاء.

(٢) في النسخ: من حديث جعفر بن محمد بن علي. وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠، وأخرجه أيضاً أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٣٦١ والدر المنثور ٦/ ١٠٦. قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٤، وضعَّفه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٢.

(٦) أخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ٢١/ ٤٣٤.

اختيار الطبري[١].

وقيل: أي لقد كنتَ أيُّها الإنسان في غفلةٍ عن أنَّ كلَّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد؛ لأنَّ هذا لا يُعرف إلا بالنصوص الإلهية[٢].

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها: إذا كان في بطن أمه فوُلد؛ قاله السدِّيّ. الثاني: إذا كان في القبر فنُشر. وهذا معنى قول ابن عباس. الثالث: وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. الرابع: أنه نزول الوحي وتحمُّل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد[٣].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: يراد به بصرُ القلب، كما يقال: هو بصيرٌ بالفقه؛ فبصرُ القلب وبصيرته تبصرتُه شواهدَ الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تُبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصرُ العين وهو الظاهر[٤]، أي: بصر عينك اليوم حديد، أي: قويٌّ نافذٌ يرى ما كان محجوباً عنك.

قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك[٥]. وقاله الضَّحَّاك.

وقيل: يعاينُ ما يصيرُ إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس[٦]. وقيل: يعني أنَّ الكافر يُحشر وبصره حديد، ثم يزرقُّ ويَعْمَى. وقُرِئ: «لَقَدْ كُنْتِ»، «عَنْكِ»، «فَبَصَرُكِ»؛ بالكسر على خطاب النفس[٧].

---

(١) في تفسيره ٢١/ ٤٣٣ . واختاره أيضاً ابن عطية في المحرر ٥/ ١٦٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ١٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: الملَك الموكَّل به في قول الحسن وقتادة والضَّحَّاك[1]. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي من كتابة[2] عمله مُعَدٌّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول: هذا الذي وكَّلتني به من بني آدم قد أَحضرتُه، وأَحضرتُ ديوان عمله[3]. وقيل: المعنى: هذا ما عندي من العذاب حاضر.

وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قُيِّض له من الشياطين[4]. وقال ابنُ زيد في رواية ابن وهب عنه: إنَّه قرينُه من الإنس[5].

فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قال الخليلُ والأخفش: هذا كلامُ العرب الصحيح[6]؛ أنْ تُخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحَلاها وازجُراها، وخُذاه وأطلقاه؛ للواحد.

قال الفرَّاء[7]: تقول للواحد: قُوما عنَّا، وأصلُ ذلك أنَّ أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلامُ الرجل على صاحبيه، ومنه قولُهم للواحد في الشعر: خليليَّ[8]، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ دون ذكر الضحاك.

(٢) في (ظ): كتاب.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٦) في (م): الفصيح.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٧٨ .

(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣-٢٢٤ .

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفؤادِ المُعَذَّبِ(١)

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ(٢)

وقال آخر:

فإنْ تَزْجُراني يا ابنَ عَفَّانَ أَنْزَجِرْ وإنْ تَدَعاني(٣) أحْمِ عِرْضًا مُمنَّعَا(٤)

وقيل: جاء كذلك؛ لأنَّ القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازنيُّ: قوله: «أَلْقِيَا» يدلُّ على أَلْقِ أَلْقِ(٥).

وقال المبرد: هي تثنيةٌ على التوكيد، المعنى: أَلْقِ أَلْقِ، فناب «أَلْقِيَا» مناب التكرار(٦).

ويجوز أن يكون «أَلْقِيَا» تثنيةً على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطبُ به الملَكين. وقيل: هو مخاطبةٌ للسائق والحافظ(٧).

وقيل: إنَّ الأصل: أَلْقِينْ؛ بالنون الخفيفة؛ تُقلب في الوقف ألفاً؛ فَحُمِل الوصلُ على الوقف(٨). وقرأ الحسنُ: «أَلْقِيَنْ» بالنون الخفيفة(٩)، نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥].

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة(١٠). وقال بعضهم: العنيدُ:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٤١ . واللبانات. جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨ ، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) في النسخ الخطية: تدعواني، والمثبت من المصادر.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٣٧ .

(٥) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٨ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤ .

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ ، والقول الأخير اختاره الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤٥ .

(٨) الكشاف للزمخشري ٤/ ٨ .

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٤ .

(١٠) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

المعرض عن الحق. يقال: عَنَد يَعنِد ـ بالكسر ـ عُنوداً، أي: خالف وردَّ الحقَّ وهو يعرفه، فهو عَنِيد وعانِد، وجمع العَنِيد عُنُد[١]، مثل: رغِيف ورُغُف.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، وكلَّ حقٍّ واجب[٢].

﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره، ظالمٍ، ﴿مُّرِيبٍ﴾: شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة[٣]. يقال: أراب الرجلُ فهو مُريب: إذا جاء بالريبة[٤]؛ وهو المشرك[٥]. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنَّه كان يمنعُ بني أخيه من الإسلام[٦].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ تأكيدٌ للأمر الأول.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني: الشيطان الذي قُيِّضَ لهذا الكافر العنيد؛ تبرَّأ منه وكذَّبه.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ وكان طاغياً باختياره، وإنما دعوتُهُ فاستجابَ لي. وقرينُه هنا هو شيطانُه بغير اختلاف. حكاه المهدويُّ.

وحكى الثعلبيُّ: قال ابنُ عباس ومقاتل: قرينُه المَلَك؛ وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنَّه أعجلني، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما أعجلتُه. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر: ربِّ إنَّه زاد عليَّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما زدتُ عليه في الكتابة؛ فحينئذٍ يقولُ

---

(١) الصحاح (عند).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢١/ ٤٣٩ .

(٤) الصحاح (ريب).

(٥) في (ظ): وهذا للمشرك، وفي (ق): وهذا المشرك.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ ، ونسبه للضحاك.

الله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم من الشياطين[١]. قال القشيريّ: وهذا يدلُّ على أنَّ القرينَ الشيطان.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي: أرسلتُ الرسل. وقيل: هذا خطابٌ لكلِّ من اختصم. وقيل: هو للاثنين، وجاء بلفظ الجمع.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ قيل: هو قوله: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقال الفرَّاء[٢]. ما يكذَّب عندي، أي: ما يُزَاد في القول ولا يُنْقَص؛ لعلمي بالغيب.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: ما أنا بمعذِّبٍ من لم يُجرم؛ قاله ابنُ عباس[٣]. وقد مضى القولُ في معناه في «الحج» وغيرها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ قرأ نافع وأبو بكر: «يَوْمَ يَقُولُ» بالياء اعتباراً بقوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى[٥]، وهي نون التعظيم[٦]. وقرأ الحسن: «يَوْمَ أَقُولُ». وعن ابن مسعود

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ .

(٤) ١٤/ ٣٢٩ ، وعند تفسير الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٥) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٦) في (م): العظمة.

وغيره: «يَوْمَ يُقَالُ»[١]. وانتصب «يَوْم» على معنى: ما يبدَّل القولُ لديَّ يومَ. وقيل: بفعلٍ مقدَّرٍ معناه: وأنذرهم يومَ نَقُولُ لِجهنَّمَ هل امتلأْتِ[٢]، لِما سبقَ من وعده إيَّاها أنَّه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده[٣]، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده.

«وتَقُولُ» جهنم: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي: ما بقي فيَّ موضعٌ للزيادة؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «هل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ من رَبْعٍ أو منزل»[٤] أي: ما ترك؛ فمعنى الكلام: الجحد. ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاستزادة[٥]؛ أي: هل من مزيد فأُزاد[٦]؟ وإنَّما صَلَح هذا للوجهين[٧]؛ لأنَّ في الاستفهام ضرباً من الجَحد.

وقيل: ليس ثَمَّ قولٌ، وإنَّما هو على طريق المثل، أي: إنَّها فيما يَظهرُ من حالها، بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأَ الحوضُ وقال قَطني مَهْلاً رويداً قد ملأتَ بطني[٨]

وهذا تفسيرُ مجاهد وغيره؛ أي: هل فيَّ من مسلك، قد امتلأت[٩]. وقيل: يُنطِقُ الله النار حتى تقول هذا؛ كما تنطق الجوارح. وهذا أصحُّ على ما بيَّنَّاه في سورة الفرقان[١٠].

---

(١) قراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٨٤، وزاد نسبتها فيه للأعمش والحسن.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨) من حديث أسامة بن زيد ﷺ، وعقيل هو ابن أبي طالب.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٥.

(٦) في (م) فأزداد.

(٧) في (ظ) هذين الوجهين.

(٨) البيت في الصحاح (قطط)، وسلف ٢/ ٢٥٥.

(٩) تفسير مجاهد ٢/ ٦١٢.

(١٠) ١٥/ ٣٧٨.

وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي[١] عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قَدَمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ[٢]، بعزَّتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فَضلٌ، حتى يُنشئَ الله لها خَلقاً، فيُسكِنَهُم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم.

وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضعَ الله عليها رِجْله تقول[٣]: قَطْ قَطْ. فهنالَك تمتلئ. ويُزوى[٤] بعضُها إلى بعض، فلا يظلمُ الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإنَّ الله ينشئُ لها خلقاً»[٥].

قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا[٦]: قومٌ يقدِّمهم الله إلى النار، قد سبق في علمه أنَّهم من أهل النار. وكذلك الرِّجْل؛ وهو العددُ الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيتُ رِجْلاً من النَّاس، ورِجْلاً من جَراد[٧]، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من النَّاس وانْزَوَى ... إليهم من الحيِّ اليمانينَ أرْجُلُ
قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ ... على ابْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ[٨]

ويبَيِّنُ هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما في النار بيتٌ، ولا

(١) صحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨): (٣٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وهو عند أحمد (١٣٤٥٧)، وسلف عند تفسير الآيتين (٤٩ - ٥٠) من سورة الشورى.

(٢) قط بمعنى حسب، فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تكسر، وتلحقها نون الوقاية إذا أضيفت، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء. المفهم ٧/ ١٩٦ .

(٣) في (م) و(ظ): يقول لها، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في (م) و(ظ) وينزوي.

(٥) أخرجه أحمد (٨١٦٤)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): (٣٦). وفي البخاري ومسلم تكرار لفظة: قط. ثلاث مرات.

(٦) بعدها في (م) لفظة: فهم.

(٧) ينظر مشكل الحديث لابن فورك ص١٢٦ ، ١٣٠ .

(٨) ذكر البيت الأول منهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .

سلسلةٌ، ولا مِقمَع، ولا تابوت، إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلٌّ واحدٍ من الخزنة ينتظرُ صاحبَه الذي قد عرفَ اسمه وصفته، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمر[١] به وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحد، قال الخَزَنةُ: قَطْ قَطْ، حسبُنا حسبُنا، أي: اكتفينا اكتفينا، وحينئذٍ تنزوي جهنمُ على من فيها وتنطبق، إذ لم يبق أحدٌ ينتظر. فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهدُ لهذا التأويل قولُه في نفس الحديث[٢]: «ولا يزالُ في الجنَّة فضلٌ حتى ينشئَ اللهُ لها خلقاً، فيسكنَهم فضل الجنة».

وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهَّدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى، والحمدُ لله.

وقال النضرُ بن شُمَيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدمَهُ» أي: مَن سَبَقَ في علمه أنَّه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قُرِّبت منهم. وقيل: هذا قبلَ الدخول في الدنيا؛ أي: قُرِّبت من قلوبهم، حين قيل لهم: اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول؛ قُرِّبتْ لهم مواضعُهم فيها فلا تبعد. «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي: منهم، وهذا تأكيد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ويُقال لهم: هذا الجزاء الذي وُعِدتم في الدنيا على ألسنة الرسل.

وقراءة العامة: «تُوعَدُونَ»، بالتاء على الخطاب. وقرأ ابنُ كثير بالياء على الخبر[٣]؛ لأنَّه أتى بعد ذكر المتقين.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوَّاب، أي: رَجَّاع إلى الله عن المعاصي، يذنب[٤] ثم يرجع، ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضَّحَّاكُ وغيره. وقال ابنُ عباس وعطاء:

(١) في (ظ): فإذا استوفى ما أمر، وفي (ف) و(ق): فإذا استوفى منهم ما أمر. والمثبت من (م)، وهو الموافق للمفهم ٧/ ١٩٥-١٩٦ . والكلام منه.

(٢) يعني حديثَ أنس ﷺ السالف قريباً.

(٣) التيسير ص٢٠٢ .

(٤) قوله: يذنب. ليس في (م).

الأوَّابُ المسبِّح؛ من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[١] [سبأ: ١٠]. وقال الحَكَم بن عُتيبة: هو الذاكرُ لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبيُّ ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبَه في الخلوة، فيستغفر الله منها[٢]. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه[٣]. وعنه قال: كنا نحدَّث أنَّ الأوَّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال: سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبتُ في مجلسي هذا[٤].

وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله له ما كان في ذلك المجلس»[٥]. وهكذا كان النبيُّ ﷺ يقول.

وقال بعض العلماء: أنا أُحبُّ أن أقول: أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحبُّ أنْ أقول: وأتوبُ إليك، إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان، واتِّباعُ الحديث أولى.

وقال أبو بكر الورَّاق: هو المتوكِّل على الله في السرَّاء والضرَّاء. وقال القاسم: هو الذي لا يَشتغلُ إلَّا بالله عزَّ وجلَّ.

﴿حَفِيظٌ﴾ قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى رجع[٦] عنها. وقال قتادة: حفيظٌ لِمَا استودَعه الله من حقِّه ونعمته وأُتَمنه عليه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢١/ ٤٥٠ .

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٤٥٠-٤٥١.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .

(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٧) من حديث أبي هريرة. وسيرد ص٥٤٢ من هذا الجزء.

(٦) في (م): يرجع.

(٧) تفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢ .

وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظُ لأمر الله[١].

مجاهد: هو الحافظ لِحقِّ الله تعالى بالاعتراف، ولنعمه بالشكر.

قال الضَّحَّاك: هو الحافظُ لوصيَّة الله تعالى بالقبول.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعاتٍ من أوَّل النهار، كان أوَّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي[٢].

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «مَنْ» في محل خفضٍ على البدل من قوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، أو في موضع الصفة لـ «أوّابٍ». ويجوزُ الرفع على الاستئناف، والخبر «ادْخُلُوها» على تقدير حذف جواب الشرط، والتقدير فيقال لهم: «ادْخُلُوهَا»[٣]. والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدِّي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق الباب[٤].

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: مقبلٍ على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورَّاق: علامةُ المنيب أنْ يكون عارفاً لحرمته، موالياً له، متواضعاً لجلاله، تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أنْ يكون القلبُ المنيبُ القلبَ السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] على ما تقدَّم؛ والله أعلم.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: بسلامةٍ من العذاب. وقيل: بسلامٍ من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامةٍ من زوال النِّعم[٥].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٣-٣٥٤، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٩ عن البزار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٠-٢٣١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

وقال: «ادْخُلُوهَا» وفي أوّل الكلام: «مَنْ خَشِيَ»؛ لأنَّ «مَنْ» تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني: ما تشتهي[١] أنفسهم وتلذُّ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم ممَّا لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيدُ: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف[٢].

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعةٍ إلى النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: «الزيادةُ النظر إلى وجه الله الكريم»[٣].

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: أخبرنا المسعوديُّ، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يَبرزُ لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة، في كثيبٍ من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. قال ابنُ المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم[٤] إلى الجمعة[٥] في الدنيا، وزاد: «فيحدثُ الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك»[٦].

قال يحيى: وسمعت غيرَ المسعودي يزيد فيه: وهو[٧] قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) في (م) و(ف) و(ق): تشتهيه. والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٥/ ٣٥٤. والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣، وفيه سَلْم بن سالم البلخي، وهو ضعيف، ونوح ابن أبي مريم، وهو كذاب. ويغني عنه حديث صهيب ﷺ عند مسلم (١٨١): «إذا دخل أهل الجنة الجنة...» وفي آخره: «فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وسلف الحديثان ١٠/ ٤٨٢-٤٨٣.

(٤) في (م) و(ق): لمسارعتهم. ولم تجود في (ف).

(٥) في النسخ عدا (ق): الجمع.

(٦) هو عند ابن المبارك في الزهد (٤٣٦ ـ زوائد نعيم). وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير (٩١٦٩) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٦) من قول عبد الله بن عتبة. قال ابن فورك في مشكل الحديث: تفرد به المنهال بن عمرو وهو ضعيف. اهـ. قلنا والمسعودي اختلط بأخرة. الميزان ٢/ ٥٧٤.

(٧) لفظة: وهو. ليست في (ف) و(م).

قلت: قوله: «في كَثِيب» يريدُ أهلَ الجنَّة، أي: وهُم على كثيب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنة ينظرون إلى ربِّهم في كلِّ يوم جمعة، على كَثِيبٍ من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[١].

وقيل: إنَّ المزيدَ ما يزوَّجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدريّ مرفوعاً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمَّةٍ هم أشدُّ منهم بطشاً وقوَّة. ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: ساروا فيها طلباً للمهرب[٣]. وقيل: أثَّروا في البلاد؛ قاله ابنُ عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا[٤]. وقال النضر ابن شميل: دوَّروا.

وقال قتادة: طوَّفوا[٥]. وقال المؤرِّج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس[٦]:

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟ وقيل: طوَّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. قال الحارث بن حِلِّزة:

---

(١) ص٤٩٧-٤٩٨ .

(٢) وأخرجه أحمد (١١٧١٥) مطولاً.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) أخرج قولي ابن عباس ومجاهد الطبريُّ ٢١/ ٤٦٠ .

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٥٥ .

(٦) ديوانه ص٩٩ ، وسلف ٥/ ٥٧ .

نَـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ت وجـالـوا فـي الأرض كُـلَّ مـجـالِ[١]

وقرأ الحسنُ وأبو العالية: «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها[٢]. والنَّقْب: هو الخرقُ والدخول في الشيء. وقيل: النقْبُ الطريقُ في الجبل، وكذلك المَنْقَبُ والمَنْقَبة؛ عن ابن السكِّيت. ونَقَبَ الجدارَ نَقْباً، واسم تلك النَّقْبة نَقْبٌ أيضاً[٣]، وجمع النَّقْب النُّقُوب، أي: خرقوا البلاد وساروا في نُقوبها. وقيل: أَثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقُب.

وقرأ السُّلَميُّ ويحيى بن يَعْمَر: «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر[٤]؛ للتهديد[٥] والوعيد، أي: طَوِّفوا البلادَ وسيروا فيها فانظروا هَل مِن الموت مَحِيصٌ أو مهرب؟[٦] ذكره الثعلبي.

وحكى القشيريُّ: «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف[٧]، أي: أَكثَروا السيرَ فيها، حتى نَقِبت دوابُّهم.

الجوهريّ: ونَقِب البعيرُ بالكسر: إذا رَقَّتْ أخفافُه، وأنقبَ الرجلُ، إذا نَقِبَ بعيرُه، ونَقِبَ الخُفُّ الملبوسُ، أي: تخرَّق[٨].

والمَحِيصُ مصدرُ حاص عنه يَحِيص حَيْصاً، وحُيوصًا، ومَحِيصاً، ومَحاصاً، وحَيَصاناً، أي: عَدلَ وحَادَ. يقال: ما عنه مَحِيص، أي: مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ. والانحياصُ

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٧.

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص١٤٤ لابن عباس وعبيد عن أبي عمرو.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٥ عن يحيى بن يعمر.

(٥) في (ظ) و(م): بالتهديد.

(٦) في (ظ) و(م): ومهرب.

(٧) وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١.

(٨) الصحاح (نقب).

مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ، وللأعداء انهزموا[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرةٌ وموعظةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقلٌ يتدبَّر به؛ فكنَى بالقلب عن العقل؛ لأنَّه موضِعه؛ قال معناه مجاهدٌ وغيره. وقيل: لمن كان له حياةٌ ونفسٌ مميِّزةٌ، فعبَّر عن النفس الحيَّة بالقلب؛ لأنَّه وطَنُها ومعدِنُ حياتها؛ كما قال امرؤ القيس[٢]:

أغَـرَّكِ مـنِّـي أنَّ حُـبَّـكِ قـاتـلـي ... وأنَّكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ

وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

وقال يحيى بن معاذ: القلبُ قلبان؛ قلبٌ محتشٍ بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة، لم يَدْرِ ما يصنع، وقلبٌ قد احتشى بأهوال الآخرة، حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الدنيا، لم يَدْرِ ما يصنع، لذهاب قلبه في الآخرة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استمعَ القرآن. تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعك، أي: استمع[٣]. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته[٤].

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب؛ قال الزَّجَّاج[٥]: أي: قلبه حاضرٌ فيما يسمع. وقال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب[٦].

ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنَّها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنَّها في أهل القرآن خاصَّة[٧].

---

(١) الصحاح (حيص).

(٢) في ديوانه ص١٣، والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٩.

(٤) ١٤/ ٢٦.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٤٩.

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ دون ذكر مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[١] وغيرها. واللُّغوبُ: التعبُ والإعياء، تقول منه: لَغَب يَلْغُب بالضم لُغُوباً، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغُوباً، لغةٌ ضعيفةٌ فيه. وألغبته أنا، أي: أنصبته[٢].

قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أنَّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أوَّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحةً، فأكذبهم الله تعالى في ذلك[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ أمرَه بالصبر على ما يقوله المشركون، أي: هَوِّنْ أمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال؛ فهي منسوخة. وقيل: هو ثابتٌ للنبيِّ ﷺ وأمته. وقيل: معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إنَّ الله استراح يوم السبت[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد به الصلواتِ الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس: صلاةُ الصبح، وقبل الغروب: صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً[٥]؛ قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا

---

(١) ٩/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الصحاح (لغب).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٤) ينظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٠-٢١، والكشاف ٤/ ١٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

القمر، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. متفق عليه، واللفظ لمسلم(١).

وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ الْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني: صلاة العشاءين(٢).

وقيل: المراد تسبيحُه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانيُّ وأبو الأحوص(٣).

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ قال: ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب(٤).

وقال ثُمامة بن عبد الله بنِ أنس(٥): كان ذوو الألباب من أصحاب محمدٍ ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة، فإذا أذَّن المؤذن لصلاة المغرب، ابتدروا السَّواريَ فركعوا ركعتين، حتى إنَّ الرجل الغريبَ ليدخلُ المسجدَ فيحسب أنَّ الصلاةَ قد صُلِّيت مِن كثرة من يصلِّيهما(٦).

وقال قتادة: ما أدركتُ أحداً يُصلِّي الركعتينِ قبل المغرب(٧) إلَّا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمي.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣). وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٨ .

(٣) ذكره عن أبي الأحوص الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ .

(٥) ابن مالك الأنصاري، روى عن جده أنس بن مالك والبراء بن عازب رضي الله عنهما، وكان من العلماء الصادقين، ولي قضاء البصرة، وكان يقول: صحبت جدي ثلاثين سنة. السير ٥/ ٢٠٤ . والأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٩٨٢).

(٦) صحيح مسلم (٨٣٧)، والقطعة الأولى منه عند أحمد (١٣٩٨٣)، والبخاري (٥٠٣) (٦٢٥).

(٧) قوله: قبل المغرب ليس في (م)، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كلِّه، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخِرة، قاله ابن زيد[١].

قال ابن العربي: مَن قال: إنه التسبيح في الليل، فيعضده الصحيح: «مَنْ تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله[٢]». وأما مَن قال: إنها الصلاة بالليل، فإنَّ الصلاةَ تسمَّى تسبيحاً لِمَا فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وأما مَن قال: إنها صلاةُ الفجر والعشاء، فلأنَّهما من صلاة الليل، والعشاءُ أوضحه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر وعليٌّ وأبو هريرة والحسن بن عليٍّ والحسن البصريُّ والنَّخَعيُّ والشعبيُّ والأوزاعيُّ والزُّهريُّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقد رفعه ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ركعتان بعد المغرب أدبارُ السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بِتُّ ليلةً عند النبيِّ ﷺ، فصلَّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابن عباس، ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم، وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في (ف) و(م): العلي العظيم. وتمام الحديث كما في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٥ : كفر عنه وغفر له. وبنحوه أخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وسيرد ص٥٤٣ من هذا الجزء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٧ ، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٩-٤٧٢ ، ٦٠٨-٦١٠ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٢-٢٣٣ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ ، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٥)، وسيرد ص٥٤٦ من هذا الجزء.

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلَّم، كتبت صلاتُه في عِلِّيين»[١]. قال أنس: فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: ووقتها ما لم يَغب الشفقُ الأحمر[٢].

وعن ابن عباس أيضاً: هو الوتر[٣]. وقال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات[٤]، ركعتان بعد كلِّ صلاةٍ مكتوبة، قال النَّحاس: والظاهرُ يدلُّ على هذا، إلَّا أنَّ الأَولى اتِّباع الأكثر، وهو صحيحٌ عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ[٥].

وقال أبو الأحوص: هو التسبيحُ في أدبار السجود. قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دُبُر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، اللهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»[٦].

وقيل: إنه منسوخٌ بالفرائض، فلا يجبُ على أحدٍ إلَّا خمسُ صلوات، نَقَلَ ذلك الجماعة[٧].

الخامسة: قرأ نافعٌ وابن كثير وحمزة: «وَإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر، مِن: أدبر الشيءُ إدباراً: إذا وَلَّى. الباقون بفتحها، جمع دُبُر[٨]. وهي قراءة

---

(١) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: هذا موضوع، قاله الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩ ، وقال في اللسان ٢/ ٢٤٨ : خبر باطل.

(٢) قوله: الأحمر، من (م).

(٣) الكشاف ٤/ ١٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٥) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٣-٢٤ .

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٧١٦ ، والحديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٧) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٤ .

(٨) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ .

عليٌّ وابنِ عباس، ومثالُها: طُنُب وأطناب، أو دُبْر، كَقُفْل وأقفال. وقد استعملوه ظرفاً، نحو: جئتك في دبر الصلاة، وفي أدبار الصلاة.

ولا خلاف في آخر «والطُّورِ»: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الآية: ٤٩] أنه بالكسر مصدر[١]، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقُّ من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهي صيحةُ القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل.

الزمخشري[٢]: وقيل: إسرافيلُ ينفخ، وجبريلُ ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمُّوا إلى الحساب، فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداءَ الكفار بالويل والثُّبور من مكان قريب، أي: يسمعُ الجميع فلا يَبْعُدُ أحدٌ عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن، فكأنَّما ينادي في آذانهم. وقيل: المكانُ القريب: صخرةُ بيت المقدس. ويقال: إنَّها وسطُ الأرض، وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، وذكر الأوَّلَ القشيريُّ والزمخشري[٢]، والثانيَ الماوردي[٣]. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة، فينادي بالحشر: أيتها العظامُ البالية، والأوصالُ المتقطِّعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض ربِّ العالمين. قال قتادة:

---

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٣ .

(٢) في الكشاف ٤/ ١٢ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٥ .

هو إسرافيل صاحب الصُّور.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني: صيحةَ البعث. ومعنى «الخُرُوج» الاجتماعُ إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي: يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: نميتُ الأحياءَ ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصُّور؛ إلى بيت المقدس ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّن سهل. وقرأ الكوفيون: «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء «المنادي» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافعٌ وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذفَ الباقون في الحالين[(١)].

قلت: وقد زادت السنَّة هذه الآية بياناً، فروى الترمذيُّ[(٢)] عن معاوية بن حَيْدة، عن النبيِّ ﷺ في حديث ذَكَره، قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: «هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة؛ على أفواهكم الفِدَام، تُوفُون سبعين أمة، أنتم خيرُهم وأكرمهم على الله، وإنَّ أوَّلَ ما يُعْرِب عن أحدكم فَخِذُه»[(٣)] في رواية أخرى[(٤)]: «فَخِذُه وكفُّه».

وخرَّج عليُّ بن معبد عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره: ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل: «انفخْ نفخةَ البعث، فينفخُ، فتخرجُ الأرواحُ كأمثال

---

(١) السبعة ص٦٠٧، والتيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦. ووافق الكوفيين في تخفيف الشين من قوله: «تشقق» أبو عمرو البصري من السبعة.

(٢) في (ق): المهدوي.

(٣) أخرجه الترمذي مفرقاً (٢٤٢٤)، (٣٠٠١)، (٣١٤٣). وأخرجه بلفظ المصنف النسائي في الكبرى (١١٣٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٠٠١١) بنحوه. والفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم). وسلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة يس.

(٤) أخرجها أحمد (٢٠٠٤٣).

النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي وجلالي لَيَرجعنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، ثم تدخلُ في الخياشيم، فتمشي في الأجساد مشيَ السُّمِّ في اللَّديغ، ثم تنشقُّ الأرضُ عنكم، وأنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فتخرجون منها شباباً كلُّكم أبناء ثلاثٍ وثلاثين، واللسانُ يومئذٍ بالسُّريانيَّة» وذَكَر الحديث[١]، وقد ذكرنا جميع هذا وغيرَه في «التذكرة»[٢] مستوفى، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبك وشتمك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ﴾ أي: بمسلَّط تُجْبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخةً بالأمر بالقتال[٣].

والجبَّار من الجبريَّة والتسلُّط، إذ لا يقال جبَّارٌ بمعنى مُجبِر، كما لا يقال: خرَّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري.

النحاس[٤]: وقيل: معنى جبَّار: لست تُجبِرهم، وهو خطأ؛ لأنه لا يكون فَعَّال مِن أفعل. وحكى الثعلبيّ: وقال ثعلب: قد جاءت أحرف: فَعَّال بمعنى مُفعِل، وهي شاذَّة، جبَّار بمعنى مُجبِر، ودرَّاك بمعنى مُدرِك، وسَرَّاع بمعنى مُسرِع، وبَكَّاء بمعنى مُبكٍ، وعدَّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قُرئ: «وما أهديكم إلا سبيلَ الرَّشَّاد»[٥] [غافر:٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد، وهو موسى.

وقيل: هو الله عزَّ وجلَّ[٦].

---

(١) لم نقف على رواية علي بن معبد، وأخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦ المعجم الكبير ٢٥/٢٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨) عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٦٩) عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن كثير في تفسير سورة الأنعام الآية (٧٣): هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً.

(٢) ص٢٠٢ ، ٢٠٧ فما بعد.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٢ ، وزاد المسير ٨/ ٢٦ .

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣٤ .

(٥) هي قراءة معاذ بن جبل ﷺ كما في القراءات الشاذة ص١٣٢ .

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ : يعني بربّ، قاله الضحاك؛ لأن الجبار هو الله تعالى سلطانه.

وكذلك قرئ: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» [الكهف: ٧٩] يعني: ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجيّ: تقول العرب: سيف سَقّاط بمعنى مُسقِط.

وقيل: «بِجَبَّارٍ»: بمسيطر كما في الغاشية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الآية: ٢٢].

وقال الفرَّاء[١]: سمعتُ من العرب مَن يقول: جَبَره على الأمر، أي: قهره، فالجبَّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبَّار من قولهم: جبرته على الأمر، أي: أجبرته. وهي لغة كنانية، وهما لغتان.

الجوهري[٢]: وأجبرته على الأمر: أكرهته عليه، وأجبرته ـ أيضاً ـ نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرتُه، إذا نسبتَه إلى الكفر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددتُه لمن عصاني من العذاب[٣]؛ فالوعيد العذاب، والوعد الثواب، قال الشاعر[٤]:

وإنـيَ إن[٥] أوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ لَـمُـخْـلِفُ إيعادي ومُـنـجـزُ مـوعـدي

وكان قتادةُ يقول: اللَّهمَّ اجعلْنا ممن يخافُ وعيدَكَ ويرجو موعدَكَ[٦].

وأثبت الياءَ في «وَعِيدِي» يعقوبُ في الحالين، وأثبتها ورشٌ في الوصلِ دون الوقف، وحذفَ الباقون في الحالين[٧]. والله أعلم.

تَّم تفسيرُ سورة «ق» والحمدُ لله.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٨١.

(٢) في الصحاح (جبر).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٨.

(٤) هو عامر بن الطفيل، والبيت في ديوانه ص٥٨.

(٥) المثبت من (ق)، وهو الموافق للديوان وفي غير (ق): وإن. وسلف ٥/ ٤٧٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٩.

(٧) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦.

تفسير سورة ق

وهى مكية.

وهذه السورة هى أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. وأما ما يقوله العامة(١): إنه من (عَمّ) فلا أصل له، ولم يقله أحد من العلماء المعتبرين(٢) فيما نعلم. والدليل على أن هذه السورة هى أول المفصل ما رواه أبو داود فى سننه، باب «تحزيب القرآن» ثم قال:

حدثنا مُسَدَّد، حدثنا قُرَّان بن تمام، (ح) وحدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد سليمان بن حيان ـ وهذا لفظه ـ عن عبد الله بن عبد الرحمن بن يعلى، عن عثمان بن عبد الله ابن أوس، عن جده ـ قال عبد الله بن سعيد: حدثنيه أوس بن حذيفة ـ ثم اتفقا. قال: قدمنا على رسول الله ﷺ فى وفد ثقيف، قال: فنزلت الأحلاف على المغيرة بن شعبة، وأنزل رسول الله ﷺ بنى مالك فى قُبة له ـ قال مسَدَّد: وكان فى الوفد الذين قدموا على رسول الله ﷺ من ثقيف، قال: كان رسول الله [ﷺ](٣) كل ليلة يأتينا بعد العشاء يحدثنا ـ قال أبو سعيد: قائما على رجليه حتى يراوح بين رجليه من طول القيام ـ فأكثر ما يحدثنا ما لقى من قومه قريش، ثم يقول: لا سواء(٤) وكنا مستضعفين مستذلين ـ قال مُسدَّد: بمكة ـ فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب بيننا وبينهم، ندال عليهم ويدالون علينا . فلما كانت ليلة أبطأ (٥) عن الوقت الذى كان يأتينا فيه، فقلنا: لقد أبطأت عنا(٦) الليلة ! قال: «إنه طرأ على حزبى من القرآن، فكرهت أن أجيء حتى أتمه». قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تحزبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده.

ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة، عن أبى خالد الأحمر، به. ورواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدى، عن عبد الله بن عبد الرحمن، هو ابن(٧) يعلى الطائفى به(٨).

إذا علم هذا، فإذا عددت ثمانيا وأربعين سورة، فالتى بعدهن سورة «ق». بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء. وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية،

(١) فى م، أ: «العوام». (٢) فى أ: «المفسرين». (٣) زيادة من م، أ.
(٤) فى م، أ: « لا أساء». (٥) فى م: «أبطأ علينا». (٦) فى أ: «علينا».
(٧) فى أ: «أبو».
(٨) سنن أبى داود برقم (١٣٩٣) ، وسنن ابن ماجه برقم (١٣٤٥)، والمسند (٤/ ٩).

والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل كما قاله الصحابة، رضى الله عنهم. فتعين أن أوله سورة «ق» وهو الذى قلناه[١]، ولله الحمد والمنة.

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، حدثنا مالك، عن ضَمْرة بن سعيد، عن عُبَيد الله[٢] بن عبد الله؛ أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثى: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ فى العيد؟ قال: بقاف، واقتربت.

ورواه مسلم وأهل السنن الأربعة، من حديث مالك، به[٣]. وفى رواية لمسلم عن فليح[٤] عن ضمرة، عن عبيد الله[٥]، عن أبى واقد قال: سألنى عمر، فذكره[٦].

حديث آخر: وقال أحمد: حدثنا يعقوب، حدثنا أبى، عن ابن إسحاق، حدثنى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، عن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد[٧] بن زُرَارة، عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تَنُّورنا وتنور النبى ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس.

رواه مسلم [أيضا][٨] من حديث ابن إسحاق، به[٩].

وقال أبو داود: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، عن خبيب[١٠]، عن عبد الله بن محمد بن معن، عن ابنة الحارث بن النعمان قالت: ما حفظت «ق» إلا من فِىِّ رسول الله ﷺ، يخطب بها كل جمعة. قالت: وكان تنورنا وتنور رسول الله ﷺ واحداً.

وكذا رواه مسلم، والنسائى، وابن ماجه، من حديث شعبة، به[١١].

والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة فى المجامع الكبار، كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب.

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ⑤ ﴾.

(١) فى م: «قدمناه». (٢) فى م: «عبد الله».
(٣) المسند (٥/ ٢١٧)، وصحيح مسلم برقم (٨٩١)، وسنن أبى داود برقم (١١٥٤)، وسنن الترمذى برقم (٥٣٤)، وسنن النسائى (٣/ ١٨٣)، وسنن ابن ماجه برقم (١٢٨٢).
(٤) فى م، أ: «مالك». (٥) فى م: «عبد الله».
(٦) صحيح مسلم برقم (٨٩١).
(٧) فى م، أ: «أسعد». (٨) زيادة من م.
(٩) المسند (٦/ ٤٣٥) وصحيح مسلم برقم (٨٧٣).
(١٠) فى م، أ: «حبيب».
(١١) سنن أبى داود برقم (١١٠٠)، وصحيح مسلم برقم (٨٧٣)، وسنن النسائى (٢/ ١٥٧) لكنه ليس من هذا الطريق.

﴿قٓ﴾: حرف من حروف الهجاء المذكورة[(١)] فى أوائل السور، كقوله: (ص، ن، الم، حم، طس) ونحو ذلك، قاله مجاهد وغيره. وقد أسلفنا الكلام عليها، فى أول «سورة البقرة» بما أغنى عن إعادته.

وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا ﴿قٓ﴾: جبل محيط بجميع الأرض، يقال له جبل قاف. وكأن هذا ـ والله أعلم ـ من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم بعض الناس، لما رأى من جواز الرواية عنهم فيما[(٢)] لا يصدق ولا يكذب. وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم، يلبسون به على الناس أمر دينهم، كما افترى فى هذه الأمة ـ مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها ـ أحاديث عن النبى ﷺ وما بالعهد من قدم، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى، وقلة الحفاظ النقاد فيهم، وشربهم الخمور[(٣)]، وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه، وتبديل كتب الله وآياته! وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله: «وحدثوا عن بنى إسرائيل، ولا حرج» فيما قد يجوزه العقل، فأما فيما تُحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظنون كذبه، فليس من هذا القبيل ـ والله أعلم.

وقد أكثر كثير من السلف من المفسرين، وكذا طائفة كثيرة من الخلف، من الحكاية عن كتب أهل الكتاب فى تفسير القرآن المجيد، وليس بهم احتياج إلى أخبارهم، ولله الحمد والمنة، حتى إن الإمام أبا محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى، رحمه الله، أورد هاهنا أثراً غريباً لا يصح سنده عن ابن عباس فقال:

حدثنا أبى قال: حدثت عن محمد بن إسماعيل المخزومى: حدثنا ليث بن أبى سليم، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: خلق الله من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً، ثم خلق من وراء ذلك جبلا يقال له «ق» السماء الدنيا مرفوفة عليه. ثم خلق الله من وراء ذلك الجبل أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات. ثم خلق من وراء ذلك بحرا محيطاً بها، ثم خلق من وراء ذلك جبلاً يقال له «ق» السماء الثانية مرفوفة عليه، حتى عد سبع أرضين، وسبعة أبحر، وسبعة أجبل، وسبع سموات. قال: وذلك قوله: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾[لقمان: ٢٧] .

فإسناد هذا الأثر فيه انقطاع، والذى رواه ابن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله:﴿قٓ﴾ قال: هو اسم من أسماء الله، عز وجل.

والذى ثبت عن مجاهد: أنه حرف من حروف الهجاء، كقوله: (ص، ن، حم، طس، الم) ونحو ذلك. فهذه تُبْعِد ما تقدم عن ابن عباس.

وقيل: المراد «قضِى الأمر واللهِ»، وأن قوله: ﴿قٓ﴾ دلت على المحذوف من بقية الكلم[(٤)] كقول

---

(١) فى م: «الذى تقدم ذكرها».
(٢) فى م: «مما».
(٣) فى أ: «الخمر».
(٤) فى م، أ: «الكلمة».

الشاعر:

قلت لها: قفى فقالت: قاف

وفى هذا التفسير نظر؛ لأن الحذف فى الكلام إنما يكون إذا دل دليل عليه، ومن أين يفهم هذا من ذكر هذا الحرف؟

وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أى: الكريم العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

واختلفوا فى جواب القسم ما هو؟ فحكى ابن جرير عن بعض النحاة أنه قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

وفى هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة، وإثبات المعاد، وتقريره وتحقيقه وإن لم يكن القسم متلقى لفظاً، وهذا كثير فى أقسام القرآن كما تقدم فى قوله: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ. بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١، ٢]، وهكذا قال هاهنا: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أى: تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢] أى: وليس هذا بعجيب؛ فإن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس.

ثم قال مخبراً عنهم فى عجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾؟ أى: يقولون: أئذا متنا وبلينا، وتقطعت الأوصال منا، وصرنا ترابا، كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أى: بعيد الوقوع، ومعنى هذا: أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه، قال الله تعالى راداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من أجسادهم فى البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان؟ وأين ذهبت؟ وإلى أين صارت؟ ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أى: حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب أيضاً فيه كل الأشياء مضبوطة.

قال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى: ما تأكل من لحومهم وأبشارهم، وعظامهم وأشعارهم. وكذا قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

ثم بين تعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أى: وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل. والمريج: المختلف المضطرب الملتبس المنكر خلاله، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ. يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ .

يقول تعالى منبها للعباد على قدرته العظيمة التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه: ﴿**أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا**﴾؟ أى: بالمصابيح، ﴿**وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ**﴾. قال مجاهد: يعنى من شقوق. وقال غيره: فتوق. وقال غيره: من صدوع. والمعنى متقارب، كقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ. ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ**﴾ [الملك: ٣، ٤] أى: كليل، أى: عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

وقوله: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا**﴾ أى: وسعناها وفرشناها، ﴿**وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ**﴾ وهى: الجبال؛ لئلا تميد بأهلها وتضطرب؛ فإنها مُقَرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها، ﴿**وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾ أى: من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع، ﴿**وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقوله: ﴿**بَهِيجٍ**﴾ أى: حسن نضر، ﴿**تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ أى: ومشاهدة خلق السموات [والأرض][1] وما جعل [الله][2] فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أى: خاضع خائف وجل رَجَّاع إلى الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا**﴾ أى: نافعاً، ﴿**فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ**﴾ أى: حدائق من بساتين ونحوها، ﴿**وَحَبَّ الْحَصِيدِ**﴾ وهو: الزرع الذى يراد لحبه وادخاره.

﴿**وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ**﴾ أى: طوالا شاهقات. وقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم: الباسقات الطوال. ﴿**لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ**﴾ أى: منضود. ﴿**رِزْقًا لِّلْعِبَادِ**﴾ أى: للخلق، ﴿**وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا**﴾، وهى الأرض التى كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، من أزاهير وغير ذلك، مما يحار الطرف فى[3] حسنها، وذلك بعد ما كانت لا نبات بها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيى الله الموتى. وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث[4]، كقوله تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾ [غافر: ٥٧]، وقوله: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً**[5] **فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [فصلت: ٣٩].

---

(١) زيادة من م، أ. (٢) زيادة من أ. (٣) فى م: «من».
(٤) فى م، أ: «البعث». (٥) فى م: «هامدة» وهو خطأ.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) ﴾ .

يقول تعالى متهددا لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم، من النقمات والعذاب الأليم فى الدنيا، كقوم نوح وما عذبهم الله به من الغرق العام[1] لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس وقد تقدمت قصتهم فى سورة «الفرقان»[2] ﴿وَثَمُودُ. وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾، وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة؛ بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق، ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام، ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو اليمانى. وقد ذكرنا من شأنه فى سورة الدخان بما أغنى عن إعادته هاهنا ولله الحمد.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أى: كل من هذه الأمم وهؤلاء القرون كذب رسوله[3]، ومن كذب رسولا[4] فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾[الشعراء: ١٠٥]، وإنما جاءهم رسول واحد، فهم فى نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم، ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أى: فحق عليهم ما أوعدهم الله، على التكذيب من العذاب والنكال فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

وقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ﴾ أى: أفأعجزنا[5] ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى: أن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل منه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧] ، وقال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقد تقدم فى الصحيح: «يقول الله تعالى: يؤذينى ابن آدم، يقول: لن يعيدنى كما بدأنى، وليس أول الخلق بأهون على من إعادته»[6].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ

(١) فى م: «العظيم».
(٢) تقدم ذلك فى سورة الفرقان عند الآية رقم (٣٨).
(٣) فى أ: «رسولهم». (٤) فى م: «برسول». (٥) فى م: «فأعجزنا».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٩٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه، وعلمه محيط بجميع أموره، حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر. وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله [١] تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»[٢].

وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعنى: ملائكته تعالى أقربُ إلى الإنسان من حبل وريده[٣] إليه. ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع، تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾، كما قال فى المحتضر: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]، يعنى ملائكته. وكما قال [تعالى][٤]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله، عز وجل. وكذلك[٥] الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه بإقدار[٦] الله لهم على ذلك، فالملك لَمّة فى الإنسان كما أن للشيطان لمة وكذلك: «الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعنى: الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان. ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أى: مترصد[٧] ﴿ مَا يَلْفِظُ ﴾ أى: ابن آدم ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ أى: ما يتكلم بكلمة[٨] ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أى: إلا ولها من يراقبها معتد[٩] لذلك يكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ. كِرَامًا كَاتِبِينَ. يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ـ ١٢].

وقد اختلف العلماء: هل يكتب الملك كل شىء من الكلام؟ وهو قول الحسن وقتادة، أو إنما يكتب ما فيه ثواب وعقاب كما هو قول ابن عباس، على قولين، وظاهر الآية الأول، لعموم قوله: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا محمد بن عمرو بن علقمة الليثى، عن أبيه، عن جده علقمة، عن بلال بن الحارث المزنى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه[١٠]. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله عليه بها[١١] سخطه إلى يوم يلقاه». قال: فكان علقمة يقول: كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث.

ورواه الترمذى والنسائى وابن ماجه، من حديث محمد بن عمرو به[١٢]. وقال الترمذى: حسن

---

(١) فى أ: «إن الله تعالى».
(٢) صحيح البخارى برقم (٥٢٦٩) ، وصحيح مسلم برقم (١٢٧).
(٣) فى أ: «الوريد». (٤) زيادة من م، أ. (٥) فى أ: «ولذلك».
(٦) فى م: «باقتدار». (٧) فى م: «مرصد». (٨) فى م: «بكلام».
(٩) فى م: « معد». (١٠) فى أ: «القيامة». (١١) فى م: «له بها عليه».
(١٢) المسند (٣/ ٤٦٩) وسنن الترمذى برقم (٢٣١٩)، والنسائى فى السنن الكبرى، كما فى تحفة الأشراف (٢/ ١٠٣)، وسنن ابن ماجه برقم (٣٩٦٩).

صحيح. وله شاهد(١) فى الصحيح(٢).

وقال الأحنف بن قيس: صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، فإن أصاب العبد خطيئة قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها. رواه ابن أبى حاتم.

وقال الحسن البصرى وتلا هذه الآية: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾: يا ابن آدم، بُسطت لك صحيفة، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك، والآخر عن شمالك، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل(٣) ما شئت، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك، حتى تخرج يوم القيامة، فعند ذلك يقول: ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾. [الإسراء:١٣، ١٤] ثم يقول: عدل ـ والله ـ فيك من جعلك حسيب نفسك.

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى إنه ليكتب قوله: «أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت»، حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله، فأقر منه ما كان فيه من خير أو شربت، وألقى سائره، وذلك قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩]، وذكر عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: يكتب الملك كل شىء حتى الأنين. فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله(٤).

وقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، يقول تعالى: وجاءت ـ أيها الإنسان ـ سكرة الموت بالحق، أى: كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾أى: هذا هو الذى كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

وقد اختلف المفسرون فى المخاطب بقوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، فالصحيح أن المخاطب بذلك الإنسان من حيث هو. وقيل: الكافر، وقيل :غير ذلك.

وقال أبو بكر بن أبى الدنيا: حدثنا إبراهيم بن زياد ـ سَبَلان ـ أخبرنا عَبَّاد بن عَبَّاد عن محمد بن عمرو بن علقمة، عن أبيه، عن جده علقمة بن وقاص(٥) أن عائشة، رضى الله عنها، قالت: حضرت أبى وهو يموت، وأنا جالسة عند رأسه، فأخذته غشيةٌ فتمثلت ببيت من الشعر:

من لا يزال دمعه مُقَنَّعا ... فإنه لابد مرةً(٦) مدفوق(٧)

---

(١) فى أ: «شواهد».
(٢) شاهده حديث أبى هريرة رضى الله عنه أخرجه البخارى فى صحيحه برقم (٦٤٧٨).
(٣) فى أ: « فاملل».
(٤) رواه صالح بن الإمام أحمد فى سيرة أبيه.
(٥) فى أ: «أبى وقاص» وهو خطأ. انظر ترجمته فى تهذيب التهذيب .
(٦) فى أ: «من دمعه».
(٧) البيت فى النهاية لابن الأثير (٤/ ١١٥) وعنده: لابد يوما أن يهراق.

قالت: فرفع رأسه فقال: يا بنية، ليس كذلك ولكن كما قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ .

وحدثنا[١] خلف بن هشام؛ حدثنا أبو شهاب [الخياط][٢]، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن البهى قال: لما أن ثقل أبو بكر[٣]، رضى الله عنه ،جاءت عائشة، رضى الله عنها، فتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر[٤]

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك، ولكن قولى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ . وقد أوردت لهذا الأثر طرقا [كثيرة][٥] فى سيرة الصديق عند ذكر وفاته، رضى الله عنه.

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ: لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول: «سبحان الله! إن للموت لسكرات». وفى قوله: ﴿ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾قولان:

أحدهما: أن «ما» هاهنا موصولة، أى: الذى كنت منه تحيد ـ بمعنى: تبتعد وتنأى وتفر ـ قد حل بك ونزل بساحتك.

والقول الثانى: أن «ما» نافية بمعنى: ذلك ما كنت تقدر على الفرار منه ولا الحيد عنه.

وقد قال الطبرانى فى المعجم الكبير: حدثنا محمد بن على الصائغ المكى، حدثنا حفص بن عمر الحدى، حدثنا معاذ بن محمد الهُذَلى، عن يونس بن عبيد، عن الحسن،عن سَمُرة قال: قال رسول الله ﷺ:«مثل الذى يفر من الموت مثل الثعلب، تطلبه الأرض بِدَيْن، فجاء يسعى حتى إذا أعيى وأسهر دخل جحره، فقالت له الأرض: يا ثعلب، دينى. فخرج وله حصاص، فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه ومات»[٦].

ومضمون هذا المثل: كما لا انفكاك له ولا محيد عن الأرض كذلك الإنسان لا محيد له عن الموت.

وقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾. قد تقدم الكلام على حديث النفخ فى الصور والفزع والصعق والبعث[٧]، وذلك يوم القيامة. وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له». قالوا:يا رسول الله كيف نقول؟ قال:«قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل». فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل.

---

(١) فى أ: «وحديث». (٢)زيادة من م، أ. (٣) فى م: «أبا بكر».
(٤) البيت لحاتم الطائى، وهو فى ديوانه ص (٥٠) أ.هـ مستفادا من طبعة الشعب. (٥) زيادة من م، أ.
(٦) المعجم الكبير (٧/ ٢٢٢)، وقال الهيثمى فى المجمع (٢/ ٣٢٠): «فيه معاذ بن محمد الهذلى، قال العقيلى: لا يتابع على رفع حديثه».
(٧) فى م: «للفزع وللصعق وللبعث».

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله. هذا هو الظاهر من الآية الكريمة. وهو اختيار ابن جرير، ثم روى من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن يحيي بن رافع ـ مولى لثقيف ـ قال: سمعت عثمان بن عفان يخطب[١]، فقرأ هذه الآية: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، فقال: سائق يسوقها إلى الله، وشاهد يشهد عليها بما عملت. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وابن زيد.

وقال مُطَرِّف، عن أبى جعفر ـ مولى أشجع ـ عن أبى هريرة: السائق: الملك، والشهيد: العمل. وكذا قال الضحاك والسدى.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: السائق من الملائكة، والشهيد: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه. وبه قال الضحاك بن مُزاحِم أيضا.

وحكى ابن جرير ثلاثة أقوال فى المراد بهذا الخطاب فى قوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أحدها: أن المراد بذلك الكافر. رواه على بن أبى طلحة، عن ابن عباس. وبه يقول الضحاك بن مزاحم وصالح بن كيسان.

والثانى: أن المراد بذلك كل أحد من بر وفاجر؛ لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام. وهذا اختيار ابن جرير، ونقله عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس.

والثالث: أن المخاطب بذلك النبى ﷺ. وبه يقول زيد بن أسلم، وابنه. والمعنى على قولهما: لقد كنت فى غفلة من هذا الشأن[٢] قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك، فبصرك اليوم حديد.

والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو، والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعنى: من هذا اليوم، ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أى: قوى؛ لأن كل واحد يوم القيامة يكون مستبصرا، حتى الكفار فى الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة، لكن لا ينفعهم ذلك. قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٣) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٤) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا

(١) فى م: «خطب». (٢) فى أ: «القرآن».

أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم: أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل[١]، ويقول: ﴿**هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ**﴾ أى: معتد[٢] محضر[٣] بلا زيادة ولا نقصان.

وقال مجاهد: هذا كلام الملك السائق يقول: هذا ابن آدم الذى وكلتنى به، قد أحضرته.

وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة.

فعند ذلك يحكم الله، سبحانه وتعالى، فى الخليقة بالعدل فيقول: ﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾.

وقد اختلف النحاة فى قوله: ﴿**أَلْقِيَا**﴾، فقال بعضهم: هى لغة لبعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية، كما روى عن الحجاج أنه كان يقول: يا حرسى، اضربا عنقه، ومما أنشد ابن جرير على هذه اللغة قول الشاعر:

فإن تزجرانى ـ يا ابن عفان ـ أنزجر وإن تتركانى أحم عرضا ممنعا[٤]

وقيل: بل هى نون التوكيد، سهلت إلى الألف. وهذا بعيد؛ لأن هذا إنما يكون فى الوقف، والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد،فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه فى نار جهنم وبئس المصير.

﴿**أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ**﴾ أى: كثير الكفر والتكذيب بالحق، ﴿**عَنِيدٍ**﴾ : معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك. ﴿**مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ**﴾ أى: لا يؤدى ما عليه من الحقوق، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة، ﴿**مُعْتَدٍ**﴾ أى: فيما ينفقه ويصرفه، يتجاوز فيه الحد.

وقال قتادة: معتد فى منطقه وسيرته وأمره.

﴿**مُّرِيبٍ**﴾ أى: شاك فى أمره، مريب لمن نظر فى أمره ﴿**الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ**﴾ أى: أشرك بالله فعبد معه غيره، ﴿**فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ**﴾ . وقد تقدم فى الحديث: أن عنقاً من النار يبرز للخلائق فينادى بصوت يسمع الخلائق: إنى وكلت بثلاثة، بكل جبار عنيد، ومن جعل مع الله إلها آخر، وبالمصورين ثم تلوى[٥] عليهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية ـ هو ابن هشام ـ حدثنا شيبان، عن فراس، عن عطية[٦]، عن أبى سعيد الخدرى عن نبى الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة:

(١) فى أ: «بما عمل». (٢) فى م، أ: «معد». (٣) فى أ: «محصى».
(٤) تفسير الطبرى (٢٦/١٠٣).
(٥) فى م، أ: «تنطوى».
(٦) فى م: «حدثنا شيبان هو ابن هشام عن فراس عن عطية».

بكل جبار، ومن جعل مع الله إلها آخر، ومن قتل نفسا بغير نفس[١]. فتنطوى عليهم، فتقذفهم فى غمرات جهنم»[٢].

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾: قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: هو الشيطان الذى وكل به: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: يقول عن الإنسان الذى قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه، فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ أى: ما أضللته، ﴿وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: بل كان هو فى نفسه ضالا قابلا للباطل معانداً للحق. كما أخبر تعالى فى الآية الأخرى فى قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقوله: ﴿قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول[٣] الرب عز وجل للإنسى وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدى الحق فيقول الإنسى: يا رب، هذا أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى. ويقول الشيطان: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أى: عن منهج الحق. فيقول الرب عز وجل لهما: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أى: عندى، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أى: قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾: قال مجاهد: يعنى قد قضيت ما أنا قاض، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أى: لست أعذب أحدا بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه، بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾.

يخبر تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن[٤] يأمر به إليها، ويلقى وهى تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أى: هل بقى شىء تزيدونى؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث:

قال البخارى عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبد الله بن أبى الأسود، حدثنا حَرَمى بن عُمَارة حدثنا شعبة، عن قتادة، عن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: «يُلقَى فى النار، وتقول: هل من مزيد، حتى يضع قدمه فيها، فتقول: قط قط»[٥].

---

(١) فى م: «حق».

(٢) المسند (٣/ ٤٠).

(٣) فى م: «يقوله».

(٤) فى م: «من».

(٥) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٨).

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الوهاب، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكَرَمِك ولا يزال فى الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقا آخر فيسكنهم فى فضول[1] الجنة»[2].

ثم رواه مسلم من حديث قتادة، بنحوه[3]. ورواه أبان العطار وسليمان التيمى، عن قتادة، بنحوه[4].

حديث آخر: قال[5] البخارى: حدثنا محمد بن موسى القطان، حدثنا أبو سفيان الحميرى سعيد ابن يحيى بن مهدى، حدثنا عَوْف، عن محمد، عن أبى هريرة ـ رفعه، وأكثر ما كان يوقفه أبو سفيان ـ: «يقال لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، فيضع الرب، عز وجل، قدمه عليها[6]، فتقول: قط قط»[7].

رواه أيوب وهشام بن حسان عن محمد بن سيرين، به[8].

طريق أخرى: قال[9] البخارى: وحدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن همام[10]، عن أبى هريرة قال: قال النبى ﷺ: «تحاجت الجنة والنار، فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم. قال الله، عز وجل، للجنة: أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ ويزوى[11] بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا آخر»[12].

حديث آخر: قال[13] مسلم فى صحيحه: حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا جرير، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجت الجنة والنار، فقالت النار: فىَّ الجبارون والمتكبرون. وقالت الجنة: فىّ ضعفاء الناس ومساكينهم. فقضى بينهما، فقال للجنة: إنما أنت رحمتى، أرحم بك من أشاء من عبادى. وقال للنار: إنما أنت عذابى، أعذب بك من

---

(١) فى أ: «فضل».
(٢) المسند (٣/ ٢٣٤).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٨).
(٤) أخرجه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٦).
(٥) فى م: «وقال».
(٦) فى م: «عليها قدمه».
(٧) صحيح البخارى برقم (٤٨٤٩).
(٨) رواه أحمد فى مسنده (٢/ ٥٠٧) من طريق هشام بن حسان به. ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٦/ ١٠٧) من طريق أيوب وهشام بن حسان به.
(٩) فى م: «وقال».
(١٠) فى م: «همام بن منبه».
(١١) فى أ: «ينزوى».
(١٢) صحيح البخارى برقم (٤٨٥٠).
(١٣) فى م: «وقال».

أشاء من عبادى، ولكل واحدة منكما ملؤها» انفرد به مسلم دون البخارى[١] من هذا الوجه. والله، سبحانه وتعالى، أعلم.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى، عن أبى سعيد بأبسط من هذا السياق فقال:

حدثنا حسن وروح قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عطاء بن السائب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «افتخرت الجنة والنار، فقالت النار: يا رب، يدخلنى الجبابرة والمتكبرون والملوك والأشراف. وقالت الجنة: أى رب، يدخلنى الضعفاء والفقراء والمساكين. فيقول الله، عز وجل، للنار: أنت عذابى، أصيب بك من أشاء. وقال للجنة: أنت رحمتى، وسعت كل شىء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فيلقى فى النار أهلها فتقول: هل من مزيد؟ قال: ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ ويلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يأتيها[٢] عز وجل، فيضع قدمه عليها، فتزوى وتقول: قدنى، قدنى. وأما الجنة فيبقى فيها ما شاء الله أن يبقى، فينشئ الله لها خلقا ما يشاء»[٣].

حديث آخر: وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده: حدثنا عقبة بن مُكْرَم، حدثنا يونس، حدثنا عبد الغفار بن القاسم، عن عُدى بن ثابت، عن زرٍّ بن حُبَيْش، عن أبى بن كعب؛ أن رسول الله ﷺ قال: «يعرفنى الله، عز وجل، نفسه يوم القيامة، فأسجد سجدة يرضى بها عنى، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى، ثم يؤذن لى فى الكلام، ثم تمر أمتى على الصراط ـ مضروب بين ظهرانى جهنم ـ فيمرون أسرع من الطرف والسهم، وأسرع من أجود الخيل، حتى يخرج الرجل منها يحبو، وهى الأعمال. وجهنم تسأل المزيد، حتى يضع فيها قدمه، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول: قط قط! وأنا على الحوض». قيل: وما الحوض يا رسول الله؟ قال: «والذى نفسى بيده، إن شرابه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وأبرد من الثلج، وأطيب ريحا من المسك. وآنيته أكثر من عدد النجوم، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبدا، ولا يصرف فيروى أبدا»[٤]. وهذا القول هو اختيار ابن جرير.

وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو يحيى الحِمَّانى[٥] عن نضر الخزاز، عن عكرمة، عن ابن عباس، ﴿ **يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ قال: ما امتلأت، قال: تقول: وهل فى من مكان يزاد فى.

وكذا روى الحكم بن أبان عن عكرمة: ﴿ **وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ** ﴾: وهل فى مدخل واحد، قد

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٨٤٧).

(٢) فى م: «يأتيها ربها».

(٣) المسند (٣/١٣).

(٤) ورواه ابن أبى عاصم فى السنة برقم (٧٩٠) من طريق عقبة بن مكرم به.

وقال الألبانى: «إسناده موضوع، آفته عبد الغفار بن القاسم، وهو أبو مريم الأنصارى، كان يضع الحديث كما قال ابن المدينى وأبو داود».

(٥) فى م: «الحمان».

امتلأت.

[و][١] قال الوليد بن مسلم، عن يزيد بن أبى مريم أنه سمع مجاهداً يقول: لا يزال يقذف فيها حتى تقول: قد امتلأت فتقول: هل [فىَّ][٢] من مزيد؟ وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو هذا.

فعند هؤلاء أن قوله تعالى: ﴿هَلِ امْتَلأْتِ﴾، إنما هو بعد ما يضع عليها قدمه، فتنزوى وتقول حينئذ: هل بقى فى [من] [٣]مزيد؟ يسع شيئاً.

قال العوفى، عن ابن عباس: وذلك حين لا يبقى فيها موضع [يسع][٤] إبرة. فالله[٥] أعلم.

وقوله: ﴿وَأُزْلِفَت الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: قال قتادة، وأبو مالك، والسدى: ﴿أُزْلِفَت﴾ أدنيت وقربت من المتقين، ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾، وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد؛ لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آت آت.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ[٦]﴾ أى: رجاع تائب مقلع، ﴿حَفِيظٍ﴾أى: يحفظ العهد فلا ينقضه و[لا][٧] ينكثه.

وقال عبيد بن عمير: الأواب: الحفيظ الذى لا يجلس مجلساً [فيقوم][٨]حتى يستغفر الله، عز وجل.

﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ أى: من خاف الله فى سره حيث لا يراه أحد إلا الله. كقوله [عليه السلام][٩] :«ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه».

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أى: ولقى الله يوم القيامة بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه.

﴿ ادْخُلُوهَا﴾ أى: الجنة ﴿ بِسَلامٍ﴾، قال قتادة: سلموا من عذاب الله، وسلم عليهم ملائكة الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أى: يخلدون فى الجنة فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبغون عنها حولا.

وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أى: مهما اختاروا وجدوا، من أى أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم.

قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا عمرو بن عثمان، حدثنا بَقِيَّة، عن بَحِير[١٠] بن سعد، عن خالد بن مَعْدان، عن كثير بن مُرَّة قال: من المزيد أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول: ماذا تريدون فأمطره لكم؟ فلا يدعون بشىء إلا أمطرتهم. قال كثير: لئن أشهدنى الله ذلك لأقولن: أمطرينا جوارى مزينات.

(١ ـ ٣) زيادة من م.
(٤) زيادة من م، أ.
(٥) فى م: «والله».
(٦) فى أ: ﴿أواب حفيظ﴾.
(٧) زيادة من م.
(٨) زيادة من م، أ.
(٩) زيادة من م، أ.
(١٠) فى م: «يحيى».

وفى الحديث عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لتشتهى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشوياً»(١).

وقال الإمام أحمد: حدثنا على بن عبد الله، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن عامر الأحول، عن أبى الصديق(٢)، عن أبى سعيد الخدرى؛ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اشتهى المؤمن الولد فى الجنة، كان حمله ووضعه وسِنّه فى ساعة واحدة».

ورواه الترمذى وابن ماجه عن بُنْدار، عن معاذ بن هشام، به(٣). وقال الترمذى: حسن غريب، وزاد «كما يشتهى».

وقوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]. وقد تقدم فى صحيح مسلم عن صُهَيب بن سنان الرومى: أنها النظر إلى وجه الله الكريم. وقد روى البزار وابن أبى حاتم، من حديث شريك القاضى، عن عثمان بن عمير أبى اليقظان، عن أنس بن مالك فى قوله عز وجل: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾قال: يظهر لهم الرب، عز وجل، فى كل جمعة(٤).

وقد رواه الإمام أبو عبد الله الشافعى مرفوعاً فقال فى مسنده: أخبرنا إبراهيم بن محمد، حدثنى موسى بن عبيدة، حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحاق بن طلحة، عن عبد الله بن عبيد بن عمير(٥) أنه سمع أنس بن مالك يقول: أتى جبرائيل بمرآة بيضاء فيها نكتة إلى رسول الله، فقال النبى (٦) ﷺ: «ما هذه؟». فقال: هذه الجمعة، فُضِّلتَ بها أنت وأمتك، فالناس لكم فيها تبع، اليهود والنصارى، ولكم فيها خير، ولكم فيها ساعة لا يوافقها مؤمن(٧) يدعو الله بخير إلا استجيب له، وهو عندنا يوم المزيد. قال النبى ﷺ:«يا جبريل، وما يوم المزيد؟». قال: إن ربك اتخذ فى الفردوس واديا أفيح فيه كثب المسك، فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله ما شاء(٨) من ملائكته، وحوله منابر من نور، عليها مقاعد النبيين، وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب، مكللة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصديقون(٩) فجلسوا من ورائهم على تلك الكثب، فيقول الله عز وجل: أنا ربكم، قد صدقتكم وعدى، فسلونى أعطكم. فيقولون: ربنا، نسألك رضوانك، فيقول: قد رضيت عنكم، ولكم على ما تمنيتم، ولدى مزيد. فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير، وهو اليوم الذى استوى فيه ربكم على العرش، وفيه خلق آدم، وفيه تقوم الساعة».

---

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه برقم (٢٢) والبزار فى مسنده برقم (٣٥٣٢) «كشف الأستار» وابن عدى فى الكامل (٦/ ٦٨٩) من طريق خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن ابن مسعود مرفوعاً به.
وفيه حميد الأعرج، قال البخارى: منكر الحديث، وقال ابن حبان: أحاديثه شبه الموضوعة.

(٢) فى م: «عن أبى بكر الصديق».

(٣) المسند (٣/ ٩) وسنن الترمذى برقم (٢٥٦٣) وسنن ابن ماجة برقم (٤٣٣٨).

(٤) فى أ: «جهة».

(٥) فى م: «عن عبيد الله بن عمير»، وفى الأصل:«عبد الله عمير» والتصويب من الأم للشافعى.

(٦) فى م:«رسول الله». (٧) فى أ: «لايوافقها عبد مؤمن» (٨) فى م: «ناساً».

(٩) فى أ: «الصالحون».

[و][١]هكذا أورده الإمام الشافعي في كتاب «الجمعة» من الأم [٢]،وله طرق على أنس بن مالك، رضي الله عنه. وقد أورد ابن جرير هذا من رواية عثمان بن عمير، عن أنس بأبسط من هذا[٣]، وذكر هاهنا أثراً مطولا عن أنس بن مالك موقوفاً وفيه غرائب كثيرة[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن،حدثنا ابن لَهيعة، حدثنا دَراج عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الرجل في الجنة ليتكئ في الجنة سبعين سنة قبل أن يتحول ثم تأتيه امرأة فتضرب على منكبه[٥] فينظر وجهه في خدها أصفى من المرآة، وإن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلم عليه، فيرد السلام، فيسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنه ليكون عليها سبعون حلة، أدناها مثل النعمان، من طوبى، فينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك، وإن عليها من التيجان، إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[٦].

وهكذا رواه عبد الله بن وهب عن عمرو بن الحارث، عن دراج، به[٧].

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ .

يقول تعالى: وكم أهلكنا قبل هؤلاء المنكرين[٨]: **﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾** أي: كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها؛ ولهذا قال هاهنا: **﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾**: قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال مجاهد: **﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ﴾**:ضربوا في الأرض .وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم أنتم فيها ويقال لمن طوف في البلاد: نقب فيها. قال امرؤ القيس:

لقد نَقَّبْتُ في الآفَاق حتّى ... رضيتُ من الغَنيمة بالإيَابِ[٩]

(١) زيادة من م.
(٢) الأم (١/ ١٨٥).
(٣، ٤) تفسير الطبري (٢٦/ ١٠٩).
(٥) في أ: «منكبيه».
(٦) المسند (٣/ ٧٥) وفيه: دراج عن أبي الهيثم، ضعيف.
(٧) رواه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٠) والكلام عليه كسابقه.
(٨) في م، أ: «المكذبين».
(٩) البيت في تفسير الطبري (٢٦/ ١١٠).

وقوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره؟ وهل نفعهم ما جمعوه ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل؟ فأنتم أيضاً لا مفر لكم ولا محيد ولا مناص ولا محيص.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾ أي: لعبرة ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: لُبٌّ يعي به. وقال مجاهد: عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع الكلام فوعاه، وتعقله بقلبه وتفهمه بلبه.

وقال مجاهد: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ﴾ يعني: لا يحدث نفسه بغيره، ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ وقال: شاهد بالقلب[(١)].

وقال الضحاك: العرب تقول: ألقى فلان سمعه: إذا استمع بأذنيه وهو شاهد يقول غير غائب. وهكذا قال الثوري وغير واحد.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾: فيه تقرير المعاد؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن، قادر على أن يحيى الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وقال قتادة: قالت اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ: خلق الله السموات والأرض فى ستة أيام، ثم استراح فى اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ أي: من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وكما قال: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧] وقال: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلا، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾، وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس فى وقت الفجر، وقبل الغروب فى وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبى ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ فى حق الأمة وجوبه. ثم بعد ذلك نسخ الله ذلك كله ليلة الإسراء بخمس صلوات، ولكن منهن[(٢)] صلاة الصبح والعصر، فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم[(٣)]، عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسا عند النبى ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر، لا تضامون فيه، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، فافعلوا». ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾.

(١) فى م: «القلب». (٢) فى أ: «بينهن». (٣) فى أ: «حاتم».

ورواه البخاري ومسلم وبقية الجماعة، من حديث إسماعيل، به[(١)].

وقوله: ﴿ومنَ اللَّيْلِ فَسبِّحْه﴾ أي: فصل له، كقوله: ﴿ وَمنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ به نَافلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

﴿وَأَدْبَارَ السُّجُود ﴾: قال ابن أبي نَجِيح، عن مجاهد، عن ابن عباس: هو التسبيح بعد الصلاة.

ويؤيد هذا ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات[(٢)] العُلَى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق! قال: «أفلا أعلمكم شيئاً إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين». قال: فقالوا: يا رسول الله، سمع إخواننا أهل الأموال[(٣)] بما فعلنا، ففعلوا مثله. قال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(٤)].

والقول الثاني: أن المراد بقوله: ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُود﴾: هما الركعتان بعد المغرب، روى ذلك عن عمر وعلي، وابنه الحسن وابن عباس، وأبي هريرة، وأبي أمامة، وبه يقول مجاهد، وعكرمة، والشعبي، والنَّخَعِي والحسن وقتادة، وغيرهم.

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع وعبد الرحمن، عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن عاصم بن ضَمْرَة، عن علي قال: كان رسول الله ﷺ يصلي على أثر كل صلاة مكتوبة ركعتين[(٥)] إلا الفجر والعصر. وقال عبد الرحمن: دبر كل صلاة.

ورواه أبو داود والنسائي، من حديث سفيان الثوري، به[(٦)]. زاد النسائي: ومطرف، عن أبي إسحاق، به[(٧)].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني، حدثنا ابن فضيل، عن رشدين بن كريب، عن أبيه عن ابن عباس قال: بت ليلة عند رسول الله ﷺ فصلى ركعتين خفيفتين، اللتين قبل الفجر. ثم خرج إلى الصلاة فقال: « يا ابن عباس، ركعتين قبل صلاة الفجر إدبار النجوم، وركعتين بعد المغرب إدبار السجود».

ورواه الترمذي عن أبي هشام الرفاعي، عن محمد بن فضيل، به[(٨)]. وقال: غريب لا نعرفه إلا

---

(١) المسند (٤/ ٣٦٥) وصحيح البخاري برقم (٤٨٥١) وصحيح مسلم برقم (٦٣٣) وسنن أبي داود برقم (٣٧٢٩) وسنن الترمذي برقم (٢٥٥١) والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٣٣٠) وسنن ابن ماجه برقم (١١٧).

(٢) في أ: «بالأجور». (٣) في أ: «الإيمان».

(٤) صحيح البخاري برقم (٦٣٢٩) وصحيح مسلم برقم (٥٩٥).

(٥) في م: «ركعتين مكتوبة».

(٦) المسند (١/ ١٢٤) وسنن أبي داود برقم (١٢٧٥) والنسائي في السنن الكبرى برقم (٣٤١).

(٧) النسائي في السنن الكبرى برقم (٣٤٦).

(٨) سنن الترمذي برقم (٣٢٧٥).

من هذا الوجه .

وحديث ابن عباس، وأنه بات فى بيت خالته ميمونة وصلى تلك الليلة مع النبى ﷺ ثلاث عشرة ركعة، ثابت فى الصحيحين[١] وغيرهما، فأما هذه الزيادة فغريبة [و][٢] لا تعرف إلا من هذا الوجه، ورِشْدِين بن كُرَيْب ضعيف، ولعله من كلام ابن عباس موقوفا عليه، والله أعلم.

﴿ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥) ﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ يا محمد ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله [تعالى][٣] ملكاً[٤] أن ينادى على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعنى: النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون. ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴾ أى: من الأجداث، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أى: هو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه، وإليه مصير[٥] الخلائق كلهم، فيجازى كلا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾: وذلك أن الله تعالى[٦] ينزل مطراً من السماء تنبت به أجساد الخلائق فى قبورها، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ فى الصور، وقد أودعت الأرواح فى ثقب فى الصور، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض، فيقول الله، عز وجل: وعزتى وجلالى، لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ وتنشق[٧] الأرض عنهم، فيقومون إلى موقف الحساب سراعا، مبادرين إلى أمر الله، عز وجل، ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٢]، وفى صحيح مسلم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من تنشق عنه الأرض»[٨].

---

(١) صحيح البخارى برقم (١١٩٨) وصحيح مسلم برقم (٧٦٣).
(٢، ٣) زيادة من م. (٤) فى م: «ملكان». (٥) فى م: «تصير».
(٦) فى م: «عز وجل». (٧) فى م: «وتتشقق».
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٢٧٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولم أهتد إليه من حديث أنس.

وقوله: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب فلا يهيدنك ذلك، كقوله [تعالى][(١)]: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ .وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٧- ٩٩].

وقوله: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ولست بالذى تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به.

وقال مجاهد، وقتادة، والضحاك: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: لا تتجبر عليهم.

والقول الأول أولى، ولو أراد ما قالوه لقال: ولا تكن جباراً عليهم، وإنما قال: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمعنى: وما أنت بمجبرهم على الإيمان إنما أنت مبلغ.

قال الفراء: سمعت العرب تقول: جبر فلان فلانا على كذا[(٢)]، بمعنى أجبره[(٣)].

ثم قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: بلغ أنت رسالة ربك، فإنما[(٤)] يتذكر من يخاف الله ووعيده ويرجو وعده، كقوله [تعالى][(٥)]: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، ولهذا قال هاهنا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كان قتادة يقول: اللهم، اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بار، يا رحيم.

آخر تفسير سورة (ق)، والحمد لله وحده، وحسبنا الله ونعم الوكيل

---

(١) زيادة من م. (٢) فى م: «جبر فلان على فلان كذا».

(٣) انظر تفسير الطبرى (٢٦/ ١١٥).

(٤) فى م: «فأما». (٥) زيادة من م.

سورة قٓ

مكيّة، وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾

﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: ذي المَجد والشرف على سائر الكتب، / أو لأنّه [١١٩ظ]
كلام المجيد، أو لأنَّ مَن علِم معانيه وعمِل بما فيه مَجُدَ عند الله تعالى وعند الناس. والكلام فيه كالّذي فُصِّل في مطلع سورة ﴿صٓ﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾

وقوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: لِأن جاءهم منذر مِن جنسهم، لا مِن جنس الملَك، أو مِن جِلدتهم؛ إضراب عمّا يُنبئ عنه جواب القسم المحذوف، كأنّه قيل: والقرآنِ المجيدِ أنزلناه إليك لتنذر به الناس، حسبما ورَد في صدر سورة الأعراف، كأنّه قيل بعد ذلك: لم يؤمنوا به؛ بل جعلوا كلًّا مِن المنذِر والمنذَرِ به عُرضةً للنكير والتعجّبِ مع كونهما أوفقَ شيء لقضيّة العقول، وأقربَه إلى التلقّي بالقَبول.

وقيل:[١] التقدير: والقرآنِ المجيدِ إنّك لمنذِر، ثمّ قيل بعده: إنّهم شكّوا فيه، ثمّ أُضرِب عنه وقيل: بل عَجِبوا، أي:[٢] لم يكتفوا بالشكّ والردّ؛ بل جزموا بالخلاف حتّى جعلوا ذلك مِن الأمور العجيبة. وقيل:[٣] هو إضراب عمّا يُفهَم مِن وصف ﴿ٱلْقُرْءَانِ﴾ بـ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾،[٤] كأنّه قيل: ليس سبب امتناعهم مِن الإيمان بالقرآن أن لا مَجدَ له، ولكن لجهلهم.

---

١ وفي هامش م: رازي. | تفسير الرازي، ١٢٧/٢٨.

٢ س: أن.

٣ وفي هامش م: راغب. «منه». | المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٤٢

٤ في الآي السابقة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجّبهم، وبيان لكونه مقارِنًا لغاية الإنكار، مع زيادة تفصيل لمَحلّ التعجّب، و﴿هَٰذَا﴾ إشارة إلى كونه عليه السلام منذِرًا بالقرآن. وإضمارُهم أوّلًا للإشعار بتعيّنهم بما أُسنِد إليهم، وإظهارُهم ثانيًا للتسجيل عليهم بالكفر بموجَبه.

أو عطفٌ لتعجّبهم[١] مِن البعث على تعجّبهم مِن البِعثة، على أنّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مبهَم يفسّره ما بعده مِن الجملة الإنكاريّة.

ووضع المُظهر موضع المُضمَر إمّا لسبق اتّصافهم بما يوجب كفرهم، وإمّا للإيذان بأنّ تعجّبهم مِن البعث لدلالته على استقصارهم لقدرة الله سبحانه عنه مع معاينتهم لقدرته تعالى على ما هو أشقّ منه في قياس العقل مِن مصنوعاته البديعة أشنعُ مِن الأوّل، وأعرَقُ في كونه كفرًا.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجّب، وتأكيد للإنكار. والعامل في ﴿إِذَا﴾ مضمَر غنيّ عن البيان لغاية شُهرته مع دلالة ما بعده عليه، أي: أحِينَ نموت ونصيرُ ترابًا نُرجَعُ كما ينطق به النذيرُ والمنذَرُ به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ. وقُرئ: "إِذَا مِتْنَا"[٢] على لفظ الخبر، أو على حذف أداة الإنكار.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى محلّ النزاع ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي: عن الأوهام، أو العادة، أو الإمكان. / وقيل: "الرَّجْع" بمعنى المَرجوع الذي هو الجواب، فناصِب الظرف حينئذ ما يُنبئ عنه المنذِر مِن البعث. [١٢٠و]

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ردّ لاستبعادهم، وإزاحة له، فإنّ مَن عَمّ عِلمُه ولَطُف حتّى انتهى إلى حيث علِم ما تنقص الأرض مِن أجساد الموتى وتأكل مِن لحومهم وعظامهم؛ كيف يُستبعَد رَجْعُه إيّاهم أحياءً كما كانوا.

---

١ السياق: تفسير لتعجّبهم... أو عطفٌ لتعجّبهم...
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب والأعرج وشيبة وأبي جعفر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٥.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «كلّ ابن آدم يَبْلَى إلّا عَجْبَ الذَّنَب».[١]

وقيل: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما يموت فيُدفَن في الأرض منهم.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ حافظ لتفاصيل الأشياء كلّها، أو محفوظ مِن التغيّر. والمراد إمّا تمثيل علمِه تعالى بكلّيّات الأشياء وجزئيّاتها بعلمِ مَن عنده كتاب محيط يتلقّى منه كلَّ شيء، أو تأكيد لعلمه تعالى بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ إضراب وانتقال مِن بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوّة الثابتة بالمعجزات الباهرة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ مِن غير تأمّل وتفكّر، وقُرئ: "لِمَا جَاءَهُمْ"[٢] بالكسر على أنّ "اللام" للتوقيت، أي: وقتَ مجيئه إيّاهم. وقيل: ﴿ٱلْحَقِّ﴾ القرآن، أو الإخبار بالبعث. ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مضطربٍ لا قرارَ له، مِن "مَرِجِ الخاتمُ في أصبعه"، حيث يقولون تارةً: إنّه شاعر، وتارةً: ساحر، وأخرى: كاهِن.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ أي: أغَفَلُوا، أو أَعمُوا فلم ينظروا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يشاهدونها كلّ وقت ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أي: رفعناها بغير عَمَد، ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بما فيها مِن الكواكب المرتَّبة على نظام بديع، ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ مِن فُتوق لِمَلاستها وسلامتها مِن كلّ عيب وخلل؟ ولعلّ تأخيرَ هذا لمراعاة الفواصل.

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧﴾

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالًا ثوابتَ، مِن "رَسَا الشيء"، أي: ثبَتَ. والتعبير عنها بهذا الوصف للإيذان بأنّ إلقاءها لإرساء الأرض بها. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ / مِن كلّ صِنف ﴿بَهِيجٍ﴾ حسنٍ. [١٢٠ظ]

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٤؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٠. وهو بلفظ قريب في صحيح البخاري، ٦/١٦٥ (٤٩٣٥)؛ وصحيح مسلم، ٤/٢٢٧١ (٢٩٥٥).

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦.

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ عِلّتان للأفعال المذكورة معنًى، وإن انتصبَتا بالفعل الأخير، أو لِفعلٍ مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيرًا وتذكيرًا ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: راجعٍ إلى ربّه متفكّرٍ في بدائع صنائعه.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: كثيرَ المنافع؛ شروع في بيان كيفيّة إنبات[1] ما ذُكر مِن كلّ زوج بهيج، وهو عطفٌ على ﴿أَنبَتْنَا﴾،[2] وما بينهما على الوجه الأخير اعتراض مقرِّر لِما قبله، ومنبِّه على ما بعده، ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ كثيرةً، أي: أشجارًا ذواتِ ثمارٍ ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: حبَّ الزرع الذي[3] شأنه أن يُحصَد مِن البُرّ والشعير وأمثالهما. وتخصيصُ إنبات حَبّه بالذكر لأنّه المقصود بالذات.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾

﴿وَالنَّخْلَ﴾ عطفٌ على ﴿جَنَّاتٍ﴾.[4] وتخصيصُها بالذكر مع اندراجها في "الجنّات" لبيان فضلها على سائر الأشجار. وتوسيط "الحَبّ" بينهما لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقيّة، مع ما فيه مِن مراعاة الفواصل. ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوالًا، أو حَواملَ، مِن "أبسَقَت الشاة" إذا حمَلَت، فيكون مِن باب "أفْعَلَ" وهو فاعِل. وقُرِئ: "بَاصِقَاتٍ" لأجل "القاف".[5]

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ أي: مَنضود بعضُه فوق بعض، والمراد تراكُمُ الطَّلع، أو كثرةُ ما فيه مِن الثمر. والجملة حال مِن ﴿النَّخْلَ﴾ كـ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ بطريق الترادف، أو مِن ضميرها في ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ على التداخل، أو الحال هو الجارّ والمجرور، و﴿طَلْعٌ﴾ مرتفِع به على الفاعليّة.

---

[1] س ي: إثبات.
[2] ق، ٥٠/٧.
[3] س – الذي.
[4] في الآية السابقة.
[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن قُطبة بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. الكشّاف للزمخشري، ٣٨١/٤؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٥٣١/٩.

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: لنَرزقَهم؛ علّة لقوله تعالى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾.[١] وفي تعليله بذلك بعد تعليل ﴿أَنۢبَتْنَا﴾[٢] الأوّلِ بالتبصرة والتذكير تنبيهٌ على أنّ الواجب على العبد أن يكون انتفاعه بذلك مِن حيث التذكّرُ والاستبصار أهمَّ وأقدمَ مِن تمتّعه به مِن حيث الرزق. وقيل: ﴿رِزْقًا﴾ مصدر مِن معنى ﴿أَنۢبَتْنَا﴾؛ لأنّ الإنبات رزق.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ / أرضًا جَدبةً، لا نماءَ فيها أصلًا، [١٢١و] بأن جعلناها بحيث رَبَتْ وأنبَتَت أنواع النبات والأزهار، فصارت تهتزّ بها بعد ما كانت جامدةً هامدةً، وتذكير ﴿مَيْتًا﴾ لأنّ البلدة بمعنى البلد والمكان.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جملة قُدِّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، وذلك إشارة إلى الحياة المستفادة مِن الأحياء، وما فيه مِن معنى البعد للإشعار ببُعد رتبتها، أي: مثلُ تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث مِن القبور، لا شيءَ مخالِف لها. وفي التعبير عن إخراج النبات مِن الأرض بـ"الإحياء"، وعن حياة الموتى بـ"الخروج" تفخيم لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾... إلخ استئناف وارد لتقرير حقّيّة البعث ببيان اتّفاق كافّة الرسل عليهم السلام عليها، وتعذيبِ منكرِيها، ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قيل: هم ممَّن بُعث إليهم شعيب عليه السلام، وقيل وقيل، كما مرّ في سورة الفرقان[٣] على التفصيل.

﴿وَثَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أي: هو وقومُه، ليلائم ما قبله وما بعده، ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ قيل: كانوا مِن أصهاره عليه السلام.

---

[١] ق، ٥٠/٩.

[٢] ق، ٥٠/٧.

[٣] الفرقان، ٢٥/٣٨.

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤﴾

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ هم ممّن بُعِث إليهم شعيب عليه السلام غيرُ أهل مَدين. ﴿وَقَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ سبقَ شرح حالهم في سورة الدخان.[١]

﴿كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: فيما أُرسِلوا به مِن الشرائع التي مِن جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبةً، أي: كلّ قوم مِن الأقوام المذكورين كذّبوا رسولَهم، أو كذّب جميعُهم جميعَ الرسل بالمعنى المذكور. وإفراد الضمير باعتبار لفظ "الكلّ"، / أو كلُّ واحدٍ منهم كذّب جميعَ الرسل، لاتّفاقهم على الدعوة إلى [١٢١ظ]
التوحيد، والإنذارِ بالبعث والحشر، فتكذيب واحد منهم تكذيب للكلّ، وهذا على تقدير رسالة تُبَّعٍ ظاهر، وأمّا على تقدير عدمها -وهو الأظهر- فمعنى تكذيب قومه الرسلَ تكذيبُهم بمَن قبلهم مِن الرسل المجمِعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تُبَّع.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فوجَب وحَلّ عليهم وعيدي؛ وهي كلمة العذاب، وفيه تسلية للرسول صلّى الله عليه وسلّم، وتهديد لهم.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥﴾

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِ﴾ استئناف مقرّر لصِحّة البعث الذي حُكيت أحوال المنكرين له مِن الأمم المهلَكة. والعِيّ بالأمر: العجز عنه، يقال: "عَيَّ بالأمر" و"عَيِيَ به" إذا لم يَهْتَدِ لوجه عمله. و"الهمزة" للإنكار، و"الفاء" للعطف على مقدَّر ينبئ عنه العِيّ مِن القصد والمباشرة، كأنّه قيل: أَقَصَدْنا الخلقَ الأوّل، فعجزنا عنه حتّى يُتوهَّم عَجزُنا عن الإعادة.

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ عطفٌ على مقدَّر يدلّ عليه ما قبلَه، كأنّه قيل: هم غير منكرين لقدرتنا على الخلق الأوّل؛ بل هم في خَلطٍ وشبهة في خَلق مستأنَف لِما فيه مِن مخالفة العادة. وتنكير ﴿خَلۡقٖ﴾ لتفخيم شأنه، والإشعارِ بخروجه عن حدود العادات، والإيذانِ بأنّه حقيق بأن يُبحث عنه ويُهْتَمّ بمعرفته.

---

[١] الدخان، ٣٧/٤٤.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ أي: ما تُحدِّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال. والوسوسة: الصوت الخفيّ، ومنه "وَسواس الحُليّ". والضمير لـ﴿مَا﴾ إن جُعلت موصولة، و"الباء" كما في "صَوَّتَ بكذا"، أو لـ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إن جُعلت مصدريّةً، و"الباء" للتعدية.

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ أي: أعلمُ بحاله / ممّن كان أقربَ إليه مِن [١٢٢و]
حبل الوريد. عُبّر عن قُرب العلم بقُرب الذات تجوّزًا؛ لأنّه موجِب له. و﴿حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ مَثَلٌ في فَرْط القرب. و"الحَبل" العِرق. وإضافته بيانيّة. و"الوَريدان" عِرقان مكتنِفان بصفحتَي العنق في مقدَّمها متّصلان بالوَتين، يَرِدان مِن الرأس إليه. وقيل: سمّي "وَرِيدًا" لأنّ الروح تَرِدُه.

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧﴾

﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ منصوب بما في ﴿أَقۡرَبُ﴾[١] مِن معنى الفعل. والمعنى: أنّه لطيف يتوصّل علمه إلى ما لا شيءَ أخفى منه، وهو أقرب مِن الإنسان مِن كلّ قريب حين يتلقّى ويتلقّن الحفيظان ما يتلفّظ به. وفيه إيذان بأنّه تعالى غنيّ عن استحفاظهما، لإحاطة علمه بما يخفى عليهما، وإنّما ذلك لِما في كَتْبتهما وحفظِهما لأعمال العبد وعَرضِ صحائفها يومَ يقوم الأشهاد، وعِلمِ العبد بذلك مع علمه بإحاطته تعالى بتفاصيل أحواله خُبرًا؛ مِن زيادة لُطفٍ له في الكفّ عن السيّئات والرغبة في الحسنات.

وعنه عليه السلام: «إنّ مَقعد مَلَكَيكَ على ثَنِيَّتَيكَ، ولسانُك قلمُهما، وريقُك مِدادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، لا تستحيي مِن الله ولا منهما».[٢]

وقد جُوّز[٣] أن يكون تلقّي الملَكين بيانًا للقرب، على معنى: أنَا أقربُ إليه مطّلعون على أعماله؛ لأنّ حفَظتنا وكَتَبَتَنا موكَّلون به.

---

١ في الآية السابقة.
٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٩؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٣٨٤.
٣ جوّزه الزمخشري في الكشّاف، ٤/٣٨٤.

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ﴾ أي: عن اليمين قَعيد، وعن الشمال قَعيد، أي: مقاعد، كـ"الجَليس" بمعنى "المُجالس" لفظًا ومعنًى، فحُذف الأوّل لدلالة الثاني عليه، كما في قول مَن قال:

رماني بأمرٍ كنت منه ووالدي بريئًا ومِن أجل الطَّوِيِّ رماني[1]

وقيل: يُطلق الفعيل على الواحد والمتعدّد، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم، ٤/٦٦].

﴿مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾

﴿مَا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾ ما يَرمي به مِن فيه مِن خيرٍ أو شرّ. وقُرئ: "مَا يُلْفَظُ"[2] عَلى البناء للمفعول. ﴿إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ﴾ / مَلَك يَرقُب قولَه ذلك ويكتبه، فإن كان [١٢٢ظ] خيرًا فهو صاحب اليمين بعَينه، وإلّا فهو صاحب الشمال. ووجهُ تغيير العنوان غنيّ عن البيان. والإفرادُ مع وقوفهما معًا على ما صدر عنه لِما أنّ كلًّا منهما رَقيب لِما فُوِّض إليه، لا لِما فُوِّض إلى صاحبه، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿عَتِيدٞ﴾ أي: مُعَدّ مُهَيَّأ لِكتابة ما أُمِر به مِن الخير أو الشرّ. ومَن لم يتَنبَّه له توهَّم أنّ معناه: رقيبان عتيدان. وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النصّ.

واختُلف فيما يكتبانه، فقيل: يكتبان كلَّ شيء حتّى أنينَه في مرضه. وقيل: إنّما يكتبان ما فيه أجر أو وِزر. وهو الأظهر كما ينبئ عنه قوله صلّى الله عليه وسلّم: «كاتب الحسنات على يمين الرجل، وكاتب السيّئات على يسار الرجل، وكاتب الحسنات أمين[3] على كاتب السيّئات، فإذا عمل حسنةً كتبها ملَك اليمين عشرًا،

---

[1] ذكره ابن منظور في لسان العرب، «جول»، بلفظ: "ومِن جُول الطَّوِيِّ رَماني"، وقال: «البيت لابن أحمر. وقيل: هو للأزرق بن طَرَفة بن العَمَرَّد الفَراصي. أي: رماني بأمرٍ عاد عليه قُبحه، لأنّ الذي يرمي مِن جُول البئر يعود ما رَمى به عليه»، ثمّ قال: «ويُروى: "ومِن أجل الطَّوِيّ"، قال: وهو الصحيح؛ لأنّ الشاعر كان بينه وبين خَصمه حكومة في بئر، فقال خصمه: "إنّه لِصّ ابن لِصّ"».

[2] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٤. وفي شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦: «عن محمّد بن سعدان: "مَا يَلْفَظُ" بفتح "الفاء"».

[3] م: أمير [صحّح في الهامش]. | وهو في مطبوع الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٩: "أمين". وفي مطبوع معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٩/٧: "أمير".

وإذا عمل سيّئةً قال صاحب اليمين لصاحب الشمال: "دَعْهُ سبعَ ساعات لعلّه يسبِّح أو يستغفر"».[١]

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾ بعد ما ذُكِر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيحَ ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعِلمه، وبُيِّن أنّ جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم؛ أُتبع ذلك بيان ما يُلاقونه لا محالةَ مِن الموت والبعث، وما يتفرّع عليه مِن الأحوال والأهوال، وقد عُبّر عن وقوع كلّ منها بصيغة الماضي إيذانًا بتحقّقها وغايةِ اقترابها.

و﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ شدّته الذاهبة بالعقل. و"الباء" إمّا للتعدية كما في قولك: "جاء الرسول بالخبر"، والمعنى: أُحضِرت سكرةُ الموت حقيقةَ الأمر الذي نطقت به كُتب الله ورسلُه، أو حقيقةَ الأمر وجليّةَ الحال مِن سعادة الميّت وشقاوته. وقيل: الحقّ الذي لا بدَّ أن يكون لا محالةَ مِن الموت أو الجزاء، فإنّ الإنسان خُلق له.

وإمّا للملابسة[٢] كالتي في قوله تعالى: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون، ٢٠/٢٣]، أي: ملتبسةً بالحقّ، أي: بحقيقة الأمر، أو بالحكمة والغاية الجميلة.

وقُرئ: "سَكْرَةُ الْحَقِ بِالْمَوْتِ"،[٣] / والمعنى: أنّها السَّكْرة التي كتبت على الإنسان بموجَب الحكمة، وأنّها لشدّتها توجب زُهوق الروح، أو تستعقِبه. وقيل: "الباء" بمعنى "مع". وقيل: "سَكْرةُ الحقّ" سَكرة الله تعالى، على أنّ الإضافة للتهويل. وقُرئ: "سَكَرَاتُ المَوْتِ".[٤] [١٢٣و]

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الموتُ ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ أي: تميل وتنفِر عنه. والخطابُ للإنسان، فإنّ النُّفرة عنه شاملة لكلّ فرد مِن أفراده طبعًا.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٩٩/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٥٩/٧؛ الكشّاف للزمخشري، ٣٨٥/٤.

٢ السياق: و"الباء" إمّا للتعدية... وإمّا للملابسة...

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي بكر رضي الله عنه وسعيد بن جبير وطلحة. المحتسب لابن جنّي، ٢٨٣/٢؛ شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٤٥.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ٢٠﴾

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية، ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: وقتُ ذلك النفخ على حذف المضاف ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: يومُ إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا، أو يومُ وقوع الوعيد، على أنّه عبارة عن العذاب الموعود. وقيل: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان المفهوم مِن ﴿نُفِخَ﴾، فإنّ الفعل كما يدلّ على الحدَث يدلّ على الزمان. وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنّه يوم الوعد أيضًا لتهويله، ولذلك بُدِئ ببيان حال الكفرة.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ٢١﴾

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ مِن النفوس البَرّة والفاجرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ وإن اختلفت كيفيّة السَّوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملًا، أي: معها ملَكان، أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، أو ملَك جامع بين الوصفين، كأنّه قيل: معها ملَك يسوقها ويشهَد عليها. وقيل: "السائق" كاتب السيّئات، و"الشهيد" كاتب الحسنات. وقيل: "السائق" نفسه أو قرينه، و"الشهيد" جوارحه وأعماله.

ومحلّ ﴿مَّعَهَا﴾ النصب على الحاليّة مِن ﴿كُلُّ﴾، لإضافته إلى ما هو في حكم المعرفة، كأنّه قيل: كلّ النفوس، أو الجرُّ على أنّه وصف لـ﴿نَفْسٍ﴾، أو الرفعُ على أنّه وصف لـ﴿كُلُّ﴾.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢﴾

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ مَحكيّ بإضمار قولٍ هو إمّا صفة أخرى لـ﴿نَفْسٍ﴾،[1] أو حال أخرى منها، أو استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا يُفعَل بها؟ فقيل: يُقال: لقد كنتَ في غفلةٍ. وخطاب الكلّ بذلك لِما أنّه ما مِن أحدٍ إلّا وله غفلة ما مِن / الآخرة. وقيل: الخطاب للكافر. [١٢٣ظ]

---

١ في الآية السابقة.

وقُرئ: "كُنْتِ"[١] بكسر "التاء" على اعتبار تأنيث "النفس". والتذكير على القراءة المشهورة بتأويل الشخص، كما في قول جَبَلة بن حُريث:

يـا نـفـسُ إنّـــكَ بـالـلّـذّات مَـســرورُ[٢]

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغِطاء: الحِجاب المغطّي لأمور المَعاد، وهو الغفلة والانهماك في المَحسوسات، والإلفُ بها، وقَصرُ النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ نافذٌ لزوال المانع للإبصار. وقُرئ بكسر "الكاف" في المواضع الثلاثة.[٣]

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطانُ المقيَّض له مشيرًا إليه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي وفي مَلَكتي عتيدٌ لجهنّم، قد هيّأته لها بإغوائي وإضلالي. وقيل: قال الملَك الموكَّل به مشيرًا إلى ما معه مِن كَتاب عملِه: هذا مَكتوب عندي عتيدٌ مهيّأً للعَرض. و﴿مَا﴾ إن جُعلت موصوفةً فـ﴿عَتِيدٌ﴾ صِفتها، وإن جُعلت موصولة فهي بدل منها، أو خبرٌ بعد خبر، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

[٢] وفي هامش م: تمامه:

فاذكر فهل ينفعنْك اليومَ تذكيرُ

| لم أجده بهذا اللفظ، ولفظه في المصادر:

يا قلبُ إنّكَ في أسماءَ مَغرورُ
اذكُر وهل ينفعُكَ اليومَ تذكيرُ

ووقع اختلاف في اسم قائله، ففي **العقد الفريد** لابن عبد ربّه، ١٤١/٣؛ و**شرح أبيات سيبويه** للسيرافي، ٢٣٧/١؛ و**تاريخ دمشق** لابن عساكر، ٢٠٤/٣٨؛ و**معجم الأدباء** للحموي، ١٥٨٢/٤؛ و**شرح أبيات مغني اللبيب** للبغدادي، ١٦٨/٢، مِن قول حُرَيث بن جَبَلة. وفي **نزهة الألبّاء** للأنباري، ص ٣٥: عثمان بن لبيد العذري. وفي **لباب الآداب** لأسامة بن منقذ، ١٢٤/١: قيل: هذا الشعر لجَبَلة بن الحارث. وقيل: عثمان بن لبيد العذري. وفي **شرح مقامات الحريري** للشريشي، ٣١٨/١: جبلة بن الحويرث. وفي **درّة الغوّاص** للحريري، ص ٦٨: عثير بن لبيد العذري، وقيل: عثمان بن لبيد العذري.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن الجحدري. **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطاب مِن الله تعالى للسائق والشهيد، أو للمَلَكين مِن خزَنة النار، أو لواحدٍ على تنزيل تثنية الفاعل منزلةَ تثنية الفعل وتكريرِه، كقول مَن قال:

فإن تزجُراني يا ابن عفّانَ أنزَجِرْ   وإن تَدَعاني أحْمِ عِرضًا ممنّعًا[1]

أو على أنّ "الألف" بدل مِن نون التأكيد على إجراء الوَصل مُجرى الوقف، ويؤيّده أنّه قُرئ: "أَلْقِيَنْ" بـ"النون" الخفيفة.[2] ﴿عَنِيدٍ﴾ معاند للحقّ.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ كثيرِ المَنع للمال عن حقوقه المفروضة. وقيل: المراد بالخير الإسلام، فإنّ الآية نزَلت في الوليد بن المغيرة لمّا منع بني أخيه منه.[3] ﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالمٍ متخطٍّ للحقّ، ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في الله وفي دينه.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أو بدل مِن ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾،[4] وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرير للتوكيد، / أو مفعول لمُضمَر يفسّره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾. [١٢٤و]

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٢٧﴾

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الشيطان المقيَّض له. وإنّما استُؤنفت استئنافَ الجمل الواقعة في حكاية المُقاولة لِما أنّه جواب لمحذوف دلّ عليه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، فإنّه منبئ عن سابقة كلام اعتذَر به الكافر، كأنّه قال: هو أطغاني، فأجاب قرينه بتكذيبه وإسنادِ الطغيان إليه، بخِلاف الجملة الأولى[5] فإنّها واجبة العطف على ما قبلها دلالةً على الجمع بين مفهومَيهما في الحصول، أعني: مجيءَ كلّ نفس مع الملَكَين، وقولَ قرينه.

---

[1] لسُوَيد بن كُراع العُكْلي في لسان العرب لابن منظور، «جزز». وفيه: «وكان سُويد هذا هجا بني عبد الله بن دارم فاستعدَوا عليه سعيدَ بن عثمان، فأراد ضربه، فقال سويد قصيدة» فذكر أوّلها، وفيها البيت المذكور. ثمّ قال: «وهذا يدلّ على أنّه خاطب اثنين، سعيدَ بن عثمان ومَن يَنوب عنه أو يحضر معه». قال: «وقوله: "وإن تدعاني أحمِ عِرضًا مُمَنّعًا"، أي: إن تركتماني حَمَيت عِرضي ممّن يؤذيني، وإن زَجرتُماني انزجرتُ وصبرتُ».

[2] أي: بالتنوين في الوصل. قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسن. انظر: **مختصر شواذّ القرآن** لابن خالويه، ص ١٤٥؛ **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٤٤٧.

[3] **الكشف والبيان** للثعلبي، ١٠٢/٩؛ **الكشّاف** للزمخشري، ٣٨٧/٤.

[4] ق، ٢٤/٥٠.

[5] يعني: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الآية [ق، ٢٣/٥٠].

﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ مِن الحقّ، فأعنته عليه بالإغواء والدعوةِ إليه مِن غير قَسرٍ وإلجاءٍ، كما في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم، ٢٢/١٤].

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٢٩﴾

﴿قَالَ﴾ استئناف مبنيّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنّه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحساب والجزاء؛ إذ لا فائدة في ذلك، ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيان في دار الكسب في كُتبي، وعلى ألسِنة رُسلي، فلا تطمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه مِن التعلّل بالمعاذير الباطلة. والجملة حال فيها تعليلٌ للنهي، على معنى: لا تختصِموا وقد صحّ عندكم أنّي قدّمتُ إليكم بالوعيد حيث قلتُ لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص، ٨٥/٣٨]، فاتّبعتموه معرِضين عن الحقّ، فلا وجهَ للاختصام في هذا الوقت.

و"الباء" مَزيدة أو معدِّية على أنّ "قَدَّمَ" بمعنى "تَقَدَّمَ". وقد جُوّز[1] أن يكون ﴿قَدَّمْتُ﴾ واقعًا على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾... إلخ، ويكونَ بالوعيد متعلِّقًا بمحذوف هو حال مِن المفعول أو الفاعل، أي: وقد قدّمتُ إليكم هذا القولَ ملتبِسًا بالوعيد مقترِنًا به، أو قدّمته إليكم مُوعِدًا لكم به، فلا تطمعوا أن أُبدّلَ وعيدي. والعفوُ عن بعض المذنبين لأسباب داعية إليه ليس بتبديل، فإنّ دلائل العفو تدلّ على تخصيص الوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ وارد لتحقيق الحقّ على الوجه الكلّي، وتبيينِ أنّ عدمَ تبديل القول وتحقيقَ موجَب الوعيد ليس مِن جهته تعالى مِن غير استحقاقٍ له منهم؛ بل إنّما ذلك بما صدَر عنهم مِن الجنايات الموجِبة له حسبما أشيرَ إليه آنفًا. / أي: وما أنا بمعذِّب للعبيد بغير ذنب مِن قِبَلهم. [١٢٤ظ]

---

[1] جوّزه البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٤٢/٥.

والتعبير عنه بالظلم مع أنّ تعذيبهم بغير ذنب ليس بظُلمٍ -على ما تقرّر مِن قاعدة أهل السنّة- فضلًا عن كونه ظُلمًا مفرطًا لبيان[١] كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه سبحانه مِن الظلم. وصيغة المبالغة لتأكيد هذا المعنى بإبراز ما ذُكر مِن التعذيب بغير ذنب في مَعرِض المبالغة في الظلم. وقيل: هي لرعاية جمعيّة العبيد، مِن قولهم: "فلان ظالم لعبده" و"ظلّام لعبيده" على أنّها مبالغة كَمًّا لا كيفًا.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤال وجواب، جيء بهما على منهاج التمثيل والتخييل لتهويل أمرها. والمعنى: أنّها مع اتّساعها وتباعد أقطارها تطرح فيها مِن الجِنّة والناس فوجًا بعد فوج حتّى تمتلئ، أو أنّها مِن السَّعة بحيث يدخلها مَن يدخلها وفيها بَعدُ محلّ فارغ، أو أنّها لغَيظها على العصاة تطلب زيادتهم. وقُرئ: "يَقُولُ" بـ"الياء".[٢]

و"المَزيد" إمّا مصدر كـ"المَحيد" و"المَميد"، أو مفعول كـ"المَبيع". و﴿يَوْمَ﴾ إمّا منصوب بـ"اذكر" أو "أنْذِرْ"، أو ظرف لِـ﴿نُفِخَ﴾،[٣] فيكون ﴿ذَٰلِكَ﴾[٤] حينئذ إشارةً إليه مِن غير حاجة إلى تقديرِ مضافٍ، أو لِمُقدَّرٍ مؤخَّر، أي: يكون مِن الأحوال والأهوال ما يَقصُر عنه المقال.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١﴾

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين بعد النفخ، ومجيءِ النفوس إلى موقف الحساب، وقد مرّ سِرّ تقديم بيان حال الكفرة عليه. وهو عطفٌ على ﴿نُفِخَ﴾،[٥] أي: قُرِّبت للمتّقين عن الكفر والمعاصي بحيث يشاهدونها

---

١ وفي هامش م: خبر.
٢ قرأ بها نافع وشعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.
٣ ق، ٥٠/٢٠.
٤ ق، ٥٠/٢٠.
٥ ق، ٥٠/٢٠.

مِن الموقف، ويقفون على ما فيها مِن فنون المحاسن، فيبتهجون بأنّهم محشورون إليها، فائزون بها.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيد للإزلاف، أي: مكانًا غيرَ بعيد بحيث يشاهدونها، أو حالَ كونها غيرَ بعيد، أي: شيئًا غيرَ بعيد. ويجوز أن يكون / التذكير لكونه على زِنَة المصدر الذي يستوي في الوصف به المذكّر والمؤنّث، [١٢٥و] أو لتأويل ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ بالبستان.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢﴾

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارة إلى ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾.[١] والتذكير لِما أنّ المشار إليه هو المسمّى مِن غير أن يخطر بالبال لفظٌ يدلّ عليه فضلًا عن تذكيره وتأنيثه، فإنّهما مِن أحكام اللفظ العربي، كما مرّ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا[٢] رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام، ٧٨/٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب، ٢٢/٣٣]، ويجوز أن يكون ذلك لتذكير الخبر. وقيل: هو إشارة إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر ﴿أُزْلِفَتِ﴾.[٣]

وقُرئ: "يُوعَدُونَ"،[٤] والجملة إمّا اعتراض بين البدل والمبدَل منه، وإمّا مقدّر بقولٍ هو حال مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾،[٥] أو مِن ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾،[٦] والعامل ﴿أُزْلِفَتِ﴾،[٧] أي: مَقولًا لهم، أو مَقولًا في حقّها: هذا ما توعَدون ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: رجّاعٍ إلى الله تعالى، بدل مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٨] بإعادة الجارّ، ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لتوبته مِن النقض. وقيل: هو الذي يحفظ ذنوبه حتّى يرجعَ عنها، ويستغفرَ منها.[٩] وقيل:[١٠] هو الحافظ لأوامر الله تعالى. وقيل:[١١] لِما استودعه الله تعالى مِن حقوقه.

---

١ في الآية السابقة.

٢ م س ي: ولمّا.

٣ في الآية السابقة.

٤ قرأ بها ابن كثير. النشر لابن الجزري، ٣٧٦/٢.

٥ في الآية السابقة.

٦ في الآية السابقة.

٧ في الآية السابقة.

٨ في الآية السابقة.

٩ عن ابن عبّاس رضي الله عنه. انظر: جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ والكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.

١٠ وفي هامش م س: ابن عبّاس. «منه». | الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٦٣/٧.

١١ وفي هامش م س: قتادة. «منه». | جامع البيان للطبري، ٤٥٢/٢١؛ الكشف والبيان للثعلبي، ١٠٥/٩.

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾

﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بدل بعدَ بدل، أو بدل مِن موصوف ﴿أَوَّابٍ﴾.[١] ولا يجوز أن يكون في حكمه؛ لأنّ ﴿مَنْ﴾ لا يُوصَف به، ولا يُوصَف إلّا بـ"الذي"، أو مبتدأ خبرُه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بتأويل: يقال لهم: ادخلوها. والجمعُ باعتبار معنى ﴿مَنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿خَشِيَ﴾، أو مِن مفعوله، أو صفة لمَصدره، أي: خشيةً ملتبِسةً بالغيب حيث خشي عقابَه وهو غائب عنه، أو هو غائب عن الأعين لا يراه أحد.

والتعرّض لعنوان الرحمانيّة للإشعار بأنّهم مع خشيتهم عقابَه راجونَ رحمتَه، أو بأنّ عِلمهم بسَعة رحمته تعالى لا يصدّهم عن خشيته تعالى، وأنّهم عاملون بموجَب قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر، ١٥/٤٩-٥٠]. / ووصف القلب بالإنابة لِما أنّ العبرة برجوعه إلى الله تعالى. [١٢٥ظ]

﴿بِسَلَٰمٍ﴾ متعلّق بمحذوف هو حال مِن فاعل ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، أي: ملتبسين بسلامةٍ مِن العذاب وزوالِ النعم، أو بسلام مِن جهة الله تعالى وملائكته. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الزمان الممتدّ الذي وقع في بعضٍ منه ما ذُكر مِن الأمور. ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ إذ لا انتهاءَ له أبدًا.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ مِن فنون المطالب كائنًا ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ﴿يَشَآءُونَ﴾. وقيل: بمحذوف هو حال مِن الموصول، أو مِن عائده المحذوف مِن صلته.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ هو ما لا يخطر ببالهم، ولا يندرج تحت مشيئتهم مِن معالي الكرامات التي لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمِعَت، ولا خطَرَ على قلب بشر. وقيل:

---

١ في الآية السابقة.

إنّ السحاب تمرّ بأهل الجَنّة فتُمطرهم الحورَ، فتقول: نحن المَزيد الذي قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.[١]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: قبلَ قومك ﴿مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوّةً كعاد وأضرابِها، ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: خَرَّقوا[٢] فيها، ودَوَّخوا وتصرّفوا في أقطارها، وجالوا في أكناف الأرض كلّ مجال حِذارَ الموت. وأصل "التنقيب" و"النَّقْب" التنقيرُ عن الأمر والبحثُ والطلب. و"الفاء" للدلالة على أنّ شدّة بطشهم أقدرَتْهم على التنقيب. قيل: هي عاطفة في المعنى، كأنّه قيل: اشتدّ بطشهم فنقَّبوا... إلخ. وقُرئ بالتخفيف.[٣]

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: هل لهم مِن مُخلِّص مِن أمر الله تعالى.[٤] والجملة إمّا على إضمار قولٍ هو حال مِن واوِ ﴿نَقَّبُوا﴾، أي: فنقَّبوا في البلاد قائلين: هل مِن مَحيص، أو على إجراء التنقيب لِما فيه مِن معنى التتبّع والتفتيش مُجرى القول، أو هو كلام مستأنَف وارد لنفي أن يكون لهم محيص.

وقيل: ضمير ﴿نَقَّبُوا﴾ لأهل مكّة، أي: ساروا في مسائرهم وأسفارهم في بلاد القرون، فهل رأَوا لهم مَحيصًا حتّى يؤمِّلوا مثله لأنفسهم، ويعضُده القراءة على صيغة الأمر.[٥] وقُرئ: "فَنَقِبُوا"[٦] بكسر "القاف" مِن "النَّقَب"، وهو أن يَنتَقِب خفّ البعير، أي: أكثَروا السير حتّى نَقِبَت أقدامهم، أو أخفافُ إبلِهم.

---

[١] الكشّاف للزمخشري، ٣٩٠/٤. وفي مسند أحمد، ٢٤٣/١٨ (١١٧١٥)، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إنّ الرجل لَيتكئ في الجنّة سبعين سنةً قبل أن يتحوّل، ثمّ تأتيه امرأته، فتضرِب على مَنكبيه، فينظر وجهه في خدّها أصفى مِن المِرآة، وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب، فتُسلّم عليه، قال: فيردّ السلام، ويسألها: "مَن أنت؟" وتقول: "أنا مِن المزيد"».

[٢] س: حرّقوا.

[٣] أي: "فَنَقَبُوا" بفتح "القاف". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وأبي عمرو مِن رواية عبيد عنه. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ١٦٧/٥؛ والدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٤/١٠.

[٤] م - تعالى.

[٥] أي "فَنَقِّبُوا" بكسر "القاف" مشدّدة. قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنه وابن يَعمر وأبي العالية ونَصر بن يسار وأبي حَيوة والأصمعي عن أبي عمرو. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٥٤١/٩.

[٦] قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الدرّ المصون للسمين الحلبي، ٣٤/١٠؛ واللباب لابن عادل، ٤٤/١٨.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر مِن قصّتهم. وقيل: فيما ذُكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ / لتذكرةً وعِظةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلبٌ سليمٌ، يُدرك به كُنهَ ما [١٢٦و] يشاهده مِن الأمور، ويتفكّر فيها كما ينبغي، فإنّ مَن كان له ذلك يعلم أنّ مَدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه بمجرّد مشاهدة الآثار مِن غير تذكير.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: إلى ما يُتلى عليه مِن الوحي الناطق بما جرى عليهم، فإنّ مَن فعلَه يقِف على جليّة الأمر، فينزجر عمّا يؤدّي إليه مِن الكفر، فكلمة ﴿أَوْ﴾ لِمَنع الخلوّ دون الجمع، فإنّ إلقاء السمع لا يُجدي بدون سلامة القلب، كما يلوِّح به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر بفِطنته؛ لأنّ مَن لا يُحضِر ذهنه فكأنّه غائب. وتجريد القلب عمّا ذُكر مِن الصفات للإيذان بأنّ مَن عَرِيَ قلبه عنها كمَن لا قلبَ له أصلًا.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝٣٨﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ مِن أصناف المخلوقات ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا﴾ بذلك مع كونه ممّا لا يفي به القُوَى والقُدَر ﴿مِن لُّغُوبٍ﴾ مِن إعياءٍ ما ولا تعبٍ في الجملة. وهذا ردّ على جهلة اليهود في زعمهم أنّه تعالى بدأ خلق العالم يومَ الأحد، وفرَغ منه يومَ الجمعة، واستراح يومَ السبت، واستلقى على العرش. سبحانه وتعالى عمّا يقولون علوّا كبيرًا.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقوله المشركون في شأن البعث مِن الأباطيل المَبنيّة على الإنكار والاستبعاد، فإنّ مَن فعلَ هذه الأفاعيل بلا فتور قادر على بَعثهم والانتقامِ منهم، أو ما يقوله اليهود مِن مقالات الكفر والتشبيه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهْهُ تعالى عن العجز عمّا يمكن، وعن وقوع الخُلف في أخباره التي مِن جملتها الإخبار بوقوع البعث، وعن وصفه تعالى بما يوجِب التشبيه حامدًا له تعالى على ما أنعم به عليك مِن إصابة

الحقّ وغيرها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾[١] هما وقت الفجر والعصر، وفضيلتهما مشهورة.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ وسبِّحه بعض الليل، ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصلوات. جمع "دُبُر". وقُرِئ بالكسر[٢] مِن "أدبَرَت الصلاةُ" إذا انقضَت وتمَّت. ومعناه: وقتَ انقضاء السجود. وقيل: المراد بـ"التسبيح" الصلاة، فالمراد بـ"ما قبل الطلوع" صلاةُ الفجر، وبـ"ما قبل الغروب" الظهرُ والعصرُ، وبـ"ما مِن الليل" العشاءان والتهجّد، / و"ما يصلّى بأدبار السجود" النوافلُ بعد المكتوبات. [١٢٦ظ]

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أي: لِما يُوحى إليكَ مِن أحوال القيامة. وفيه تهويل وتفظيع للمخبَر به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾[٣] أي: إسرافيل أو جبريل[٤] عليهما السلام، فيقول: "أيّتها العظام البالية، واللحوم المتمزّقة، والشعور المتفرّقة؛ إنّ الله يأمركنّ أن تجتمِعنَ لفصل القضاء". وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل[٥] ينادي بالحشر. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصِل نداؤه إلى الكلّ على سواء. وقيل: مِن صخرة بيت المقدس. وقيل: مِن تحت أقدامهم. وقيل: مِن مَنابت شعورهم يُسمَع مِن كلّ شعرةٍ. ولعلّ ذلك في الإعادة مثلُ "كُنْ" في البَدْء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدل مِن ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾...[٦] إلخ، وهي النفخة الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلّق بـ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾. والعامل في الظرف ما يدلّ عليه قوله تعالى:

---

[١] م س ي: غروبها.
[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٦.
[٣] م س ي: ينادي المنادي.
[٤] س: جبرائيل.
[٥] س: وجبرائيل.
[٦] م س ي: ينادي. | في الآية السابقة.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾. أي: يوم يسمعون الصيحة ملتبِسةً بالحقّ الّذي هو البعث يخرجون مِن القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا مِن غير أن يشاركنا في ذلك أحد. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة، لا إلى غيرنا، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ۝٤٤﴾

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بحذف إحدى التاءَين مِن "تَتَشَقَّق". وقُرِئ بتشديد "الشين"،[1] و"تُشَقَّقُ"[2] على البناء للمفعول مِن التفعيل، و"تَنْشَقُّ".[3] ﴿سِرَاعًا﴾ مسرعين.

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بَعثٌ وجمعٌ وسَوقٌ ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّنٌ. وتقديم الجارّ والمجرور لتخصيص اليُسر به تعالى.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ مِن نفي البعث وتكذيب الآيات الناطقة به وغيرِ ذلك ممّا لا خيرَ فيه.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمتسلِّط تَقسُرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تريد، وإنّما أنت مذكِّر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وأمّا مَن عداهم فنحن نفعل بهم ما يوجبه أقوالهم، ويستدعيه أعمالهم مِن ألوان العقاب وفنون العذاب.

عن النبيّ صلّى الله تعالى[4] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة ﴿قٓ﴾ هوّنَ الله عليه تاراتِ الموت وسكراته».[5]

---

١ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٢/٣٣٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٤٧.

٤ م – تعالى.

٥ س + الحمد لله ربّ العالمين. | الكشف والبيان للثعلبي، ٩/٩٢؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/١٦٢. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

سُورَةُ قٓ

وتسمى سورة الباسقات

وهي مكية، وأطلق الجمهور ذلك، وفي «التحرير» عن ابن عباس وقتادة أنها مكية إلا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية [٣٨] فهي مدنيَّة نزلت في اليهود[١]، وآيها خمسٌ وأربعون بالإجماع.

ولما أشار سبحانه في آخر السورة السابقة إلى أنَّ إيمانَ أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقّاً، ويتضمَّن ذلك إنكار النبوَّة وإنكار البعث افتتحَ عز وجل هذه السورةَ بما يتعلَّق بذلك.

وكان ﷺ كثيراً ما يقرؤها في صلاة الفجر كما في حديث مسلم وغيره عن جابر بن سمرة[٢]، وفي رواية ابن ماجه وغيره عن قُطْبةَ بن مالك أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرؤها في الركعة الأُولى من صلاة الفجر[٣]. وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن ماجه والترمذي والنسائي عن أبي واقد الليثي أنه ﷺ كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت[٤]. وأخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن أمِّ هشام ابنةِ حارثة قالت: ما أخذتُ «ق والقرآن المجيد» إلا من فِيْ رسولِ الله ﷺ، كان يقرأ بها في كلِّ جمعةٍ على المنبر إذا خطب الناس[٥].

---

(١) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٤٢٤.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٨)، وأخرجه أحمد (٢٠٨٥٤).

(٣) سنن ابن ماجه (٨١٦)، وأخرجه مسلم (٤٥٧).

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠١، ومسند أحمد (٢١٨٩٦)، وصحيح مسلم (٨٩١)، وسنن أبي داود (١١٥٤)، وسنن ابن ماجه (١٢٨٢)، وسنن الترمذي (٥٣٤)، وسنن النسائي ٣/ ١٨٣-١٨٤.

(٥) سنن أبي داود (١١٠٠)، وسنن البيهقي ٣/ ٢١١، ومصنف ابن أبي شيبة ٢/ ١١٥، ولم نقف عليه عند ابن ماجه، وأخرجه أحمد (٢٧٤٥٦)، ومسلم (٨٧٣).

وفي حديث ابن مردويه عن أبي العلاء ﷺ مرفوعاً: «تَعلَّموا: ق والقرآن المجيد».

وكل ذلك يدلُّ على أنها من أعظمِ السور.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾ ذي المَجْد والشَّرف من باب النَّسب كـ: لابِن وتامِر، وإلا فالمعروفُ وصف الذات الشريفة به، وصنيعُ بعضهم ظاهرٌ في اختيار هذا الوجه، وأُورد عليه أن ذلك غير معروف في فعيل كما قاله ابنُ هشام في: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [الأعراف:٥٦][1] وأنت تعلم أنَّ من حَفِظَ حُجَّةٌ على من لم يحفظْ، وشرفُه على هذا بالنسبة لسائر الكتب؛ أما غير الإلهية فظاهر، وأما الإلهية فلإعجازه وكونه غيرَ منسوخ بغيره، واشتماله مع إيجازه على أسرار يضيقُ عنها كلُّ واحد منها، وقال الراغب: المجدُ: السَّعة في الكرم، وأصله: مَجَدَتِ الإبلُ، إذا وقعت في مرعى كثير واسع، ووصف القرآن به لِكَثْرةِ ما يتضمَّن من المكارم الدنيوية والأُخروية[2]. ويجوز أن يكونَ وصفُه بذلك لأنه كلامُ المجيد، فهو وصفٌ بصفةِ قائله، فالإسناد مجازيٌّ كما في «القرآن الحكيم»، أو لأنَّ مَن عَلِمَ معانيه وعَمِلَ بما فيه مُجِّدَ عند الله تعالى وعند الناس، فالكلام بتقدير مضاف حُذف فارتفع الضميرُ المضافُ إليه، أو فَعيل فيه بمعنى مُفْعِل، كبديع بمعنى مُبْدِع، لكن في مجيء فعيل وصفاً من الإفعال كلامٌ، وأكثرُ أهل اللغة والعربية لم يُثبته.

وأكثرُ ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١] يجري هاهنا حتى إنه قيل: يجوز أن يكون «ق» أمراً من مُفاعلة قَفا أثره، أي: تَبِعه، والمعنى: اتَّبِع القرآنَ واعْمَلْ بما فيه، ولم يُسمع مأثوراً، ومثله ما قيل: إنه أمرٌ بمعنى: قف، أي: قفْ عند ما شرع لك ولا تجاوزه.

---

(١) مغني اللبيب ص٦٦٦.

(٢) المفردات (مجد).

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحراً محيطاً بها، ومن وراء ذلك جبلاً يقال له: قاف، السماء الدنيا مُترفرفة عليه، ثم خَلَق من وراءِ ذلك الجبلِ أرضاً مثل تلك الأرض سبع مرات، ثم خلق من وراء ذلك بحراً محيطاً بها، ثم خلق وراء ذلك جبلاً يقال له قاف، السماءُ الثانية مُترفرفة عليه، حتى عدَّ سبعَ أَرَضين وسبعةَ أَبحر وسَبعة أَجْبُل، ثم قال: وذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان:٢٧](١).

وأخرج ابن أبي الدنيا في «العقوبات» وأبو الشيخ عنه أيضاً أنه قال: خلق اللهُ تعالى جبلاً يقال له: قاف، محيطاً بالعالم وعروقُه إلى الصخرة التي عليها الأرض، فإذا أراد الله تعالى أن يزلزل قريةً أمر ذلك الجبل فحرَّك العِرق الذي يلي تلك القرية فيزلزلها ويحرِّكها، فمن ثم تُحرَّك القرية دون القرية(٢).

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» والحاكم وابن مردويه عن عبد الله بن بُريدة أنه قال في الآية: قاف جبلٌ من زُمرد محيطٌ بالدنيا عليه كنفا السماء(٣).

وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد أنه أيضاً قال: هو جبل محيط بالأرض(٤).

وذهب القرافيُّ إلى أنَّ جبلَ قاف لا وجودَ له، وبرهن عليه بما برهن ثم قال: ولا يجوزُ اعتقادُ ما لا دليلَ عليه.

وتعقَّبه ابن حجر الهيتمي فقال: يردُّ ذلك ما جاء عن ابن عباس من طُرق خرَّجها الحُفَّاظ وجماعة منهم ممن التزموا تخريجَ الصحيح، وقولُ الصحابي ذلك ونحوه مما لا مجالَ للرأي فيه حكمه حُكمُ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ: إنَّ وراءَ أرضنا

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٠١ ونسبه لابن أبي حاتم، وسلف عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام، ولم نقف عليه في تفسير الطبري. قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: هذا من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٢، والعظمة لأبي الشيخ (٩٩٢).

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠١، والعظمة (٩٩٣)، والمستدرك ٢/ ٤٦٤، ووقع في مطبوع العظمة: كتفا، بدل: كنفا. وإسناده ضعيف كما ذكرنا عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٤) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٣٦.

بحراً محيطاً، ثم جبلاً يقال له: قاف، إلى آخر ما تقدَّم، ثم قال: وكما يندفع بذلك قوله: لا وجودَ له، يندفعُ قولُه: ولا يجوزُ اعتقاد.. إلخ؛ لأنه إن أراد بالدليل مطلق الأمارة فهذه عليه أدلة، أو الأمارة القطعية فهذا مما يكفي فيه الظنُّ كما هو جليٌّ[١]. انتهى.

والذي أذهب إليه ما ذهب إليه القَرَافي من أنه لا وجودَ لهذا الجبل بشهادة الحسِّ، فقد قطعوا هذه الأرضَ بَرَّها وبَحْرَها على مدار السرطان مراتٍ فلم يُشاهدوا ذلك، والطعنُ في صحَّةِ هذه الأخبار وإن كان جماعةٌ من رُواتها ممن التزم تخريجَ الصحيح أهونُ من تكذيب الحسِّ، وليس ذلك من باب نفي الوجود لعدمِ الوجدان كما لا يخفى على ذوي العرفان. وأمر الزلزلة لا يتوقَّف على ذلك الجبل، بل هي من الأبخرة وطلبِها الخروج مع صلابة الأرض، وإنكارُ ذلك مُكابرةٌ عند من له أدنى عرقٍ من الإنصاف، والله تعالى أعلم.

واختُلف في جواب القَسَم فقيل: محذوفٌ يُشعر به الكلام، كأنه قيل: والقرآنِ المجيد إنَّا أنزلناه لِتُنذِرَ به الناس، وقدَّره أبو حيان: إنك جئتهم منذراً بالبعث[٢]. ونحو[٣] ما قيل: هو: إنك لمنذرٌ. وقيل: ما ردُّوا أمرك بحجَّة.

وقال الأخفش والمبرِّد والزجاج: تقديره: لَتبعثنَّ[٤].

وقيل: هو مذكور؛ فعن الأخفش «قد علمنا ما تنقص الأرض منهم» وحُذفت اللام لطُول الكلام. وعنه أيضاً وعن ابن كيسان: «ما يَلْفِظُ من قول» وقيل: «إنَّ في ذلك لذكرى» وهو اختيارُ محمد بن علي الترمذي[٥]. وقيل: «ما يُبدَّل القولُ لدي».

---

(١) سلف كلام ابن حجر عند تفسير الآية (٩٦) من سورة الأنعام.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٣) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: ونحوه.

(٤) مذهب الأخفش في معاني القرآن ٢/ ٦٩٦ أن الجواب: «قد علمنا ما تنقص»، وسيذكره المصنف، ومذهب الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤١ أن تقدير الجواب: إنكم لمبعوثون. وما ذكره المصنف نقله عن البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

(٥) ينظر تفسير القرطبي ١٩/ ٤٢٧-٤٢٨.

وعن نُحاة الكوفة هو قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾. وما ذُكر أولاً هو المُعوَّل عليه.

و«بل» للإضراب عمَّا يُنبئ عنه جوابُ القَسَم المحذوف، فكأنه قيل: إنَّا أنزلناه لِتُنذِرَ به الناسَ فلم يؤمنوا به، بل جعلوا كلًّا من المُنذِر والمُنذَر به عُرضةً للتكبُّر والتعجُّب مع كونهما أوفقَ شيء لقضية العقول وأقربَه إلى التلقِّي بالقَبول.

وقيل: التقدير: إنك جئتَهم منذراً بالبعث فلم يقبلوا، بل عَجِبُوا، أو: فشكُّوا فيه، بل عَجِبوا، على معنى: لم يكتفوا بالشكِّ والردِّ، بل جزموا بالخِلاف حتى جعلوا ذلك من الأمور العجيبة.

وقيل: هو إضرابٌ عمَّا يُفهم من وصفِ القرآن بالمجيد،كأنه قيل: ليس سببَ امتناعهم من الإيمان بالقرآن أن لا مجدَ له، ولكن لجهلهم، ونبَّه بقوله تعالى: «بل عَجِبوا» عليه؛ لأنَّ التعجُّب من الشيء يقتضي الجهلَ بسببِهِ. قال في «الكشف»: وهو وجهٌ حسن.

و«أنْ جاءهم» بتقدير: لأنْ جاءهم، ومعنى «منهم»: من جِنْسهم، أي: من جنس البشر أو من العرب، وضمير الجمع في الآية عائدٌ على الكُفَّار، وقيل: عائدٌ على الناس، وليس بذاك.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾ تفسيرٌ لتعجُّبهم، وبيانٌ لكونه مقارناً لغاية الإنكار مع زيادة تفصيل لمحلِّ التعجُّب، و«هذا» إشارةٌ إلى كونه عليه الصلاة والسلام منذراً بالقرآن، وإضمارهم أولاً للإشعار بتعيُّنهم بما أُسند إليهم، وإظهارهم ثانياً للتسجيل عليهم بالكفر بموجبه. أو عطفٌ لتعجُّبهم من البعث على تعجُّبهم من البعثة، وعطفُه بالفاء لوقوعه بعدَه وتفرُّعِهِ عليه لأنه إذا أنكر المبعوث أنكر ما بُعِثَ به أيضاً، على أن «هذا» إشارةٌ إلى مُبهم ـ وهو البعث ـ يُفسِّره ما بعدَه من الجملة الإنكارية، ودلَّ عليه السِّياق أيضاً لأنه دلَّ على أن ثَمَّ منذَراً به، ومعلومٌ أن إنذارَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أول كلِّ شيء بالبعث وما يَتْبعه.

ووُضِعَ المُظهر موضعَ المُضمر إما لِسَبْقِ اتِّصافهم بما يُوجب كُفرَهم؛ وإما للإيذان بأنَّ تعجُّبهم من البعث ـ لدلالته على استقصارهم لِقُدرة الله سبحانه عنه مع مُعاينتهم لقُدرته عز وجل على ما هو أشقُّ منه في قياس العقل من مصنوعاته البديعة ـ أشنع من الأول وأعرق في كونه كفراً.

وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ تقرير للتعجُّب وتأكيدٌ للإنكار، أو بيانٌ لموضع تعجُّبهم، والعامل في «إذا» مضمرٌ غنيٌّ عن البيان لغاية شُهرته مع دَلالة ما بعدَه عليه، أي: أحين نموت ونصيرُ تراباً نرجع كما ينطقُ به النذير والمُنذَر به مع كمال التباين بيننا وبين الحياة حينئذ.

وقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى محلِّ النزاع وهو الرجعُ والبعث بعد الموت، أي: ذلك الرجعُ ﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾ أي: عن الأوهام أو العادة أو الإمكان.

وقيل: الرَّجْعُ بمعنى المرجوع، أي: الجواب، يقال: هذا رَجْعُ رسالتك ومرجوعُها ومرجوعتها، أي: جوابها، والإشارة عليه إلى «أئذا متنا» إلخ، والجملةُ من كلام الله تعالى، والمعنى: ذلك جوابٌ بعيدٌ منهم لمنذرهم، وناصبُ «إذا» حينئذ ما يُنبئ عنه المُنذِرُ من المُنذَر به وهو البعث، أي: أئذا متنا وكُنَّا تراباً بُعثنا. وقد يقال: إنه لمَّا تقرَّر أن ذلك جوابٌ منهم لمنذِرهم فقد عُلم أنه أنذرهم بالبعث ليصلحَ ذلك جواباً له، فهو دليلٌ أيضاً على المُقدَّر، فالقولُ بأنه إذا كان الرَّجع بمعنى المرجوع، وهو الجواب، لا يكون في الكلام دليلٌ على ناصب «إذا» مندفع. نعم هذا الوجه في نفسهِ بعيدٌ، بل قال أبو حيان[1]: إنه مفهومٌ عجيبٌ ينبو عن إدراكه فَهْمُ العرب.

وقرأ الأعرج وشيبة وأبو جعفر وابن وثَّاب والأعمش وابن عُتبة عن ابن عامر: «إذا» بهمزة واحدة[2] على صورة الخبر، فجاز أن يكونَ استفهاماً حُذفت منه

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٠، والمحتسب ٢/ ٢٨١ وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر وابن عامر.

الهمزة، وجاز أن يكونَ خبراً، قال في «البحر»[1]: وأضمِرَ جوابُ «إذا»، أي: إذا متنا وكنَّا تراباً رَجَعنا، وأجاز صاحبُ «اللوامح» أن يكونَ الجوابُ: «ذلك رَجْعٌ بعيدٌ» على تقدير حذف الفاء، وقد أجاز ذلك بعضُهم في جواب الشرط مطلقاً إذا كان جملةً اسمية. وقَصَره أصحابُنا على الشعر في الضرورة.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكل من لحوم موتاهم وعظامهم وأشعارهم، وهو ردٌّ لاستبعادهم بإزاحة ما هو الأصل فيه، وهو أن أجزاءهم تفرَّقت فلا تُعلم حتى تُعاد بزعمهم الفاسد.

وقيل: «ما تنقصُ الأرضُ منهم»: مَن يموت فيدفَنُ في الأرض منهم، ووجهُ التعبير بـ «ما» ظاهرٌ. والأولُ أظهرُ، وهو المأثور عن ابن عباس وقتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾ تعميمٌ لعلمه تعالى، أي: وعندنا كتابٌ حافظٌ لتفاصيلِ الأشياء كلِّها، ويدخلُ فيها أعمالُهم، أو محفوظٌ عن التغيُّر، والمرادُ إما تمثيلُ عِلْمه تعالى بكليات الأشياء وجُزئياتها بعِلْمِ مَنْ عنده كتابٌ حفيظ يتلقَّى منه كلَّ شيء، أو تأكيدٌ لعلمه تعالى بثبوتها في اللوح المحفوظ عنده سبحانه.

هذا، وفي الآية إشارةٌ إلى ردِّ شُبهةٍ تمسَّكَ بها مَنْ يرى استحالةَ إعادة المعدوم ونفَى البعث لذلك بناءً على أن أجزاءَ الميتِ تُعدم ولا تتفرَّق فقط. وحاصلُها أنَّ الشيءَ إذا عدم ولم يستمرَّ وجودُه في الزمان الثاني ثم أُعيد في الزمان الثالث لزم التحكُّم الباطل في الحكم بأنَّ هذا الموجودَ المتأخِّر هو بعينه الموجود السابق لا موجود آخر مثله مستأنف، إذ لمَّا فقد هوية الموجود الأول لم يبقَ منه شيء من الموضوع والعوارض الشخصية حتى يكون الموجودُ الثاني مشتملاً عليه، ويكون مرجِّحاً للحكم المذكور ويندفع التحكُّم.

وحاصلُ الرَّدِّ على أنَّ الله تعالى عليمٌ بتفاصيل الأشياء كلِّها، يعلم كُلِّيَّاتها وجُزئياتِها على أتمّ وجهٍ وأكمله. فللمعدوم صورةٌ جزئية عنده سبحانه، فهو محفوظٌ بعوارضه الشخصية في علمه تعالى البليغ على وجهٍ يتميَّز به عن المستأنف، فلا يلزم

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٠.

التحكّم، ويكون ذلك نظيرَ انحفاظ وَحْدة الصورة الخيالية فينا بعد غيبة المحسوس عن الحِسّ، كما إذا رأينا شخصاً فغاب عن بصرنا ثم رأيناه ثانياً فإنا نحكم بأنَّ هذا الشخصَ هو مَن رأيناه سابقاً، وهو حكمٌ مطابق للواقع مبنيٌّ على انحفاظ وحدةِ الصورة الخيالية قطعاً، ولا يُنكره إلا مكابرٌ.

وقال بعضُ الأشاعرة: إنَّ للمعدوم صورةً جزئية حاصلةً بتعلُّق صفةِ البصر من المُوجِد وهو الله تعالى، وليست تلك الصورةُ للمستأنَف وجوده، فإن صورتَه وإن كانت جزئيةً حقيقيةً أيضاً إلا أنها لم تترتب على تعلُّق صفة البصر، ولا شكَّ أن المترتِّب على تعلُّق صفة البصر أكملُ من غير المترتِّب عليه، فبين الصورتين تمايزٌ واضح، وإذا انحفظ وحدة الموجودِ الخارجي بالصور الجُزئية الخيالية لنا فانحفاظُها بالصورة الجزئية الحاصلةِ له تعالى بواسطة تعلُّق صفة البصر بالطريق الأَولى. انتهى، وهو حسنٌ لكن لا تُشير الآية إليه.

وأيضاً لا يتمُّ عند القائلين بعدم رؤية الله سبحانه المعدوماتِ مطلقاً، إلا أن أولئك قائلون بثبوتِ هويَّات المعدومات متمايزة تمايزاً ذاتيّاً حالَ العدمِ، فلا تَرِدُ عليهم الشُّبهة السابقة. وقد يقال: إنَّ صفةَ البصر ترجعُ إلى صفة العلم، وتعلُّقاتُه مختلفة، فيجوز أن يكون لِعلمه تعالى تعلُّقاً خاصّاً[1] بالموجود الذي عدم غيرَ تعلُّقه بالمستأنف في حال عدمه، وبذلك يحصلُ الامتياز ويندفعُ التحكُّم، ويقال على مذهب الحكماء: إنَّ صورةَ المعدومِ السابق مُرتسمةٌ في القوى المُنطبعة للأفلاك بناءً على أن صورَ جميع الحوادثِ الجسمانية منطبعةٌ فيها عندهم، فله صورةٌ خياليةٌ جزئية محفوظةُ الوحدة الشخصية بعد فَنائه، بخلافِ المستأنف إذ ليس له تلك الصورة قبل وجوده، وإنما له الصور الكلية في الأذهان العالية والسافلة، فإذا أُوجدت تلك الصورةُ الجزئية كان معاداً، وإذا أُوجدت هذه الصورة الكلية كان مستأنفاً، وربما يدَّعي الإسلامي المتفلسف أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ رمزاً إلى ذلك، وللجلال الدواني كلامٌ في هذا المقام لا يخلو عن نَظَرٍ عند ذوي

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل الوجه: تعلُّقٌ خاصٌّ.

الأفهام. ثم إنَّ البعثَ لا يتوقَّف على صحةِ إعادة المعدوم عند الأكثرين لأنهم لا يقولون إلا بتفرُّق أجزاءِ الميت دون انعدامها بالكلية، ولعلَّ في قوله تعالى حكايةً عن مُنكريه: (أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا) إشارة إلى ذلك، وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليس من الإنسان شيء لا يَبلى إلا عظمٌ واحدٌ، وهو عَجْبُ الذَّنَب، منه يُركَّب الخَلْق يومَ القيامة»[1]. وليس نصّاً في انعدام ما عدا العَجْبِ بالمرَّة؛ لاحتمال أنْ يُرادَ بِبِلَى غيره من الأجزاء انحلالُها إلى ما تركَّبت منه من العناصر، وأما هو فيبقى على العظمية، وهو جزءٌ صغير في العَظْم الذي في أسفل الصُّلب.

ومن كلام الزمخشري: العَجْب أمره عَجَب هو أولُ ما يُخلَق وآخرُ ما يَخْلُق[2].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ إضرابٌ أُتبِعَ الإضرابَ الأول للدلالةِ على أنهم جاؤوا بما هو أفظعُ من تعجُّبهم، وهو التكذيبُ بالحقِّ ـ الذي هو النبوَّة الثابتةُ بالمُعجزات ـ في أول وَهْلة من غير تفكُّر ولا تدبُّر، فكأنه بدلُ بداءٍ[3] من الأول، فلا حاجةَ إلى تقدير: ما أجادوا النظر، بل كذَّبوا، أو: لم يَكذب المنذِرُ بل كذَّبوا. وكون التكذيب المذكور أفظعَ قيل: من حيث إن تكذيبهم بالنبوَّة تكذيبٌ بالمُنبَّأ به أيضاً، وهو البعثُ وغيره. وقيل: لأنَّ إنكارَ النبوَّة في نفسه أفظعُ من إنكار البعث، وربَّما لا يتمُّ عند القائلين بأن العقلَ مستقلٌّ بإثبات أصل الجزاء، على أنَّ من الجائز أن يكونوا قد سمعوا بالبعث من أصحابِ ملل أُخرى، بخلاف نبوَّته عليه الصلاة والسلام خاصَّة.

وقيل: المرادُ بالحقِّ الإخبارُ بالبعث، ولا شكَّ أنَّ التكذيبَ أسوأ من التعجُّب وأفظعُ، فهو إضرابٌ عن تعجُّبهم بالمنذِر والمنذَر به إلى تكذيبهم.

---

(١) صحيح البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥)، وسنن أبي داود (٨٢٨٣)، والنسائي ٤/ ١١١-١١٢.

(٢) الفائق ٢/ ٣٩٨ بنحوه.

(٣) وهو ما لا تناسب بينه وبين الأول بموافقة ولا خبرية، بل هما متباينان لفظاً ومعنى، ويسمى أيضاً بدل الإضراب. أوضح المسالك ص ٥١١، وهمع الهوامع ٣/ ١٧٨.

وقيل: المرادُ به القرآن، والمضروبُ عنه عليه ـ على ما قال الطيبي ـ قوله تعالى: «ق والقرآن المجيد»، وجعل كبدل البداء من الإضراب الأول على أنه إضرابٌ عن حديث القرآن ومَجْده إلى التعجُّب من مجيء مَنْ أنذرهم بالبعث الذي تضمَّنه، وأنَّ هذا إضرابٌ إلى التصريح بالتكذيبِ به ويتضمَّن ذلك إنكارَ جميع ما تضمَّنه، كذا قيل، فتأمَّل.

وقرأ الجحدري: «لِمَا» بكسر اللام وتخفيفِ الميم[1]، فاللام توقيتيَّةٌ بمعنى «عند»، نحوها في قولك: كَتَبه لخمسٍ خَلَوْنَ، مثلاً، و«ما» مصدرية، أي: بل كذَّبوا بالحقِّ عند مَجيئه إيَّاهم.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾ مضطربٍ، من مَرِجَ الخاتمُ في إصبعه: إذا قَلِقَ من الهُزال، والإسناد مجازيٌّ كما في ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١] مبالغة بجعل المُضطرِب الأمرَ نَفْسه، وهو في الحقيقةِ صاحبُه، وذلك نَفْيُهم النبوَّة عن البشر بالكلية تارةً، وزعمهم أنَّ اللائقَ بها أهلُ الجاه والمال كما يُنبئ عنه قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] تارة أُخرى، وزَعْمهم أن النبوَّةَ سحرٌ مرَّة، وأنها كهانة أُخرى، حيث قالوا في النبيِّ عليه الصلاة والسلام مرَّة: ساحر، ومرَّة: كاهن، أو هو اختلافُ حالهم ما بين تعجُّب من البعث واستبعادٍ له، وتكذيبٍ وتردُّدٍ فيه، أو قولهم في القرآن: هو شعرٌ، تارة، و: هو سحرٌ، أُخرى، إلى غير ذلك.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ أي: أَغفلوا ـ أو: عَموا ـ فلم ينظروا حين كفروا بالبعث ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ بحيث يُشاهدونها كلَّ وقت، قيل: وهذا ظاهرٌ على ما هو المعروفُ بين الناس من أنَّ المُشاهَد هو السماءُ التي هي الجِرْم المخصوصُ الذي يُطوى يومَ القيامة، وقد وُصف في الآيات والأحاديث بما وصف. وأما على ما ذهب إليه الفلاسفةُ من أنَّ المُشاهَد إنما هو كرةُ البخار، أو هواء ظهر بهذا اللون ولا لون له حقيقةً ودون ذلك الجرم، ففيه خَفاءٌ.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢١.

وقال بعضُ الأفاضل في هذا المقام: إن ظواهرَ الآيات والأخبار ناطقةٌ بأنَّ السماءَ مَرْئيَّةٌ، وما ذكره الفلاسفة المتقدِّمون من أنَّ الأفلاكَ أجرام صُلبةٌ شفافةٌ لا تُرى، غيرُ مُسَلَّم أصلاً، وكذا كون السماوات السبع هي الأفلاكَ السبعة، غير مُسَلَّم عند المحقِّقين، وكذا وجود كُرة البخار، وأنَّ ما بين السماء والأرض هواءٌ مختلفُ الأجزاء في اللَّطافة، فكلَّما علا كان ألطفَ حتى إنه ربَّما لا يصلح للتعيُّش، ولا يمنع خروجَ الدم من المسامِّ الدقيقة جدًّا لمن وصل إليه، وإنَّ رؤية الجوِّ بهذا اللون لا يُنافي رؤيةَ السماء حقيقةً وإن لم تكن في نَفْسها ملوَّنة به، ويكون ذلك كرؤية قَعْر البحر أخضرَ من وراء مائه، ونحو ذلك مما يرى بواسطة شيء على لون، وهو في نفسه على غيرِ ذلك اللون. بل قيل: إنَّ رؤية السماء مع وجود كرة البخار على نحو رؤية الأجرام المضيئة كالقمر وغيره.

وأنت تعلم أنَّ الأصحاب مع الظواهر حتى يظهر دليلٌ على امتناع ما يدلُّ عليه وحينئذ يُؤَوِّلونها، وأنَّ التزامَ التطبيق بين ما نَطَقتْ به الشريعة وما قاله الفلاسفة مع إكذاب بعضِه بعضاً أصعبُ من المشي على الماء أو العروج إلى السماء.

وأنا أقول: لا بأسَ بتأويل ظاهرٍ تأويلاً قريباً لشيء من الفلسفة إذا تضمَّن مصلحةً شرعية، ولم يستلزم مَفْسدةً دينية، وأرى الإنصاف من الدين، وردُّ القول احتقاراً لقائله غيرُ لائق بالعلماء المُحقِّقين.

هذا، وحَمَلَ بعضٌ «السماء» هاهنا على جنس الأجرام العلوية، وهو كما ترى، والظاهر أنها الجِرْم المخصوص وأنها السماء الدنيا، أي: أفلم ينظروا إلى السماء الدنيا ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أحكمناها ورفعناها بغير عَمَد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ للناظرين بالكواكب المُرتَّبة على أبدع نظام ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ أي: من فتوق وشقوق، والمرادُ سلامتها من كلِّ عيب وخَلَل، فلا يُنافي القولَ بأن لها أبواباً، وزعم بعضُهم أن المرادَ: متلاصقةُ الطِّباق، وهو يُنافي ما ورد في الحديث من أنَّ بين كلِّ سماء وسماء مسيرةَ خمس مئة عام[1]، ولعلَّ تأخيرَ هذا لمراعاة الفواصل.

---

(١) سلف ٢/٣١.

وقيل هاهنا: «أفلم ينظروا» بالفاء، وفي موضع آخر: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٥] بالواو؛ لسبق إنكار الرَّجْع فناسَبَ التعقيب بما يُشعر بالاستدلال عليه، وجيء بالنظر دون الرؤية كما في «الأحقاف»[١] استبعاداً لاستبعادهم، فكأنه قيل: النظرُ كافٍ في حصول العلم بإمكان الرَّجع، ولا حاجةَ إلى الرؤية، قاله الإمام[٢]، واحتجَّ بقوله سبحانه: «ما لها من فروج» للفلاسفة على امتناع الخَرْق، وأنت تعلم أنَّ نفي الشيء لا يدلُّ على امتناعه، على أنك قد سمعت المراد بذلك، ولا يضرُّ كونُه ليس معنًى حقيقياً؛ لشيوعه.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ بسطناها، وهو لا يُنافي كرويَّتها التامَّة أو الناقصة من جهة القطبين لمكان العظم ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ جبالاً ثوابت تمنعها من المَيْد كما يدلُّ عليه قوله تعالى في آية أُخرى: ﴿رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] وهو ظاهرٌ في عدمِ حركة الأرض، وخالف في ذلك بعضُ الفلاسفة المتقدِّمين، وكلُّ الفلاسفة الموجودين اليوم، ووافقهم بعضُ المغاربة من المسلمين، فزعموا أنها تتحرَّك بالحركة اليومية بما فيها من العناصر، وأبطلوا أدلةَ المتقدِّمين العقلية على عدم حركتها، وهل يكفَّر القائل بذلك؟ الذي يغلب على الظَّنِّ: لا.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ صنف ﴿بَهِيجٍ ۝٧﴾ حسن يُبهج ويَسرُّ مَن نَظَرَ إليه ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾ راجعٍ إلى ربِّه، وهو مجازٌ عن التفكُّر في بدائعِ صُنعه سبحانه بتنزيل التفكُّر في المصنوعات منزلةَ الرجوع إلى صانعها، و«تبصرة وذكرى» عِلَّتان للأفعال السابقةِ معنى، وإن انتصبا بالفعلِ الأخير، أو لفعل مقدَّر بطريق الاستئناف، أي: فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً، وقال أبو حيان[٣]: منصوبان على المصدرية لفعل مقدَّر من لفظهما، أي: بصَّرنا وذكرنا، والأول أولى.

وقرأ زيد بن عليٍّ: «تبصرةٌ وذكرى» بالرفع[٤] على معنى: خَلْقُهما تبصرةٌ وذكرى.

---

(١) الآية (٣٣)، وهي قوله تعالى: «أولم يروا أن الله خلق السموات والأرض..».
(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ١٥٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢١.
(٤) المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي: كثير المنافع، شروعٌ في بيان كيفية ما ذكر من إنبات كلِّ زوجٍ بهيج، وهو عطفٌ على «أنبتنا»، وما بينهما على الوجهين الأخيرين اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلَه ومُنبِّه على ما بعدَه ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ كثيرة كما يقتضيه المقامُ، أي: أشجاراً ذاتَ ثمار ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩﴾ أي: حبّ الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البُرّ والشعير وأمثالهما، فالإضافة لما بينهما من المُلابسة، و«الحصيد» بمعنى المحصود، صفة لموصوف مُقدَّر كما أشرنا إليه، فليس من قَبيل مسجد الجامع، ولا من مجاز الأوّل[١] كما تُوهِّم، وتخصيص إنبات حَبِّه بالذِّكر؛ لأنه المقصودُ بالذات.

﴿وَالنَّخْلَ﴾ عطفٌ على «جنات» وهي اسمُ جنس تُؤنَّث وتُذكَّر وتُجمع، وتخصيصها بالذِّكر مع اندراجها في الجنات لبيان فَضْلها على سائر الأشجار، وتوسيطُ الحبِّ بينهما لتأكيدِ استقلالها وامتيازها عن البقية مع ما فيه من مُراعاة الفواصل.

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ أي: طوالاً أو حوامل، من: أبسقت الشاةُ: إذا حَمَلَتْ، فيكون على هذا من أفعل فهو فاعل، والقياسُ مُفْعِل، فهو من النوادر كالطوائح واللواقح في أخواتٍ لها شاذَّةٍ، ويافع من أَيْفَعَ، وباقل من أَبْقَلَ، ونصبُه على أنه حالٌ مقدَّرة. وروى قُطبة بن مالك عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ: «باصقات» بالصاد[٢]، وهي لغةٌ لبني العنبر، يُبدلون من السين صاداً إذا وَلِيتها، أو فصل بحرف أو حرفين خاء معجمة أو عين مهملة أو طاء كذلك أو قاف.

﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ منضود بعضُه فوقَ بعض، والمرادُ: تراكم الطَّلع أو كَثْرة ما فيه من مادة الثمر، والجملةُ حال من النخل كـ «باسقات» بطريق الترادف، أو من

---

(١) وهو من تسمية الشيء بما يؤول إليه، كتسمية العنب خمراً. الكليات ص٣٠٣.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٦: فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ. والخبر أخرجه مسلم (٤٥٧)، والدوري في جزء فيه قراءات النبي ﷺ ص ١٥١، عن قطبة أيضاً لكن بالسين كما في قراءة الجمهور.
والقراءة بالصاد ذكرها ابن جنّي في المحتسب ٢/ ٢٨٢، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٥، والقرطبي في التفسير ١٩/ ٤٣٣، وأبو حيان في البحر ٨/ ١٢٢.

ضميرها في «باسقات» على التداخل، وجوِّز أن يكون الحالُ هو الجارَّ والمجرور، و«طلع» مرتفعٌ به على الفاعلية.

وقوله تعالى: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ ـ أي: ليرزقهم ـ عِلَّةٌ لقوله تعالى: «فأنبتنا»، وفي تعليله بذلك بعد تعليل «أنبتنا» الأول بالتبصير والتذكير تنبيهٌ على أنَّ اللائقَ بالعبدِ أن يكون انتفاعه بذلك من حيث التذكُّرُ والاستبصار أقدمَ وأهمَّ من تمتُّعه به من حيث الرزق. وجُوِّز أن يكون «رزقاً» مصدراً من معنى «أنبتنا» لأن الإنباتَ رزقٌ، فهو من قَبيل: قعدتُ جلوساً، وأن يكون حالاً بمعنى مرزوقاً.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ أي: بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أرضاً جدبة لا نماء فيها، بأَنْ جعلناها بحيث رَبَتْ وأنبتت، وتذكير «ميتاً» لأنَّ البلدةَ بمعنى البلد والمكان.

وقرأ أبو جعفر وخالد: «مَيِّتاً» بالتثقيل[1].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ جملة قُدِّم فيها الخبر للقصد إلى القصر، و«ذلك» إشارةٌ إلى الحياة المُستفادة من الإحياء، وما فيه من معنى البُعد إشعارٌ ببعد الرُّتبةِ، أي: مثل تلك الحياة البديعة حياتُكم بالبعث من القُبور لا كشيء مُخالِف لها.

وفي التعبير عن إخراجِ النبات من الأرض بالإحياء وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، وتحقيقٌ للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى، لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس.

وجُوِّز أن يكون الكاف في محلِّ رفع على الابتداء و«الخروج» خبر، ونُقل عن الزمخشري[2] أنه قال: «كذلك» الخبر، وهو الظاهر، ولكونه مبتدأ وجهٌ، وهو أن يقال: «ذلك الخروجُ» مبتدأٌ وخبر على نحو: أبو يوسف أبو حنيفة، والكاف واقعٌ موقعَ مثل في قولك: مثل زيد أخوك. ولا يخفى أنه تكلُّف.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى آخره، استئنافٌ واردٌ لتقرير حقِّيَّة[3]

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٢، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٢٤.
(٢) الكشاف ٤/ ٥.
(٣) في الأصل: حقيقة، والمثبت من (م).

البعث ببيان اتِّفاق كافَّة الرُّسل عليهم الصلاة والسلام عليها وتكذيب مُنكريها، وفي ذلك أيضاً تسليةٌ للنبيِّ ﷺ وتهديدٌ للكفرة ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ هو البئر التي لم تُبْنَ، وقيل: هو وادٍ. وأصحابه قيل: هم ممن بُعث إليهم شعيبٌ عليه السلام، وقيل: قومُ حنظلة بن صفوان. ﴿وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أُريد هو وقومه لِيُلائم ما قبلَه وما بعدَه، وهذا كما تُسمَّى القبيلة تميماً مثلاً باسم أبيها ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ قيل: كانوا من أَصهاره عليه السلام، فليس المرادُ الأُخُوَّةَ الحقيقية من النسب. ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ قيل: هم قومٌ بُعِثَ إليهم شُعيب عليه السلام غير أهل مَدْين كانوا يَسكنون أيكةً، وهي الغَيْطة، فَسُمُّوا بها ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ الحِمْيَري، وكان مؤمناً وقومه كَفَرة، ولذا لم يُذَمَّ هو وذُمَّ قومه، وقد سبق في «الحجْر» و«الدخان» و«الفرقان» تمامُ الكلام فيما يتعلَّق بما في هذه الآية.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: فيما أُرسلوا به من الشرائع التي من جُملتها البعثُ الذي أَجمعوا عليه قاطبةً، أي: كلُّ قوم من الأقوام المذكورين كذَّبوا رسولَهم، أو: كذَّب كلُّ هؤلاء جميعَ رُسُلهم، وإفراد الضمير باعتبار لفظ الكُلّ، أو: كلُّ واحدٍ منهم كذَّب جميعَ الرُّسل لاتفاقهم على الدعوة إلى التوحيد والإنذار بالبعث والحشر، فتكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ للكلِّ، والمرادُ بالكلية التكثير كما في قوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] وإلا فقد آمن مَنْ آمن من قوم نوح، وكذا من غيرهم. ثم ما ذُكر على تقدير رسالة تُبَّع ظاهر، ثم على تقدير عَدَمِها ـ وعليه الأكثر ـ فمعنى تكذيب قومِهِ الرُّسُلَ عليهم السلام تكذيبُهم بما قبلُ من الرُّسل المجتمعين على التوحيد والبعث، وإلى ذلك كان يدعوهم تُبَّع.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: فوجب وحلَّ عليهم وعيدي، وهي كلمةُ العذاب.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ استئنافٌ مُقرِّر لصحَّةِ البعث الذي حُكيت أحوال المُنكرين له من الأمم المُهلكة. والعِيُّ بالأمر العَجْز عنه لا التعب، قال الكسائي: تقول: أَعْيَيْتُ من التعب، وعَيِيْتُ من انقطاع الحِيْلة والعجز عن الأمر، وهذا هو المعروفُ والأفصحُ وإن لم يُفرِّق بينهما كثير، والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على

مُقدَّر يُنبئ عنه العيُّ من القصد والمباشرة، كأنه قيل: أَقَصَدْنا الخَلْقَ الأوَّل ـ وهو الإبداء ـ فَعَجَزْنا عنه حتى يُتوهَّم عَجْزُنا عن الإعادة.

وجَوَّز الإمام[1] أنْ يكون المرادُ بالخَلْق الأول خلقَ السماء والأرض، ويدلُّ عليه قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣] ويُؤيِّده قوله تعالى بعدُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَٰنَ﴾ إلخ، وهو كما ترى.

وعن الحسن: الخَلْقُ الأوَّل آدمُ عليه السلام. وليس بالحسن.

وقرأ ابن أبي عبلةَ والوليدُ بن مسلم والقورصي عن أبي جعفر، والسمسار عن شيبة، وأبو بحر عن نافع: «أفعيّنا» بتشديد الياء[2]، وخُرِّجَتْ على لغةٍ من أدغم الياء في الياء في الماضي فقال: عيَّ في عَيِيَ، وحيَّ في حَيِيَ، فلما أدغم ألحقه ضميرَ المُتكلِّم المُعظِّم نَفْسَه، ولم يفكَّ الإدغام فقال: عَيَّنا، وهي لغةٌ لبعض بكر بن وائل في رَدَدْتُ ورَدَدْنا: رَدْتُ ورَدْنا، فلا يَفُكُّون، وعلى هذه اللغة تكونُ الياء المشدَّدة مفتوحةً، ولو كانت «نا» ضميرَ نَصْبٍ فالعربُ جميعُهم على الإدغام، نحو: ردَّنا زيدٌ.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑮﴾ عطفٌ على مُقدَّر يدلُّ عليه ما قبلَه، كأنه قيل: إنهم معترفون بالأول غير مُنكرين قُدرتنا عليه، فلا وجهَ لإنكارهم الثاني، بل هم في خَلْطٍ وشُبهة في خَلْق مستأنف، وإنما نُكِّر الخَلْق ووُصِفَ بـ «جديد» ولم يقل: من الخَلْق الثاني، تنبيهاً على مكان شُبهتهم واستبعادهم العادي بقوله سبحانه: «جديد»، وأنه خَلْقٌ عظيم يجبُ أن يُهتمَّ بشأنه، فله نبأ أيُّ نبأ، والتعظيم ليس راجعاً إلى الخَلْق من حيث هو هو حتى يقال: إنه أهونُ من الخَلْق الأول بل إلى ما يتعلَّق بشأن المُكلَّف وما يُلاقيه بعدَه وهو هو. وقال بعضُ المحقِّقين: نُكِّر؛ لأنه لاستبعاده عندهم كان أمراً عظيماً. وجُوِّز أنْ يكون التنكيرُ للإبهام إشارةً إلى أنه خلقٌ على وجهٍ لا يعرفه الناس.

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٦٢.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٣، وقراءة نافع وأبي جعفر غير المشهورة عنهما، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٤٤ أنَّ ابن أبي عبلة قرأ: «أفعيِّينا» بزيادة ياء بعد التشديد.

وأورد الشيخُ الأكبر قُدِّس سِرُّه هذه الآيةَ في معرض الاستدلال على تجدُّد الجواهر كالتجدُّد الذي يقوله الأشعري في الأعْراض، فكلٌّ منهما عند الشيخ لا يبقى زمانين، ويُفهم من كلامه قُدِّس سرُّه أن ذلك مبنيٌّ على القول بالوَحْدة وأنَّه سبحانه كلَّ يوم هو في شأن، ولعمري إن الآية بمعْزِل عمَّا يقول.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما تُحدِّثه به، وهو ما يخطر بالبال، والوسوسةُ: الصوتُ الخَفِيُّ، ومنه: وسواس الحَلْي. وضمير «به» لـ «ما» وهي موصولة، والباء صِلة «توسوس»، وجُوِّز أن تكونَ للملابسة أو زائدة، وليس بذاك. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية والضمير للإنسان والباء للتعدية على معنى أنَّ النفسَ تجعل الإنسان قائماً به الوسوسة، فالمُحدَّث هو الإنسان لأنَّ الوسوسةَ بمنزلة الحديثِ، فيكون نظيرَ: حدَّث نَفْسَه بكذا، وهم يقولون ذلك كما يقولون: حدَّثَتْه نفسُه بكذا، قال لبيد:

واكْذِبِ النَّفْسَ إذا حدَّثْتَها إنَّ صِدْقَ النفس يُزري بالأمل[1]

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ أي: نعلم به وبأحواله لا يخفى علينا شيء من خَفِيَّاته، على أنه أُطلق السبب وأُريد المُسبَّب؛ لأن القُرب من الشيء في العادة سببُ العلم به وبأحواله، أو الكلامُ من باب التمثيل؛ ولا مجالَ لحمله على القُرب المكانيِّ لتنزُّهه سبحانه عن ذلك، وكلامُ أهل الوحدة مما يشقُّ فَهْمه على غير ذوي الأحوال. و«حبل الوريد» مَثَلٌ في فَرْطِ القُرب، كقولهم: مقعد القابلة، ومَعْقِدُ الإزار، قال ذو الرُّمَّة على ما في «الكشاف»:

والموت أدنى لي من حبل الوريد[2]

والحبل معروفٌ، والمرادُ به هنا العِرْقُ لِشَبَهِهِ به، وإضافتُه إلى الوريد ـ وهو عرقٌ مخصوصٌ كما ستعرفه ـ للبيان، كـ: شجر الأراك، أو لاميَّة كما في غيره من

---

(١) ديوان لبيد ص١٨٠.

(٢) الرجز في الكشاف ٤/٦، والمستقصى ١/١٢١، وخزانة الأدب ١٠/٣٩٦ دون لفظة: حبل. وهو في ديوانه ١/٣٦٨ هكذا:

والله أدنى لي من الوريد والحتف يلقى أنفس الشهود

إضافة العامِّ إلى الخاصِّ، فإنْ أُبْقي الحبل على حقيقته فإضافتُه كما في لُجين الماء.

و«الوريد» عِرْقٌ كبيرٌ في العُنُق، وعن الأثرم: أنه نهرُ الجسد، ويقال له في العُنُق: الوريدُ، وفي القلب: الوَتين، وفي الظهر: الأَبْهر، وفي الذراع والفَخِذ: الأَكْحل والنَّسَا، وفي الخِنْصِر: الأَسْلَم.

والمشهورُ أنَّ في كلِّ صفحة من العُنق عِرْقاً يقال له: وريد؛ ففي «الكشاف»[1]: الوريدان: عِرقان مُكتنفان لِصفحتي العُنق في مقدَّمها مُتَّصلان بالوتين يَرِدَان بحسب المُشاهدَة من الرأس إليه، فالوريد فعيل بمعنى فاعل.

وقيل: هو بمعنى مفعولٌ؛ لأنَّ الروحَ الحيواني يَرده، ويُشير إلى هذا قولُ الراغب[2]: الوريدُ: عِرْقٌ متصلٌ بالكبد والقلب، وفيه مجاري الروح. وقال في الآية: أي: نحن أقربُ إليه من روحه. وحكي ذلك عن بعضهم أيضاً.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما المَلَكان المُوكَّلان بكلِّ إنسانٍ يكتبان أعماله؛ والتلقِّي: التلقُّن بالحِفظ والكتبة. و«إذ» قيل: ظرف لـ «أقرب»، وأَفْعَلُ التفضيل يعمل في الظروف؛ لأنه يكفيها رائحةُ الفعل وإن لم يكن عاملاً في غيرها فاعلاً أو مفعولاً به، أي: هو سبحانه أعلمُ بحال الإنسان من كلِّ قريب حين يتلقَّى المتلقيان الحفيظان ما يتلفَّظ به، وفيه إيذانٌ بأنه عز وجل غنيٌّ عن استحفاظ المَلكين، فإنه تعالى شأنه أعلمُ منهما ومطَّلعٌ على ما يخفى عليهما، لكن الحِكمة اقتضته، وهو ما في كِتْبة المَلَكين وحِفْظهما وعَرْض صحائفهما يومَ يقوم الأشهاد، وعِلْمُ العبد بذلك مع عِلْمه بإحاطة الله تعالى بعمله من زيادة لُطْفٍ في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات.

وجُوِّز أن تكون «إذ» لتعليل القُرب، وفيه أن تعليلَ قُربه عز وجل العِلْميِّ باطِّلاع الحَفَظة الكَتَبة بعيدٌ.

واختار بعضُهم كونها مفعولاً به لـ : اذكر مقدَّراً لبقاء الأقربية على إطلاقها،

---

(١) ٤/ ٦.

(٢) المفردات (ورد).

ولأنَّ أفعل التفضيل ضعيفٌ في العمل وإنْ كان لا مانعَ من عَمَله في الظرف؛ والكلام مسوقٌ لتقرير قُدرته عز وجل وإحاطة علمه سبحانه وتعالى، فتأمَّل.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: عن اليمين قَعيدٌ، وعن الشمال قَعيدٌ، فحذف من الأول لدلالة الثاني عليه، ومنه قوله:

رماني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بريئاً ومن أجل الطَّوِيِّ رماني[١]

وقال المبرِّد: إنَّ التقدير: عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال، فأخَّر «قعيدٌ» عن موضعه. والقعيدُ عليهما فعيلٌ بمعنى مُفَاعِل، كجليس بمعنى مُجَالِس، ونديم بمعنى مُنادم، وذهب الفرَّاء[٢] إلى أنَّ قعيداً يدلُّ على الاثنين والجمع، وقد أُريد منه هنا الاثنان فلا حذفَ ولا تقديم ولا تأخير. واعترضَ بأنَّ فعيلاً يستوي فيه ذلك إذا كان بمعنى مفعول، وهذا بمعنى فاعل، ولا يصحُّ فيه ذلك إلا بطريق الحمل على فَعيل بمعنى مفعول.

واختلف في تعيين محلِّ قعودهما، فقيل: هما على الناجذين، فقد أخرج أبو نُعيم والديلمي عن معاذ بن جبل مرفوعاً: «إنَّ اللهَ لطفَ بالمَلَكين الحافظين حتى أَجلسهما على الناجذين، وجعل لسانَه قلمَهما، ورِيْقَه مِدادَهما»[٣]. وقيل: على العاتقين. وقيل: على طرفي الحَنَك عند العَنْفَقَةِ. وفي «البحر»[٤]: إنهم اختلفوا في ذلك، ولا يصحُّ فيه شيء.

وأنا أقول أيضاً: لم يصحَّ عندي أكثر مما أخبر الله تعالى به من أنهما عن اليمين وعن الشمال قعيدان، وكذا لم يصحَّ خبرُ قَلَمهما ومِدادهما، وأقول كما قال اللَّقاني بعد أن استظهرَ أن الكَتْب حقيقيٌّ: عِلْمُ ذلك مفوَّضٌ إلى الله عز وجل.

وأقولُ: الظاهر أنهما في سائر أحوال الإنسان عن يمينه وعن شماله. وأخرج

(١) أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥، ونسبه لابن أحمر.
(٢) معاني القرآن ٣/ ٧٧.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، وأخبار أصبهان لأبي نعيم ٢/ ١-٢، وفي إسناده: علي بن بشر، قال عنه أبو نعيم: كان يضعَّف حديثه، وفي حديثه نكارة.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.

ابن المنذر وغيره عن ابن عباس أنه قال: إنْ قَعَدَ فأحدُهما عن يمينه والآخر عن يساره، وإنْ مشى فأحدُهما أمامه والآخرُ خَلْفَه، وإنْ رَقَد فأحدهما عند رأسه والآخرُ عند رجليه[١].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يَرمي به مِن فيهِ خيراً كان أو شرّاً.

وقرأ محمدُ بن أبي مَعْدان: «ما يَلْفَظُ» بفتح الفاء[٢].

﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ ملكٌ يرقُبُ قولَه ويَكتبه، فإنْ كان خيراً فهو صاحبُ اليمين، وإنْ كان شرّاً فهو صاحبُ الشمال ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ مُعَدٌّ مُهَيّأً لكتابة ما أُمر به من الخير أو الشَّرِّ.

وتخصيصُ القولِ بالذِّكر لإثبات الحُكم في الفعل بدلالة النصّ.

واختلف فيما يَكتبانه، فقال الإمام مالك وجماعة: يكتبان كلَّ شيء حتى الأنين في المرض. وفي «شرح الجوهرة» للَّقاني[٣]: مما يجبُ اعتقاده أن الله تعالى ملائكةً يكتبون أفعالَ العباد من خيرٍ أو شرٍّ أو غيرهما، قولاً كانت أو عملاً أو اعتقاداً، همّاً كانت أو عزماً أو تقريراً، اختارهم سبحانه لذلك، فهم لا يُهملون من شأنهم شيئاً فَعَلُوه قصداً وتعمُّداً أو ذهولاً ونسياناً، صَدَرَ منهم في الصِّحة أو في المرض كما رواه علماءُ النقل والرواية. انتهى.

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أنَّ الكلام النفسيَّ لا يُكتب، أخرج البيهقيُّ في «الشعب» عن حذيفةَ بن اليمان أن للكلام سبعةَ أغلاق إذا خرج منها كُتب، وإن لم يخرجْ لم يُكتب: القلبُ واللَّهاة واللسانُ والحَنكان والشَّفتان[٤].

وذهب بعضُهم إلى أنَّ المباح لا يكتبه أحدٌ منهما؛ لأنه لا ثوابَ فيه ولا عقاب،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٣ لكن عن ابن جريج، وكذا أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٢١).

(٢) هكذا ذكرها السمين في الدر المصون ١٠/ ٢٥، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٤ هكذا: «ما نَلْفِظ».

(٣) ص٢٠٨.

(٤) شعب الإيمان (٥٠٠٨).

والكتابةُ للجزاء، فيكون ذلك مستثنى حكماً من عموم الآية، ورُوي ذلك عن عكرمة.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر والحاكم ـ وصحَّحه ـ وابن مردويه من طريقه عن ابن عباس أنه قال: إنما يكتب الخير والشَّرّ، لا يكتب: يا غلامُ أَسرِج الفرس، ويا غلامُ اسقني الماء[1].

وقال بعضُهم: يكتب كلّ ما صَدَر من العبد حتى المباحات، فإذا عُرضت أعمالُ يومه مُحي منها المباحات وكتب ثانياً ما له ثوابٌ أو عِقاب، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:٣٩] وقد أشار السيوطي إلى ذلك في بعض رسائله، وجُعِلَ وجهاً للجمع بين القولين: القولِ بكتابة المُباح والقولِ بعدَمها، وقد رُوي نحوه عن ابن عباس؛ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه أنه قال في الآية: يكتب كلّ ما تكلَّم به من خير أو شرٍّ حتى إنه ليكتب قوله: أكلت وشربت، ذهبت جئت رأيت، حتى إذا كان يومُ الخميس عُرض قولُه وعملُه، فأقرَّ منه ما كان من خير أو شرٍّ، وأُلقي سائره، فذلك قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ)[2].

ثم إنَّ المباح على القول بكتابته يكتبه ملكُ الشِّمال على ما يُشعر به ما أخرجه ابنُ أبي شيبة والبيهقي في «شعب الإيمان» من طريق الأوزاعي عن حسان بن عطية أن رجلاً كان على حمارٍ فعثر به فقال: تَعَستُ، فقال صاحب اليمين: ما هي بحسنة فأكتبها، وقال صاحب الشمال: ما هي بسيئة فأكتبها، فَنُودي صاحبُ الشمال: إن ما تَركَه صاحبُ اليمين فاكتُبه[3].

وجاء في بعض الأخبار أنَّ صاحبَ اليمين أمينٌ على صاحب الشمال[4]. وقد أخرج ذلك الطبراني وابن مردويه والبيهقي في «الشعب» من حديث أبي أُمامة

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢١٨، والمستدرك ٢/ ٤٦٥.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣٠٨، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٦٥.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٢٠، وشعب الإيمان (٥١٨٢).
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢٤ من قول إبراهيم التيمي.

مرفوعاً، وفيه: «فإذا عَمِلَ العبدُ حسنةً كُتبت له بعشر أمثالها، وإذا عَمِلَ سيئة وأراد صاحبُ الشِّمال أن يكتبها قال صاحب اليمين: أَمْسِكْ، فيمسك ستَّ ساعات أو سبع ساعات، فإن استغفرَ اللهَ تعالى منها لم يَكتب عليه منها شيئاً، وإن لم يستغفِرِ اللهَ تعالى كُتبت عليه سيئة واحدة»(١).

ومثلُ الاستغفار كما نصَّ عليه فعلُ طاعةٍ مُكفِّرة في حديثٍ آخرَ: أنَّ صاحب اليمين يقول: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعلَّه يُسبِّح أو يستغفر(٢).

وظاهرُ الآية عمومُ الحكم للكافر، فمعه أيضاً مَلَكان يكتبان ما لَه وما عليه من أعماله، وقد صرَّح بذلك غيرُ واحد، وذكروا أنَّ ما له الطاعاتُ التي لا تتوقَّف على نِيَّة كالصدقة وصِلة الرحم، وما عليه كثيرٌ لاسيما على القول بتكليفه بفروع الشريعة.

وفي «شرح الجوهرة»: الصحيحُ كتبُ حسنات الصبيِّ وإن كان المجنون لا حفظةَ عليه؛ لأنَّ حاله ليست متوجهة للتكليفِ بخلاف الصبيِّ، وظاهرُ الآية شمولُ الحُكم له. وتردَّد الجَزولي في الجِنِّ والملائكة أَعليهم حَفَظةٌ أَمْ لا، ثم جزم بأنَّ على الجنِّ حفظةً، وأتبعه القولَ بذلك في الملائكة عليهم السلام، قال اللَّقاني بعد نقله: ولم أَقِفْ عليه في الجِنِّ لغيره، ويُفهم منه أنه وَقَفَ عليه في الملائكة لغيره، ولعلَّه ما حُكي عن بعضهم أنَّ المرادَ بالروح في قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ [القدر: ٤] الحفظةُ على الملائكة، ويحتاج دعوى ذلك فيهم وفي الجِنِّ إلى نَقْل.

وأما اعتراضُ القولِ به في الملائكة بلزوم التسلسل فمدفوعٌ بما لا يخفى على المتأمِّل.

ثم إنَّ بعضهم استظهر في المَلكين اللذين مع الإنسان كونهما مَلَكين بالشخص لا بالنوع لِكلِّ إنسانٍ يلزمانه إلى مماته فيقومان عند قبره يُسبِّحان الله تعالى ويَحمدانه

---

(١) المعجم الكبير (٧٩٧١)، وشعب الإيمان (٧٠٤٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/٢٠٨: فيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. وأخرجه الطبراني (٧٧٦٥) بنحوه، وضعَّفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/١٤٨.

(٢) أخرجه الروياني (١٢١٥)، والبغوي ٣/ ٢٢٣ من حديث أبي أمامة ﷺ، وفي إسناده أيضاً جعفر بن الزبير.

ويُكبِّرانه، ويَكتبان ثوابَ ذلك لصاحبهما إنْ كان مؤمناً، أخرج أبو الشيخ في «العظمة» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ اللهَ تعالى وكلَ بعبده المؤمن مَلَكين يكتبان عَمَلَه، فإذا مات قال الملكان اللَّذان وُكِّلا به: قد مات، فَأْذَنْ لنا أن نصعد إلى السماء، فيقول الله تعالى: سمائي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: أنُقِيم في الأرض؟ فيقول اللهُ تعالى: أرضي مملوءةٌ من خَلْقي يسبِّحونني، فيقولان: فأين؟ فيقول: قُومَا على قبر عبدي فسبِّحاني واحمداني وكَبِّراني، واكتُبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[1]. وجاء أنهما يلعنانه إلى يومِ القيامة إنْ كان كافراً.

وقال الحسن: الحفظةُ أربعةٌ: اثنان بالنهار واثنانِ بالليل. وهو يَحتمل التبدُّلَ بأن يكون في كلِّ يومٍ وليلة أربعةٌ غير الأربعة التي في اليومِ والليلة قبلَهما، وعَدَمَه.

وقال بعضهم: إن ملَكَ الحسناتِ يتبدَّل تنويهاً بشأن الطائع، وملك السيئات لا يتبدَّل ستراً على العاصي في الجملة.

والظاهرُ أنهما لا يُفارقان الشخص، وقالوا: يُفارقانه عند الجِماع ودخولِ الخلاء، ولا يمنع ذلك من كَتْبهما ما يصدر عنه في تلك الحال، ولهما علامةٌ للحسنة والسيئة بَدَنيَّتين كانتا أو قَلْبيَّتين.

وبعضُ الأخبار ظاهرةٌ في أنَّ ما في النفس لا يُكتب؛ أخرج ابن المبارك، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص»، وأبو الشيخ في «العظمة»، عن ضمرة بن حبيب قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الملائكة يصعدون بعمل العبدِ من عِباد الله تعالى فَيُكَثِّرونه ويُزَكُّونه حتى ينتهوا به حيث شاء اللهُ تعالى من سلطانه، فيوحي اللهُ تعالى إليهم: إنَّكم حَفَظَةٌ على عمل عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نفسه، إنَّ عبدي هذا لم يُخلِصْ لي عَملَه فاجعلوه في سِجِّين، قال: ويصعدون بعمل العبدِ من عبادِ الله

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، والعظمة (٥٠٥)، والشعب (٩٩٣١)، وأخرجه أيضاً ابن الجوزي في الموضوعات (١٦٦٠). وفي إسناده: عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي: وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الأثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

تعالى فيستقلُّونه ويحتقرونه حتى ينتهوا به حيث شاء اللهُ تعالى من سلطانه فيوحي الله تعالى إليهم: إنَّكم حَفَظةٌ على عمل عبدي، وأنا رقيبٌ على ما في نَفْسه فضاعِفوه له، واجعلوه في عِلِّيين»[1].

وجاء من حديث عبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» عن أبي عمران الجَوْني أنه يُنادى الملكُ: اكتب لفلان بن فلان كذا وكذا، أي: من العمل الصالح فيقول: يا ربِّ، إنَّه لم يعمله؟ فيقول سبحانه وتعالى: إنه نواه[2].

وقد يقال: إنَّهما يكتبان ما في النفس ما عدا الرياء والطاعات المَنْويَّة جمعاً بين الأخبار، وجاء أنه يُكتب للمريض والمسافر مثلُ ما كان يعمل في الصِّحة والإقامة من الحسنات، أخرج ابنُ أبي شيبة، والدارقطني في «الأفراد»، والطبراني، والبيهقي في «الشعب»، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما مِنْ أحدٍ من المسلمين يُبتلى ببلاءٍ في جسده إلا أمرَ الله تعالى الحَفَظَة، فقال: اكتبوا لعبدي ما كان يعمل وهو صحيحٌ ما دام مشدوداً في وثاقي»[3].

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي موسى قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من مَرِضَ أو سافر كتب اللهُ تعالى له ما كان يعمل صحيحاً مقيماً»[4].

وفي بعض الآثار ما يدلُّ على أن بعضَ الطاعات يكتبها غيرُ هذين المَلَكين، ثم إنَّ الملائكةَ الذين مع الإنسان ليسوا محصورين بالمَلَكين الكاتبين، فعن عثمان أنه

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٤، والزهد لابن المبارك (٤٥٢)، والعظمة (٥٢٢)، وفي إسناده: أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف، كما في تهذيب التهذيب ٤/ ٤٩٠، ثم إن الحديث مرسل.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٣-١٠٤، وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣١٣ من طريق عبد الله بن أحمد.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٤-١٠٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٠، وشعب الإيمان (٩٩٢٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (٦٤٨٢)، وعزاه للطبراني الهيثمي في مجمع الزوائد ٢/ ٣٠٣ وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير، ورجال أحمد رجال الصحيح.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، ومصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٠، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٦٧٩)، والبخاري (٢٩٩٦).

سأل النبيَّ ﷺ: كم [من] ملك على الإنسان؟ فذكر عشرين ملكاً[1]، قاله المهدوي في الفيصل[2].

وذكر بعضهم أن المُعقِّبات في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرعد:١١] غير الكاتبين بلا خلاف، وحكى اللَّقاني عن ابن عطية: أنَّ كلَّ آدميٍّ يوكل به من حين وقوعه نُطفةً في الرحم إلى موته أربع مئة مَلَك، والله تعالى أعلم بصحَّة ذلك.

وروى ابن المنذر وأبو الشيخ في «العظمة» عن ابن المبارك أنه قال: وُكِّل بالعبد خمسة أملاك؛ مَلَكان بالليل ومَلَكانِ بالنهار يجيئان ويَذْهبان، وملك خامسٌ لا يُفارقه لا ليلاً ولا نهاراً[3].

وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ إلى آخره، كلامٌ واردٌ بعد تتميم الغرض من إثبات ما أنكروه من البعث بأبين دليلٍ وأوضحهِ، دالٌّ على أنَّ هذا المُنكر أنتم لاقوه فَخُذوا حِذْرَكم، والتعبير بالماضي هنا وفيما بعدُ لتحقُّق الوقوع، و«سكرة الموت»: شدَّته، مستعارةٌ من الحالة التي تعرض بين المرء وعَقْله بجامع أنَّ كلّاً منهما يُصيب العقل بما يُصيب، وجُوِّز أن يُشبَّه الموت بالشَّراب على طريق الاستعارة المَكْنية، ويُجعل إثبات السَّكرة له تخييلاً، وليس بذاك.

والباء إما للتعدية كما في قولك: جاء الرسولُ بالخبر، والمعنى: أَحضرت سكرةُ الموت حقيقةَ الأمر الذي نَطقت به كُتب الله تعالى ورُسُله عليهم الصلاة والسلام، وقيل: حقيقة الأمر وجليَّة الحال من سعادة الميت وشقاوته. وقيل: بالحقِّ الذي ينبغي أن يكونَ من الموت والجزاء، فإنَّ الإنسانَ خُلق له.

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٤٥٦ مطولاً، وأورده ابن كثير في تفسير الآية (١١) من سورة الرعد، وقال: حديث غريب جداً. اهـ. ولفظة: من. لم ترد في الأصل و(م)، واستدركت من المصادر، ومما سيأتي ٣٠/ ٦٥.

(٢) كذا في الأصل و(م)، ولعلَّه: التفصيل، كما ذُكرَ في كشف الظنون ١/ ٤٦٢، وهو: التفصيل الجامع لعلوم التنزيل في التفسير للمهدوي أحمد بن عمار، المتوفى بعد الثلاثين وأربع مئة، وهو تفسير كبير، ثم اختصره وسماه: التحصيل.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٣، والعظمة (٥٢١).

وإما للملابسة كما في قوله تعالى: ﴿تَنبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي: مُلتبسة بالحقِّ، أي: بحقيقة الأمر، وقيل: بالحِكمة والغاية الجميلة.

وقرئ: «سكرة الحقِّ بالموت»(١)، والمعنى أنها السَّكرة التي كُتبت على الإنسان بموجب الحِكمة، وأنها لِشدَّتها تُوجب زُهوق الروح أو تستعقبه، وقيل: الباء بمعنى «مع»، وقيل: سكرةُ الحقِّ سكرةُ الله تعالى، على أنَّ «الحقَّ» من أسمائه عز وجل، والإضافةُ للتهويل؛ لأنَّ ما يَجيء من العظيم عظيمٌ.

وقرأ ابنُ مسعود: «سكرات الموت» جمعاً(٢)، ويُوافق ذلك ما أخرج البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة أنَّ رسولَ الله ﷺ كانت بين يديه رَكْوةٌ - أو عُلبة - فيها ماءٌ، فجعل يُدخِلُ يديه في الماء فيمسح بهما وَجْهَه ويقول: «لا إلهَ إلا اللهُ، إن للموتِ سكراتٍ»(٣)، وجاء في حديث صحَّحه الحاكم عن القاسم بن محمد عن عائشة أيضاً قالت: لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ وهو بالموت، وعنده قَدَحٌ فيه ماء وهو يُدخِل يدَه في القدح ثم يمسحُ وَجْهَه بالماء، ثم يقول: «اللهمَّ أَعني على سَكَرات الموت»(٤).

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الحقّ ﴿مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ أي: تَميل وتَعدل، فالإشارة إلى الحقِّ، والخطابُ للفاجر لا للإنسان مطلقاً، والإشارة إلى الموتِ، لأنَّ الكلامَ في الكَفَرة، وإنما جيء بقوله تعالى: (وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ) لإثبات العلمِ بجزئيات أحوالِهِ وتَضمينِ شِبْهِ وعيدٍ لهؤلاء إدماجاً، والتخلُّصِ منه إلى بيان أحوالِهِ في الآخرة، ولأنَّ قوله سبحانه وتعالى: (لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ) إلخ، يُناسب خطابَ هؤلاء، وكذلك

(١) القراءات الشاذة ص١٤٤، والمحتسب ٢/ ٢٨٣، ونسبت لأبي بكر ﷺ.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.
(٣) صحيح البخاري (٤٤٤٩) واللفظ له من طريق ذكوان مولى عائشة ﷺ، وسنن الترمذي (٩٧٨)، وسنن النسائي الكبرى (٧٠٦٤)، وسنن ابن ماجه (١٦٢٣) من طريق القاسم بن محمد عن عائشة ﷺ، وفيه: اللهم أعني على سكرات الموت، بدل: إن للموت سكرات. وسيذكره المصنِّف بعده.
(٤) المستدرك ٣/ ٥٦-٥٧، وينظر التعليق السابق.

ما يعقبه على ما لا يخفى. وأما حديثُ مُقابليهم فقد أخذ فيه حيث قال عز وجل: (وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ) الآيات.

وقال بعضُ الأجِلَّة: الإشارةُ إلى الموت، والخطابُ للإنسان الشامل للبَرِّ والفاجر، والنَّفرةُ عن الموت شاملةٌ لكلٍّ من أفرادِه طبعاً.

وقال الطيبي: إنْ كان قولُه تعالى: «وجاءَتْ سكرةُ الموت» متصلاً بقوله سبحانه: «بل هم في لبْس من خَلْقٍ جديد» وقوله تعالى: «كذَّبت قبلَهم قومُ نوح»، فالمناسبُ أن يكونَ المشارُ إليه الحقّ والخطاب للفاجر، وإن كان متصلاً بقوله تعالى: «ولقد خَلَقْنا الإنسان»، فالمناسبُ أن يكونَ المشارُ إليه الموت، والخطاب للجنس، وفيه البَرُّ والفاجر، والالتفاتُ لا يُفارق الوجهين. والثاني هو الوجهُ، لقوله تعالى بعد ذلك: «وجاءت كلُّ نفس» إلخ، وتفصيله بقوله تعالى: «ألقيا في جهنم كلَّ كفَّار عَنيد»، و«أُزلفت الجنةُ للمتقين غيرَ بعيد» وفيه ما يُعلم مما قدَّمنا.

وحكى في «الكشاف»[1] عن بعضهم أنه سأل زيدَ بن أسلم عن ذلك، فقال: الخطابُ لرسول الله ﷺ، فحكاه لصالح بن كيسان، فقال: واللهِ ما سِنٌّ[2] عالية ولا لسان فَصيح ولا معرفة بكلام العرب، هو للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عُبيد الله بن عباس، فقال: أُخالفهما جميعاً هو للبَرِّ والفاجر. وكأنَّ هذه المخالفة لنحو ما سمعت عن الطيبي. وفي بعض الآثار ما يُؤيِّد القولَ بالعموم؛ أخرج ابن سعد عن عروة قال: لما مات الوليدُ بَكَتْ أمُّ سلمة فقالت:

يا عين فابكي للوليـ ... ـدِ بنِ الوليد بن المغيره
كان الوليدُ بن الوليـ ... ـدِ أبو الوليدِ فتى العشيره

فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تقولي هكذا يا أُمَّ سلمة، ولكن قولي: (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)[3]». وأخرج أحمد وابن جرير عن عبد الله مولى

(١) ٤/ ٧.
(٢) في الأصل و(م): من. والمثبت من الكشاف ٤/ ٧، والخبر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣١-٤٣٢.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، وطبقات ابن سعد ٤/ ١٣٣، ونقله عنه السيوطي في نظم العقيان ص١٨-١٩.

الزبير بن العوام قال: لما حضر أبو بكر الوفاةَ تمثَّلت عائشة بهذا البيت:

أَعاذِلِ ما يُغني الحِذار عن الفتى ... إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدرُ

فقال أبو بكر: ليس كذلك يا بُنيَّة، ولكن قولي: (وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ)[1]، وفي رواية لابن المنذر وأبي عُبيد أنها قالت:

وأبيضَ يُستسقى الغَمام بوجهه ... ثِمالُ اليتامى عِصمةٌ للأرامل

فقال رضي الله عنه: بل جاءت سكرة الموت.. إلخ[2]، إذ التمثُّل بالآية على تقدير العموم أوفقُ بالحال كما لا يخفى.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخةُ البعث ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى النفخ المفهوم من «نُفِخ» والكلام على حذف مضاف، أي: وقتُ ذلك النَّفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ أي: يوم إنجاز الوعيدِ الواقع في الدنيا، أو يوم وقوعِ الوعيد، على أنه عبارةٌ عن العذابِ الموعود. وجُوِّز أن تكونَ الإشارةُ إلى الزمان المفهوم من «نُفِخَ»، فإنَّ الفعلَ كما يدلُّ على الحدث يدلُّ على الزمان، وعليه لا حاجةَ إلى تقدير شيء، لكن قيل عليه: إنَّ الإشارةَ إلى زمان الفعل مما لا نظيرَ له.

وتخصيصُ الوعيدِ بالذِّكر على تقدير كون الخطاب للإنسان مطلقاً مع أنه يومُ الوعدِ أيضاً بالنسبة إليه للتهويل.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرَّة والفاجرة كما هو الظاهر ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ وإنْ اختلفت كيفية السَّوقِ والشهادة حسبَ اختلاف النفوس عملاً،

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، والزهد لأحمد ص١٣٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢٧-٤٢٨، وأخرجه أيضاً ابن سعد ٣/ ١٩٦، وابن أبي الدنيا في المحتضرين (٣٦). وقد أثبتت الآية في المصادر كما جاءت في المصحف ما عدا تفسير الطبري، ففيه أن أبا بكر قرأ: «وجاءت سكرة الحق بالموت» والخبر عنده من طريق أبي وائل، لا من طريق عبد الله مولى الزبير.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٥، وفضائل القرآن لأبي عبيد ص١٨٤، وفيهما: فقال رضي الله عنه: بل جاءت سكرة الحق بالموت. زاد في الدر: قدم الحق وأخر الموت. قال أبو عبيد في الفضائل: هكذا أحسبه قرأها، قدم الحق وأخر الموت. والخبر أخرجه أحمد (٢٦) دون ذكر الآية، وفيه أن أبا بكر رضي الله عنه قال بعد سماعه البيت: ذاك والله رسول الله ﷺ.

أي: معها ملكان أحدُهما يسوقها إلى المحشر والآخر يشهد بعملها، ورُوي ذلك عن عثمان ﷺ وغيره، وفي حديث أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» عن جابر مرفوعاً تصريحٌ بأنَّ مَلَكَ الحسناتِ وملكَ السيئات أحدُهما سائقٌ والآخرُ شهيد(١).

وعن أبي هريرة: السائقُ ملكُ الموت، والشهيدُ النبيُّ ﷺ. وفي رواية أُخرى عنه: السائقُ ملكٌ، والشهيدُ العمل. وكلاهما كما ترى.

وقيل: الشهيدُ الكتاب الذي يلقاه منشوراً. وعن ابن عباس والضحاك: السائقُ مَلَكٌ، والشهيدُ جوارح الإنسان. وتَعَقَّبه ابنُ عطية(٢) بقوله: وهذا بعيدٌ عن ابن عباس؛ لأنَّ الجوارحَ إنما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالى: «كلّ نفس» يعمُّ الصالحين.

وقيل: السائقُ والشهيد مَلَكٌ واحد، والعطفُ لمغايرة الوصفين، أي: معها ملكٌ يسوقُها ويشهدُ عليها. وقيل: السائقُ نفسُ الجائي والشهيدُ جوارحُه. وتعقّب بأن المَعِيَّة تأباه، والتجريدُ بعيدٌ، وفيه أيضاً ما تقدَّم آنفاً عن ابن عطية. وقال أبو مسلم: السائق شيطانٌ كان في الدنيا مع الشخص. وهو قولٌ ضعيف. وقال أبو حيان(٣): الظاهر أنَّ «سائقٌ وشهيد» اسما جنسٍ، فالسائقُ ملائكة مُوكَّلون بذلك، والشهيدُ الحَفَظةُ وكلُّ مَنْ يشهد، ثم ذكر أنه يشهد بالخير الملائكةُ والبقاع، وفي الحديث: «لا يسمعُ مَدَى صوتِ المؤذِّن إنسٌ ولا جِنٌّ ولا شيء إلا شَهِدَ له يومَ القيامة»(٤).

و«معها» صفةُ «نفس» أو «كلّ» وما بعدَه فاعلٌ به لاعتماده، أو «معها» خبرٌ مقدَّم وما بعدَه مبتدأ، والجملةُ في موضع الصِّفة، واختير كونها مستأنفة استئنافاً بيانيّاً لأن الأخبار بعد العلم بها أوصاف، ومضمون هذه الجملة غيرُ معلوم، فلا تكون صفةً إلا أن يُدعى العلم به، وأنت تعلم أنَّ ما ذكر غير مُسَلَّم.

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠.
(٢) المحررالوجيز ٥/ ١٦٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٩)، وأحمد (١١٣٠٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقال الزمخشري: محلُّ «معها سائق» النصبُ على الحال من «كلّ» لتعرُّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة(١)، فإنَّ أصلَ كلّ أن يُضافَ إلى الجمع كأفعل التفضيل؛ فكأنه قيل: كلُّ النفوس يعني أنَّ هذا أصلُه، وقد عدل عنه في الاستعمال للتفرقة بين «كلّ» الإفرادي والمجموعي. ولا يخفى أنَّ ما ذكره تكلُّفٌ لا تُساعده قواعدُ العربية، وقد قال عليه في «البحر»: إنه كلامٌ ساقطٌ لا يصدر عن مبتدئ في النحو(٢). ثم إنه لا يحتاج إليه، فإن الإضافة للنكرة تُسوِّغ مجيء الحال منها، وأيضاً «كلّ» تفيدُ العموم، وهو من المسوِّغات كما في «شرح التسهيل».

وقرأ طلحة: «مَحَّا سائق» بالحاء مُثَقَّلة(٣)، أدغم العين في الهاء فانقلبتا حاءً، كما قالوا: ذَهَبَ مَحُّم، يريدون: معهم.

وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ محكيٌّ بإضمار قول، والجملةُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قبلَه، كأنه قيل: فماذا يكون بعدَ النفخ ومَجيء كلِّ نفس معها سائقٌ وشهيد؟ فقيل: يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التي لم يُصدِّق بها في الدنيا من البعث وغيره: «لقد كنتَ في غَفْلةٍ من هذا» الذي تُعاينه، فالخطابُ للكافر كما قال ابن عباس وصالح بن كيسان. وتنكيرُ الغَفْلة وجَعْلُه فيها وهي فيه يدلُّ على أنها غَفْلة تامَّة، وهكذا غَفْلة الكَفَرة عن الآخرة وما فيها.

وقيل: الجملة محكيَّةٌ بإضمار قول هو صفة لـ «نفس» أو حال، والخطاب عامٌّ، أي: يقال لكلِّ نفس، أو قد قيل لها: «لقد كنت»، والمراد بالغَفْلة: الذُّهول مطلقاً سواء كان بعدَ العلم أمْ لا، وما من أحدٍ إلا وله غَفْلةٌ ما من الآخرة وما فيها. وجوِّز الاستئناف على عمومِ الخطاب أيضاً.

وقرأ الجحدري: «لقد كنتِ» بكسر التاء(٤) على مخاطبةِ النفس، وهي مُؤَنَّثة، وتذكيرها في قوله:

---

(١) الكشاف ٤/ ٧.

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٤.

يـا نـفـسُ إنـك بـالـلَّـذات مـسـرور[(١)]

على تأويلها بالشخص، ولا يلزم في قراءة الجمهور؛ لأنَّ التعبيرَ بالنفس في الحكاية لا يستدعي اعتبارَه في المحكيِّ كما لا يخفى.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاءُ: الحجابُ المغطِّي لأمور المَعاد، وهو الغَفْلة والانهماكُ في المحسوسات والإلف بها وقَصْر النظر عليها، وجُعِلَ ذلك غطاءً مجازاً، وهو إما غطاءُ الجسد كلِّه أو العينين، وعلى كِليهما يصحُّ قوله تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ أي: نافذٌ لزوال المانع للإبصار، أما على الثاني فظاهرٌ، وأما على الأول فلأن غطاءَ الجسدِ كلِّه غطاءٌ للعينين أيضاً، فكَشْفه عنه يستدعي كَشْفَه عنهما.

وزعم بعضهم أنَّ الخطابَ للنبيِّ ﷺ، والمعنى: كنتَ في غَفْلةٍ من هذا الذي ذكرناه من أمر النَّفْخ والبعث ومَجيء كلِّ نفس معها سائقٌ وشهيدٌ وغير ذلك، فكشفنا عنك غطاءَ الغَفْلة بالوحي وتعليم القرآن، فبصرك اليومَ حديدٌ ترى ما لا يرون وتعلم ما لا يعلمون. ولَعمري إنَّه زَعْمٌ ساقطٌ لا يُوافق السّباق ولا السّياق. وفي «البحر»: وعن زيد بن أسلم قولٌ في هذه الآية يحرمُ نَقْله، وهو في كتاب ابنُ عطية[(٢)]. انتهى. ولعله أراد به هذا[(٣)]، لكن في دعوى حُرمة النقل بحثٌ.

وقرأ الجحدري وطلحة بن مُصَرِّف بكسر الكافات الثلاثة، أعني كاف «عنك» وما بعدَه[(٤)]، على خطاب النَّفس، ولم ينقل صاحبُ «اللوامح» الكسرَ في الكاف إلا عن طلحة، وقال: لم أَجِدْ عنه في «لقد كنت» الكسرَ، فإن كَسر فيه أيضاً فذاك، وإن فَتح يكون قد حَمل ذلك على لفظ «كلّ» وحَمل الكسر فيما بعدَه على معناه لإضافته إلى «نفس»، وهو مثلُ قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ﴾ وقوله سبحانه بعدَه: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١١٢]. انتهى.

---

(١) ذكره أبو السعود في تفسيره ٨/ ١٣٠، وعزاه لجبلة بن حريث، وعجزه:

فـاذكـر فـهـل يـنـفـعـك الـيـوم تـذكـيـر

(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٢.

(٣) وهو كما قال المصنف رحمه الله، فقد ذكره ابن عطية عن زيد بنحو القول المذكور.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٤، والبحر المحيط ٨/ ١٢٥.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: شيطانُه المُقَيَّض له في الدنيا كما قال مجاهد، وفي الحديث: «ما مِنْ أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُه من الجِنِّ» قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أنَّ اللهَ تعالى أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير»[١].

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ إشارةٌ إلى الشخص الكافرِ نَفْسه، أي: هذا ما عندي وفي مَلَكتي عتيدٌ لجهنم قد هيَّأته لها بإغوائي وإضلالي، ولا يُنافي هذا ما حكاه سبحانه عن القَرين في قوله تعالى الآتي: (قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ) لأنَّ هذا نظيرُ قول الشيطان: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء: ١١٩] وقوله: ﴿وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢] وذاك نظيرُ قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال قتادة وابن زيد: «قرينُه»: المَلَكُ الموكَّل بسوقِهِ، يقول مُشيراً إليه: هذا ما لديَّ حاضرٌ. وقال الحسن: هو كاتبُ سيئاته يقولُ مشيراً إلى ما في صحيفته: أي: هذا مكتوبٌ عندي عتيدٌ مهيَّأٌ للعَرْضِ. وقيل: «قرينُه» هنا عَمَلُه قلباً وجوارحَ، وليس بشيء، و«ما» نكرةٌ موصوفةٌ بالظرف وبـ«عتيد»، أو موصولة والظرف صِلَتُها، و«عتيد» خبر بعدَ خبر لاسم الإشارة، أو خبرٌ لمبتدأ محذوف، وجُوِّز أنْ يكونَ بدلاً من «ما» بناءً على أنه يجوزُ إبدالُ النكرة من المعرفة وإن لم تُوصف إذا حصلت الفائدةُ بإبدالها، وأما تقديرُه بشيء عتيد على أنَّ البدلَ هو الموصوفُ المحذوف الذي قامت صفتُه مقامَه، أو أنَّ «ما» الموصولة لإبهامِها أَشبهت النَّكرة فجاز إبدالُها منها، فقيل عليه: إنه ضعيفٌ؛ لِمَا يلزم الأول من حَذْف البدل وقد أباه النُّحاة، والثاني لا يقولُ به من يشترط النعت، فهو صلحٌ من غير تراضي الخَصْمين. وقرأ عبد الله: «عتيداً» بالنصب على الحال[٢].

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ من الله تعالى للسائق والشهيدِ بناءً على أنهما اثنان - لا واحدٌ جامع للوصفين - أو للمَلَكين من خَزَنة النار، أو لواحد على أنَّ الألف بدلٌ من نون التوكيد على إجراء الوصل مجرى الوقف، وأُيِّد بقراءة الحسن: «أَلقينْ» بنون التوكيد الخفيفة، وقيل: إنَّ العرب كثيراً ما يرافق الرجلُ منهم اثنين،

(١) أخرجه أحمد (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٨١٤) من حديث ابن مسعود ﵁.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

فكَثُر على ألسنتهم أنْ يقولوا: خليليَّ، وصاحبيَّ، وقِفا، واسعدا، حتى خاطبوا الواحدَ خطابَ الاثنين، وما في الآية محمولٌ على ذلك، كما حُكي عن الفراء(١)، أو على تنزيل تثنيةِ الفاعل منزلةَ تثنية الفعل بأن يكونَ أصلُه: أَلْقِ أَلْقِ، ثم حُذف الفعلُ الثاني وأبقي ضميره مع الفعل الأول، فَثُنِّي الضمير للدلالة على ما ذكر كما في قوله:

فإنْ تَزْجُراني يا ابنَ عفَّان أَنْزجِرْ وإنْ تَدَعاني أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعاً(٢)

وحُكي ذلك عن المازني والمبرِّد، ولا يخفى بُعْدُه، وَلْيُنْظَرْ هل هو حقيقةٌ أو مجازٌ؟ والأظهرُ أنه خطابٌ لاثنين، وهو المروي عن مجاهد وجماعة. وأيًّاما كان فالكلامُ على تقدير القول كما مرَّ.

والإلقاءُ: طرحُ الشيء حيث تَلْقاه، أي: تراه، ثم صار في التعارف اسماً لكلِّ طرح، أي: اِطْرحا في جهنَّم كلَّ مبالغ في الكُفر للمنعِم والنعمة.

﴿عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ مبالغٍ في العِناد وتركِ الانقيادِ للحقِّ، وقريبٌ منه قول الحسن: جاحد مُتمرِّد، وقال قتادة: أي: مُنحرف عن الطاعة، يقال: عَنَدَ عن الطريق: عَدَلَ عنه، وقال السدي: المُشاقُّ، من العَنَد، وهو عظمٌ يَعرِضُ في الحَلْق. وقال ابن بحر: المُعجَبُ بما عندَه.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ مبالغٍ في المنع للمال عن حُقوقه المفروضة، قال قتادة ومجاهد وعكرمة: يعني الزكاة. وقيل: المرادُ بالخير الإسلام، فإنَّ الآية نزلت في الوليد بن المغيرة كان يقول لبني أخيه: مَنْ دخل منكم في الإسلام لم أنفعه بشيء ما عِشْتُ(٣). والمبالغة باعتبار كَثْرة بني أخيه، أو باعتبار تكرُّر منعِهِ لهم.

وضُعِّفَ بأنه لو كان المرادُ ذلك كان مقتضى الظاهرِ: مَنَّاعٍ عن الخير. وفي «البحر»(٤): الأحسنُ عمومُ الخير في المال وغيره.

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٧٨.
(٢) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ونسبه لأبي ثروان، وتفسير القرطبي ١٩/ ٤٤٨.
(٣) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ٨.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

﴿مُعْتَدٍ﴾ ظالمٍ متخطٍّ للحقِّ مُتجاوزٍ له ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾ شاكٌّ في الله تعالى ودِينه، وقيل: في البعث.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ مبتدأ متضمِّن لمعنى الشرط، خبره: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ بتأويل: فيقال في حَقِّه: ألقياه، أو لكونه في معنى جوابِ الشرط لا يحتاج للتأويل.

أو بدلٌ من «كلّ كَفَّار»، أو من «كفّار»، وقوله تعالى: «فألقياه» تكرير للتوكيد، فهو نظير: (فَلَا تَحْسَبَنَّهُم) بعدَ قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾ [آل عمران:١٨٨]، والفاء هاهنا للإشعار بأنَّ الإلقاءَ للصِّفات المذكورة، أو من باب: وحقِّك ثم حقِّك، ينزِّل التغاير بين المُؤكِّد والمُؤكَّد والمُفسِّر والمُفَسَّر منزلة التغاير بين الذاتين بوجه خطابيّ، ولا يُدَّعَى التغايرُ الحقيقيّ، لأنَّ التأكيدَ يأباه، وقول أهل المعاني: إنَّ بين المؤكِّد والمؤكَّد شدةَ اتِّصال تمنع من العطف، ليس على إطلاقه بسديد، والنَّحويون على خِلافه، فقد قال ابن مالك في «التسهيل»[1]: فصلُ الجملتين في التأكيد بـ «ثمَّ» إنْ أمن اللَّبس أجودُ من وَصْلهما. وذكر بعضُ النُّحاة الفاء، والزمخشري في «الجاثية» الواو أيضاً، وجعلوا ذلك من التأكيد الاصطلاحي ولو جُعل «العذاب الشديد» نوعاً من عذاب جهنم ومن أهوله فكان من باب ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٨] دون تكرير لكان ـ كما قال صاحب «الكشف» ـ حسناً.

وجُوِّز أن يكون مفعولاً بمضمر يُفسِّره «فألقياه». وقال ابن عطية[2]: أن يكون صفةَ «كفَّار»، وجاز وَصْفُه بالمعرفة لتخصُّصه بالأوصاف المذكورة. وتعقَّبه أبو حيان[3] بأنه لا يجوز وصفُ النكرة بالمعرفة ولو وُصِفَتْ بأوصاف كثيرة.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: الشيطان المُقيَّض له، وإنَّما استؤنفت هذه الجملةُ استئنافَ الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنها جوابٌ لمحذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

---

(١) ص ١٦٦.
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢٦.

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فإنه مبنيٌّ على سابقةِ كلام اعتذرَ به الكافرُ، كأنه قال: هو أَطغاني، فأَجاب قرينُه بتكذيبه وإسناد الطُّغيان إليه، بخلاف الجملةِ الأولى فإنها واجبةُ العطف على ما قبلَها دلالة على الجمع بين مفهوميها في الحصول، أعني مَجيء كلِّ نفس مع المَلَكين، وقول قرينه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ﴾ هو بالذات ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾ من الحقِّ فأعنتُه عليه بالإغواء والدعوة إليه من غير قَسْر ولا إلجاء، فهو كما قدَّمنا نظير: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إلخ [إبراهيم: ٢٢].

﴿قَالَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ مما قَبله، كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى؟ فقيل: قال عز وجل: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: في موقف الحسابِ والجَزاء، إذْ لا فائدةَ في ذلك ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ على الطُّغيان في دار الكسب في كُتبي وعلى أَلسنة رُسلي، فلا تَطْمعوا في الخلاص عنه بما أنتم فيه من التعلُّل بالمعاذير الباطلة. والجملةُ حالٌ فيها تعليلٌ للنهي، ويلاحظ معنى العلم لتحصل المقارنة التي تقتضيها الحاليَّة، أي: لا تختصموا لديَّ عالمين أنِّي قدَّمت إليكم بالوعيد حيث قلت لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ [ص: ٨٥] فاتبعتموه مُعرضين عن الحقّ. والباء مَزيدةٌ أو معدّية على أن قدَّم بمعنى تقدَّم، وهو لازمٌ يعدَّى بالباء.

وجوِّز أن يكون «قدَّمت» واقعاً على قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ إلخ، ويكون «بالوعيد» متعلِّقاً بمحذوف هو حالٌ من المفعول قدّم عليه أو الفاعل، أي: وقد قدَّمت إليكم هذا القول ملتبساً بالوعيد مُقترناً به، أو قدَّمته إليكم موعداً لكم، فلا تطمعوا أن أبدِّل وعيدي، والأظهرُ استئنافُ هذه الجملة.

وفي «لدي» على ما قال الإمام[1] وجهان:

الأول: أن يكونَ متعلِّقاً بالقول، أي: ما يبدَّلُ القولُ الذي عندي.

الثاني: أن يكونَ متعلِّقاً بالفعل قبلُ، أي: لا يقع التبديلُ عندي.

قال: وعلى الأول في القول الذي لديه تعالى وجوه: أحدُها: قولُه تعالى: «ألقيا» أرادوا باعتذارهم أن يبدَّلَ ويقولَ سبحانه: لا تلقيا، فردَّ عليهم. ثانيها: قولُه

(١) تفسير الرازي ٢٨/١٦٩.

سبحانه لإبليس: «لأملأن» إلخ. ثالثها: الإيعادُ مطلقاً. رابعها: القولُ السابق يومَ خلق العباد: هذا سعيدٌ وهذا شقيٌّ.

وعلى الثاني: في معنى الآيةِ وجوهٌ أيضاً: أحدها: لا يُكذَب لديَّ، فإنِّي عالمٌ عَلِمْتُ مَن طَغَى ومن أَطغى، فلا يُفيد قولُكم: أطغاني شيطاني، وقول الشيطان: «ربَّنا ما أطغيته». ثانيها: لو أردتم أن لا أقول: «فألقياه» كنتم أَبدلتم الكفر بالإيمان قبلَ أن تقفوا بين يديَّ، وأما الآن فما يبدَّلُ القولُ لديَّ. ثالثها: لا يبدَّل القولُ الكفر بالإيمان لديَّ، فإنَّ الإيمان عند اليأس غيرُ مقبول، فقولُكم: ربَّنا وإلهنا، لا يُفيدكم، فمن تكلَّم بكلمة الكفر لا يُفيده قوله: ربَّنا ما أشركنا، وقوله: ربَّنا آمنا.

والمشهورُ أنَّ «لديَّ» متعلِّقٌ بالفعل على أنَّ المرادَ بالقول ما يشمل الوعدَ والوعيد. واستدلَّ به بعضُ من قال بعدم جواز تخلُّفهما مطلقاً. وأَجاب مَن قال بجوازِ العفو عن بعض المُذنبين بأنَّ ذلك العفو ليس بتبديل، فإنَّ دلائلَ العفو تدلُّ على تخصيص الوعيد.

وقال بعض المحقِّقين: المرادُ نفي أن يُوقِعَ أحد التبديل لديه تعالى، أي: في عِلْمه سبحانه، أو يُبدَّل القولُ الذي عَلِمَه عز وجل، فإنَّ ما عنده تبارك وتعالى هو ما في نفس الأمر، وهو لا يقبل التبديل أصلاً، وأكثرُ الوعيدات معلَّقةٌ بشرط المشيئةِ على ما يقتضيه الكرم وإن لم يُذكر على ما يقتضيه الترهيب، فمتى حصل العفوُ لعدمِ مشيئةِ التعذيب لم يكن هناك تبديلٌ مّا في نفس الأمر، فتدبَّره فإنَّه دقيق.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ واردٌ لتحقيق الحقِّ على أبلغ وجه، وفيه إشارةٌ إلى أن تعذيبَ مَن يعذَّب من العبيد إنما هو عن استحقاق في نفس الأمر، وقد تقدَّم تمامُ الكلام في هذه الجملة، فتذكَّر.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾﴾ أي: اذكر، أو: أَنْذر يومَ. . إلخ، فـ «يوم» مفعول به لمقدَّر، وقيل: هو ظرفٌ لـ «ظلَّام».

وقال الزمخشري(١): يجوز أن ينتصب بـ «نُفِخَ»، كأنه قيل: ونُفِخَ في الصور يومَ، وعليه يُشار بـ «ذلك» إلى «يوم نقول» لأنَّ الإشارةَ إلى ما بعدُ جائزةٌ لاسيما إذا كانت رُتبته التقديم، فكأنه قيل: ذلك اليوم، أي: يوم القول يوم الوعيد، ولا يحتاج إلى حذف، على ما مرَّ في الوجه الذي أُشير به إلى النفخ.

وهذا الوجه كما قال في «الكشف»: فيه بُعد؛ لِبُعده عن العامل وتخلُّل ما لا يصلح اعتراضاً، على أنَّ زمانَ النفخ ليس يومَ القول إلا على سبيل فَرْضه ممتدّاً واقعاً ذلك في جُزء منه وهذا في جزء، وكلٌّ خلافُ الظاهر، فكيف إذا اجتمعت؟

وقال أبو حيان(٢): هو بعيدٌ جدّاً قد فُصِلَ عليه بين العامل والمعمول بجمل كثيرة، فلا يُناسب فصاحةَ القرآن الكريم وبلاغته.

والظاهرُ إبقاء السؤال والجواب على حقيقتهما، وكذا في نظير ذلك من اشتكاء النار والإذنِ لها بنَفَسين، وتحاجِّ النار والجنة، ونحن متعبَّدون باعتقادِ الظاهر ما لم يمنع مانعٌ، ولا مانعَ هاهنا، فإنَّ القُدرة صالحة والعقل مُجَوِّز، والظواهر قاضيةٌ بوقوع ما جوَّزه العقل، وأمور الآخرة لا ينبغي أن تُقاس على أمور الدنيا.

وقال الرُّمَّاني: الكلامُ على حذف مضاف، أي: نقول لخزنة جهنم. وليس بشيء.

وقال غير واحد: هو من باب التمثيل، والمعنى أنها مع اتِّساعها وتَباعد أقطارِها نطرح فيها من الجِنَّة والناس فوجاً بعد فوج حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة، فالاستفهام للإنكار، أي: لا مَزيد على امتلائها. ورُوي هذا عن ابن عباس ومجاهد والحسن. وجُوِّز في نفي الزيادة أن يكونَ على ظاهرِه، وأن يكونَ كنايةً أو مجازاً عن الاستكثار، وقيل: المعنى: إنها من السَّعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها فراغٌ وخُلُوّ، فالاستفهامُ للتقرير، أي: فيها موضعٌ للمزيد لِسَعتها، وجُوِّز أن يكونَ ذلك كنايةً عن شدَّة غَيْظها على العُصاة كأنها طالبةٌ لزيادتهم.

(١) الكشاف ٤/ ٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.

واستُشكل دعوى أنَّ فيها فراغاً بأنه منافٍ لصريح قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الآية(١). وأُجيب بأنه لا مُنافاةَ؛ لأنَّ الامتلاءَ قد يُرادُ به أنه لا يخلو طبقةٌ منها عمَّن يَسكنها وإنْ كان فيها فراغٌ كثيرٌ، كما يقال: إنَّ البلدةَ ممتلئةٌ بأهلها ليس فيها دارٌ خالية مع ما بينها من الأبنية والأفضية، أو أن ذلك باعتبار حالين، فالفراغُ في أول الدخول فيها، ثم يُساق إليها الشياطين ونحوهم فتمتلئ.

هذا، ويدلُّ غيرُ ما حديث أنها تَطْلبُ الزيادةَ حقيقةً إلا أنه لا يُدرى حقيقةُ ما يوضع فيها حتى تَمتلئ، إذ الأحاديثُ في ذلك من المتشابهات التي لا يراد بها ظواهرُها عند الأكثرين؛ أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مَزيد، حتى يضع ربُّ العِزَّة فيها قَدَمَهُ، فينزوي بعضُها إلى بعض وتقول: قط قط، وعزَّتِكَ وكَرمِكَ، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خَلقاً آخر فيُسكنهم في فضول الجنة»(٢).

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنار، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرين والمُتجبِّرين، وقالت الجنة: ما لي لا يدخلني إلا ضُعفاءُ الناس وسَقَطهم؟ فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أَرحمُ بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أُعذِّبُ بك من أشاء من عبادي، ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلؤُها، فأما النارُ فلا تمتلئ حتى يضعَ رجْلَه فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ ويُزوَى بعضُها إلى بعض، ولا يظلم اللهُ من خَلْقه أحداً، وأما الجنَّة، فإنَّ الله تعالى يُنشئ لها خلقاً»(٣). وأوَّلَ أهلُ التأويل ذلك:

فقال النضر بن شُميل: إنَّ القَدَم الكُفَّار الذين سبق في عِلْمه تعالى دخولُهم النار، والقَدَمُ تكون بمعنى المتقدِّم كقوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]. وظاهرُ

(١) الأعراف (١٨)، وهود (١١٩)، والسجدة (١٣)، وص (٨٥).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومسند أحمد (١٢٣٨٠)، وصحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وسنن النسائي ٢/ ٣٢.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، وصحيح البخاري (٧٤٤٩)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٧٧١٨).

الحديث عليه يستدعي دخولَ غيرِ الكُفَّار قبلهم، وهو في غايةِ البُعد؛ ولعلَّ في الأخبار ما يُنافيه.

وقال ابن الأثير[١]: قَدَمُه، أي: الذين قَدَّمهم لها من شِرار خَلْقه فهم قَدَمُ الله تعالى للنارِ، كما أنَّ المسلمين قَدَمُه للجنة، والقَدَمُ كلُّ ما قدَّمت من خيرٍ أو شرٍّ. وهو كما ترى، ويُبعده ما في حديث أحمد وعبد بن حُميد وابن مردويه عن أبي سعيد مرفوعاً: «فيُلقي فيها ـ أي: النار ـ أهلها فتقول: هل من مَزيد، ويُلقي فيها وتقول: هل من مَزيد، حتى يأتيها عز وجل فيضع قَدَمَه عليها فتنزوي وتقول: قَدْني قَدْني»[٢].

وأوَّلوا الرِّجل بالجماعة، ومنه ما جاء في أيوب عليه السلام أنه كان يغتسلُ عُرياناً فخرَّ عليه رِجْلٌ من جراد[٣]، والإضافة إلى ضميرِه تعالى تُبعد ذلك.

وقيل: وَضْعُ القَدَم أو الرِّجل على الشيء مَثَلٌ للرَّدع والقَمْع، فكأنه قيل: يأتيها أمرُ الله تعالى فيكفُّها من طلب المَزيد.

وقريبٌ منه ما ذهب إليه بعضُ الصوفية: أنَّ القَدَمَ يُكنى بها عن صفة الجلال، كما يُكنى بها عن صفة الجمال.

وقيل: أُريد بذلك تسكين فَوْرتها، كما يقال للأمر تريد إبطاله: وضعتُه تحت قَدَمي، أو: تحت رِجْلي. وهذان القولان أَولى مما تقدَّم، والله تعالى أعلم.

والمزيدُ إما مصدرٌ ميميٌّ كالمَحيد، أو اسمُ مفعول أعلَّ إعلالَ المبيع.

وقرأ الأعرج وشيبة ونافع وأبو بكر والحسن وأبو رجاء وأبو جعفر والأعمش: «يوم يقول» بياء الغيبة، وقرأ عبد الله والحسن والأعمش أيضاً: «يقال» مبنيّاً للمفعول[٤].

---

(١) النهاية (قدم).

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومسند أحمد (١١٧٤٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٢٧، وقراءة نافع وأبي بكر في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦، وقراءة أبي جعفر غير المشهورة عنه.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أخذ في بيان حال المؤمنين بعدَ بيان حال الكافرين؛ وهو عطفٌ على «نُفِخَ» أي: قُرِّبَتْ للمتقين عن الكُفر والمعاصي ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ أي: في مكانٍ غيرِ بعيد بمرأى منهم بين يديهم، وفيه مبالغةٌ ليست في التخلية عن الظرف، فـ «غير بعيد» صفةٌ لظرف مُتعلِّق بـ «أُزلفت» حذف فقام مقامه وانتصب انتصابه، ولذلك لم يقل: غيرَ بعيدة. وجُوِّز أن يكونَ منصوباً على المصدرية، والأصلُ: وأُزلفت إزلافاً غيرَ بعيد، قال الإمام[1]: أي: عن قُدرتنا. وأن يكون حالاً من «الجنة» قُصِدَ به التوكيدُ، كما تقول: عزيزٌ غيرُ ذليل، لأن العِزَّة تُنافي الذُّلّ، ونفيُ مضادِّ الشيء تأكيدُ إثباته، وفيه دَفْعُ توهُّمِ أنَّ ثَمَّ تجوُّزاً أو شوباً من الضدِّ، ولم يقل: غير بعيدة، عليه، قيل: لتأويل الجنة بالبستان. وقيل: لأنَّ البعيدَ على زِنَةِ المصدر الذي من شأنه أن يستوي فيه المؤنَّث والمذكَّر كالزئير والصَّليل، فَعُومِلَ مُعامَلته وأُجري مُجراه، وقيل: لأنَّ فعيلاً بمعنى فاعل قد يجري مجرى فعيل بمعنى مفعول فيستوي فيه الأمران.

وللإمام في تقريبِ الجَنَّة أوجه؛ منها طيُّ المسافةِ التي بينها وبين المُتَّقين مع بقاءِ كلٍّ في مكانهِ وعدمِ انتقاله عنه، ولكرامةِ المُتقين قيل: «أُزلفت الجَنَّةُ للمتقين» دون: وأُزْلِفَ المُتَّقون للجنة. ومنها أنَّ المرادَ تقريبُ حُصولها والدخولُ فيها دون التقريب المكاني، وفيه ما فيه. ومنها أنَّ التقريبَ على ظاهرِه، والله عز وجل قادرٌ على نَقْل الجنة من السماء إلى الأرض، أي: إلى جهة السُّفل، أو الأرض المعروفة بعدَ مَدِّها.

وقولُ بعض: إنَّ المرادَ إظهارُها قريبةً منها على نحو إظهارِها للنبيِّ ﷺ في عرضِ حائطِ مسجدِه الشريف ـ على ما فيه ـ منزعٌ صوفيٌّ.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ إشارةٌ إلى الجنة، والتذكيرُ لما أنَّ المشارَ إليه هو المُسمَّى من غيرِ قَصْدِ لفظٍ يدلُّ عليه فضلاً عن تذكيره وتأنيثه، فإنهما من أحكام اللفظ العربي كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام:٧٨] وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [الأحزاب:٢٢].

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٧٦.

ويجوز أن يكونَ ذلك لتذكيرِ الخبر، وقيل: هو إشارةٌ إلى الثواب. وقيل: إلى مصدر «أُزلفت» والجملةُ بتقدير قولٍ وقع حالاً من المُتَّقين أو من الجَنَّة، والعامل أُزلفَتْ، أي: مقولاً لهم أو مقولاً في حقِّها: «هذا ما تُوعدون»، أو اعتراض بين المُبدل منه أعني «للمتقين» والبدل أعني الجارّ والمجرور، وفيه بُعْدٌ.

وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: «يُوعدون» بياء الغيبة[1]، والجملةُ على هذه القراءة قيل: اعتراضٌ أو حال من «الجَنَّة». وقال أبو حيان[2]: هي اعتراضٌ، والمرادُ: هذا القول هو الذي وقع الوعدُ به، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ - أي: رجَّاع إلى الله تعالى - بدلٌ من «المُتَّقين» بإعادة الجارِّ، أَوْ من «للمتقين» على أن يكونَ الجارُّ والمجرور بدلاً من الجارِّ والمجرور.

﴿حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾ حَفِظَ ذنوبه حتى رَجَعَ عنها كما رُوي عن ابن عباس وسعيد بن سنان، وقريبٌ منه ما أخرج سعيدُ بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر عن يونس بن خبَّاب قال: قال لي مجاهد: ألا أُنبئك بالأوَّاب الحفيظ؟ هو الرجلُ يذكُر ذَنْبه إذا خلا فيستغفر اللهَ تعالى منه[3].

وأخرج عبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال: أَي: حفيظ لِمَا استودعه اللهُ تعالى من حَقِّه ونعمته[4].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن عُبيد بن عُمير: كنَّا نَعُدُّ الأوَّابَ الحفيظَ الذي يكون في المجلس، فإذا أراد أن يقومَ قال: اللهم اغْفِرْ لي ما أصبتُ في مجلسي هذا[5].

---

(١) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦ عن ابن كثير، وذكرها عن أبي عمرو أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٧.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٠٧، ومصنف ابن أبي شيبة ٧/ ٢٣٢، وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ٤٥١.
(٤) الدر المنثور ٦/ ١٠٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢.
(٥) الدر المنثور ٦/ ١٠٧-١٠٨، ومصنف ابن أبي شيبة ٦/ ٤٢.

وقيل: هو الحافظُ لتوبته من النقض، ولا يُنافيه صيغةُ «أَوَّاب» كما لا يخفى.

وقوله تعالى شأنه: ﴿مَنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ بدلٌ من «كلّ» المُبدل من المتقين، أو بدلٌ ثانٍ من «المُتَّقين» بناءً على جوازِ تعدُّد البدلِ والمُبدَلُ منه واحدٌ، وقول أبي حيان(١): تكرُّر البدل والمُبدَل منه واحد لا يجوز في غيرِ بدل البَداء، وسرّه أنَّه في نية الطَّرح فلا يُبدل منه مرَّةً أُخرى = غيرُ مسلم، وقد جوَّزه ابنُ الحاجب في «أماليه»، ونقله الدَّماميني في أول شرحه للخزرجية وأطال فيه، وكون المُبدل منه في نيَّة الطرح ليس على ظاهره.

أو بدلٌ من موصوف «أوَّاب» أي: لكلِّ شخص أوَّاب، بناءً على جوازِ حَذْفِ المُبدل منه، وقد جوَّزه ابنُ هشام في «المغني»(٢)، لاسيَّما وقد قامت صفتُه مقامَه حتى كأنه لم يحذف. ولم يُبدل من «أواب» نَفْسه، لأنَّ أواباً صفةٌ لمحذوف كما سمعتَ، فلو أُبدل منه كان للبدل حُكْمَه، فيكون صفةً مِثْلَه، و«من» اسم موصولٌ، والأسماءُ الموصولةُ لا يقع منها صفة إلا الذي على الأصحّ، وجَوّز بعضٌ الوصفَ بـ «مَن» أيضاً لكنه قولٌ ضعيفٌ.

أو مبتدأ خبره ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ بتأويل: يقال لهم: ادخُلوها، لمكان الإنشائية، والجمع باعتبارِ معنى «مَنْ».

وقوله تعالى: «بالغيب» متعلِّق بمحذوف هو حالٌ من فاعل «خَشِيَ» أو من مفعوله، أو صفةٌ لمصدره، أي: خشيةً مُلتبسةً بالغيب حيث خَشِيَ عقابه سبحانه. وهو غائبٌ عنه أو هو غائبٌ عن الأعين لا يراه أحدٌ. وقيل: الباء للآلة، والمرادُ بالغيب القلبُ؛ لأنه مستورٌ، أي: من خَشِيَ الرحمنَ بقلبه دون جوارحه. بأنْ يُظْهِرَ الخشيةَ وليس في قلبه منها شيءٌ. وليس بشيء.

والتعرُّضُ لعنوانِ الرحمانيَّة للإشعار بأنَّهم مع خَشْيتهم عقابَه عز وجل راجون رحمته سبحانه، أو بأنَّ علمهم بِسَعَةِ رحمته تبارك وتعالى لا يَصُدُّهم عن خَشْيته جلَّ

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢٧.

(٢) مغني اللبيب ص٨٢١.

شأنُه. وقال الإمام[1]: يجوز أن يكون لفظ «الرحمن» إشارةً إلى مقتضى الخَشْية؛ لأنَّ معنى الرحمن واهبُ الوجود بالخَلْق، والرحيم واهبُ البقاء بالرزق، وهو سبحانه في الدنيا رحمان حيث أوجدنا، ورحيم حيث أبقانا بالرزق، فمن يكون منه الوجودُ ينبغي أن يكونَ هو المَخْشيَّ، وما تقدَّم أَولى.

والباء في قوله تعالى: «بقلب» للمصاحبة، وجُوِّز أن تكونَ للتعدية، أي: أحضر قلباً مُنيباً. ووصفُ القلب بالإنابة مع أنها يُوصف بها صاحبه لما أن العِبْرةَ رجوعه إلى الله تعالى.

وأَغرب الإمامُ فجوَّز كونَ الباء للسببيَّة، فكأنَّه قيل: ما جاء إلا بسبب آثارِ العلم في قلبه أَنْ لا مَرْجِعَ إلا الله تعالى فجاء بسبب قلبه المُنيب، وهو كما ترى.

وقوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ متعلِّقٌ بمحذوف هو حالٌ من فاعل «ادخلوها» والباء للمُلابسة، والسلامُ إما من السلامة أو من التسليم، أي: ادخُلوها مُلتبسين بسلامة من العذاب وزوالِ النعم، أو بتسليم وتحيَّةٍ من الله تعالى وملائكته.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الزمان المُمْتَدِّ الذي وقع في بعضٍ منه ما ذُكر من الأمور ﴿يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ البقاء الذي لا انتهاءَ له أبداً، أو إشارة إلى وقت الدخول بتقدير مضافٍ، أي: ذلك يومُ ابتداء الخُلود وتحقُّقه، أو يوم تقدير الخلود، أو إشارة إلى وقت السلام بتقدير مضاف أيضاً، أي: ذلك يومُ إعلامِ الخُلود، أي: الإعلام به.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ من فنون المطالب كائناً ما كان ﴿فِيهَا﴾ متعلِّق بـ «يشاؤون»، وقيل: بمحذوفٍ هو حالٌ من الموصول أو من عائده المحذوف من صِلته.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾ هو ما لا يخطر ببالهم ولا يندرجُ تحت مَشيئتهم من مَعالي الكرامات التي لا عينٌ رأَتْ ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خَطَر على قلب بَشَر، ومنه كما أخرجه ابنُ أبي حاتم عن كثير بن مُرَّة: أَنْ تَمُرّ السحابةُ بهم فتقول: ماذا تُريدون فأُمطرَه عليكم؟ فلا يُريدون شيئاً إلا أَمطرته عليهم[2].

---

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ١٧٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٩، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٣١٠.

وأخرج البيهقيُّ في «الرؤية» والديلمي عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: (وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ) قال: «يتجلَّى لهم الربُّ عز وجل»[١].

وأخرج ابن المنذر وجماعة عن أنس أنه قال في ذلك أيضاً: يتجلَّى لهم الربُّ تبارك وتعالى في كلِّ جمعة[٢]. وجاء في حديث أخرجه الشافعي في «الأم» وغيره أنَّ يومَ الجمعة يُدعى يوم المَزيد[٣].

وقيل: المَزيدُ: أزواجٌ من الحور العِين عليهن تيجان أَدنى لؤلؤة منها تُضيء ما بين المشرقِ والمغرب، وعلى كلٍّ سبعون حُلَّة، وإنَّ الناظرَ لينفذ بصره حتى يَرى مُخَّ ساقِها من وراء ذلك.

وقيل: هو مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ أي: كثيراً أهلكنا قبلَ قومك ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ قوماً مقترنين في زمن واحد ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوَّة كما قيل، أو: أَخْذاً شديداً في كلِّ شيء كعادٍ وقومِ فرعون ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ساروا في الأرض وطوَّفوا فيها حذار الموت، فالتنقيبُ: السيرُ وقطع المسافةِ، كما ذكره الراغب[٤] وغيره، وأنشدوا للحارث بن حِلِّزة:

نـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ... ت وجالوا في الأرض كلَّ مجالِ[٥]

ولامرئ القيس:

---

(١) أخرجه الفسوي في المعرفة والتاريخ ٣/ ٣٩٥، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٨٥٢). وفي إسناده عمرو بن خالد القرشي، وهو متروك كما في التقريب.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٠٨، وأخرجه أيضاً البزار (٢٢٥٨ - كشف)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٢: فيه عثمان بن عمير وهو ضعيف.

(٣) الأم ١/ ١٨٥، وهو في مسنده ١/ ١٢٦، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ٢/ ١٥٠، والبزار (٣٥١٩ - كشف الأستار)، والطبري ٢١/ ٤٥٧، والطبراني في الأوسط (٢٠٨٤)، والدارقطني في الرؤية ص ١٧٢-١٨٤ بروايات متعددة، من حديث أنس بن مالك ﷺ. وينظر مجمع الزوائد ١٠/ ٤٢١.

(٤) المفردات (نقب).

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١، والقرطبي في التفسير ١٩/ ٤٥٨.

وقد نَقَّبتُ في الآفاقِ حتى رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ[1]

ورُوي: وقد طَوَّفت. وأخرج الطستي[2] عن ابن عباس أن نافعَ بن الأزرق سأله عن ذلك، فقال: هو: هربوا بلغةِ اليمن، وأنشد له بيت الحارث المذكور لكنه نسبه لعدي بن زيد.

وفسِّر التنقيب في البلاد بالتصرُّف فيها بملكها ونحوه، وشاع التنقيب في العُرف بمعنى التنقير عن الشيء والبحث عن أحواله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة:١٢] وأما قولهم: كلب نقيبٌ، فهو بمعنى منقوبٌ، أي: نقبت غَلْصَمَته ليضعف صوتُه.

والفاء على تفسير التنقيب بالسير ونحوه المروي عن ابن عباس لمجرَّد التعقيب، وعلى تفسيره بالتصرُّف للسببية، لأن تصرُّفهم في البلاد مُسبَّب عن اشتدادِ بَطْشهم، وهي على الوجهين عاطفةٌ على معنى ما قبلَها، كأنه قيل: اشتدَّ بطشُهم فنقَّبوا، وقيل: هي على ما تقدَّم أيضاً للسببية والعطف على «أهلكنا» على أنَّ المرادَ: أخذنا في إهلاكهم فنقَّبوا في البلاد.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝﴾ على إضمار قولٍ هو حالٌ من واو «نَقَّبوا» أي: قائلين: هل لنا مَخْلَصٌ من الله تعالى، أو من الموت؟ أو على إجراء التنقيب لِمَا فيه من معنى التتبُّع والتفتيش مجرى القولِ على ما قيل، أو هو كلامٌ مستأنف لنفي أن يكونَ لهم محيصٌ، أي: هل لهم مخلصٌ من الله عز وجل أو من الموت؟

وقيل: ضمير «نَقَّبوا» لأهل مكة، أي: ساروا في مَسايرهم وأسفارهم في بلاد القرون المُهلَكة، فهل رَأَوْا لهم محيصاً حتى يؤمِّلوا مثلَه لأنفسهم.

وأُيِّدَ بقراءة ابن عباس وابن يعمر وأبي العالية ونَصْر بن سيار وأبي حيوة والأصمعي عن أبي عمرو: «فَنَقِّبوا» على صيغة الأمر[3]؛ لأنَّ الأمر للحاضر وقت

(١) ديوان امرئ القيس ص٩٩.

(٢) كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٩، ومن طريقه أخرجه السيوطي في الإتقان ١/ ٤٠٧.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩.

النزول من الكُفَّار وهم أهل مكة لا غير، والأصلُ تَوَافُقُ القراءتين، وفيه على هذه القراءة التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب.

وقرأ ابنُ عباس أيضاً، وعُبيد عن أبي عمرو: «فَنَقَبوا» بفتح القاف مُخَفَّفة[1]، والمعنى كما في المشدَّدة. وقُرِئ بكسر القاف خفيفة[2] من النَّقَب محرَّكاً، وهو أن ينتقب خُفُّ البعير ويرقَّ من كَثْرة السَّير، قال الراجز:

أَقْسَمَ باللهِ أبو حفصٍ عُمَرْ
ما مَسَّها من نَقَبٍ ولا دَبَرْ[3]

والكلامُ بتقدير مضافٍ، أي: نقبت أقدامهم، ونقبُ الأقدامِ كنايةٌ مشهورةٌ عن كَثْرة السير، فيَؤُول المعنى إلى أنهم أكثروا السَّير في البلاد، أو نقبت أخفافُ مراكبهم، والمرادُ كَثْرةُ السير أيضاً، وقد يُستغنى عن التقدير بجعل الإسناد مَجازيّاً.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: الإهلاك أو ما ذكر في السورة ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكرةً وعِظَةً ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب واعٍ يدركُ الحقائقَ، فإنَّ الذي لا يَعي ولا يفهم بمنزلة العدم، وفي «الكشف»: «لمن كان» إلخ تمثيلٌ، ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: أَصغى إلى ما يُتلى عليه من الوحي.

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أي: حاضر، على أنه من الشهود بمعنى الحضور، والمرادُ به المتفطِّن؛ لأنَّ غيرَ المتفطِّن منزَّلٌ منزلةَ الغائب، فهو إما استعارةٌ أو مجازٌ مُرسَلٌ، والأولُ أَولى. وجُوِّز أن يكون من الشهادة وصفاً للمؤمن لأنه شاهدٌ على صحَّة المُنزَل وكونه وحياً من الله تعالى فيبعثه على حسن الإصغاء، أو وصفاً له من قوله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] كأنه قيل: وهو من جملة الشهداء، أي: المؤمنين من هذه الأُمَّة، فهو كنايةٌ على الوجهين، وجُوِّز على الأول منهما أن لا يكونَ كنايةً، على أنَّ المرادَ: وهو شاهدٌ شهادةً عن إيقان لا كشهادةِ أهل الكتاب.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٤.

(٢) البحر ٨/ ١٢٩.

(٣) الرجز لعبد الله بن كَيْسَبَة كما في الخزانة ٥/ ١٥٤.

وعن قتادة: المعنى: لمن سمع القرآن من أهل الكتاب وهو شاهدٌ على صِدقه لما يجدُه في كتابه من نَعْته. والأنسبُ بالمَساق والأملأ بالفائدة الأخذُ من الشهود. والوجهُ جعلُ «وهو شهيد» حالاً من ضمير المُلقي لا عطفاً على «ألقى» كما لا يخفى على من له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد. والمرادُ: إنَّ فيما فعل بسوالف الأُمم أو في المذكور أماماً من الآيات لذكرى لإحدى طائفتين: مَنْ له قلبٌ يفقهُ عن الله عز وجل، ومَنْ له سمعٌ مُصْغٍ مع ذهن حاضر، أي: لمن له استعدادُ القَبول عن الفقيه إن لم يكن فقيهاً في نَفْسه، و«أو» لمنع الخلوِّ من حيث إنه يجوز أن يكون الشخصُ فقيهاً ومستعدّاً للقَبول من الفقيه. وذكر بعضُهم أنها لتقسيم المتذكِّر إلى تالٍ وسامع، أو إلى فقيه ومتعلِّم، أو إلى عالم كاملِ الاستعداد لا يحتاج لغير التأمُّل فيما عنده وقاصرٍ محتاجٍ للتعلُّم، فيتذكَّر إذا أَقبل بكليته وأزال الموانعَ بأسرها، فتأمَّل.

وقرأ السُّلمي وطلحة والسدي وأبو البرهسم: «أو أُلقِيَ» مَبنيّاً للمفعول «السمعُ» بالرفع[1] على النيابة عن الفاعل؛ والفاعلُ المحذوف إما المُعبَّر عنه بالموصول أوْ لا، وعلى الثاني معناه: لمن أَلقى غيرُه السمعَ وفتح أُذنه ولم يُحضر ذِهْنه، وأما هو فقد ألقى وهو شاهدٌ متفطِّن مُحضِرٌ ذِهْنَه، فالوصفُ ـ أعني الشهود ـ مُعتمَدُ الكلام، وإنما أُخرج في الآية بهذه العبارة للمبالغة في تفطُّنه وحضوره. وعلى الأول معناه: لمن أَلقى سَمْعَه وهو حاضرٌ مُتفطِّن. ثم لو قُدِّر موصولٌ آخر بعد «أو» فذو القلب والمُلقي غيران شخصاً، ولو لم يُقدَّر جاز أَنْ يكونا شخصين، وأنْ يكونا شخصاً باعتبار حالين: حال تفطُّنه بنفسه، وحال إلقائه السمعَ عن حضور إلى متفطِّن بنفسه؛ لأن «من» عامٌّ يتناول كلَّ واحد واحد.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من أصناف المخلوقات ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ تقدَّم الكلامُ فيها[2] ﴿وَمَا مَسَّنَا﴾ وما أصابنا بذلك مع كونه مما لا تفي به القُوى والقُدر ﴿مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ تَعَب مّا، فالتنوين للتحقير، وهذا كما قال قتادة

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩.

(٢) في سورة الأعراف، الآية (٥٤).

وغيره ردٌّ على جَهَلةِ اليهود زَعَموا أنه تعالى شأنه بدأ خَلْق العالم يومَ الأحد، وفرغَ منه يومَ الجمعة، واستراحَ يومَ السبت، واستلقى على العرش، سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوّاً كبيراً. وعن الضحاك أنَّ الآية نزلت لما قالوا ذلك، ويُحكى أنهم يزعُمون أنه مذكورٌ في التوراة، وجملة «وما مَسَّنا» إلخ تَحتمل أن تكون حاليةً وأن تكونَ استئنافيةً.

وقرأ السُّلمي وطلحة ويعقوب: «لَغوب» بفتح اللام[1] بزنة القَبول والوَلُوع، وهو مصدرٌ غير مَقيس، بخلاف مضموم اللام.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: ما يقول المشركون في شأن البعث من الأباطيل المَبنيَّة على الاستبعاد والإنكار، فإنَّ مَنْ قدرَ على خَلْق العالم في تلك المُدَّة اليسيرة بلا إعياء قادرٌ على بَعْثهم والانتقامِ منهم. أو على ما يقول اليهودُ من مقالةِ الكفر والتشبيه.

والكلام متعلِّق بقوله تعالى: «ولقد خلقنا» إلخ، على الوجهين. وفي «الكشف» أنه على الأول متعلِّق بأول السورة إلى هذا الموضع، وأنه أنسبُ من تعلُّقه بـ «لقد خلقنا» الآية؛ لأن الكلام مرتبطٌ بعضُه ببعض إلى هاهنا على ما لا يخفى على المسترشد.

وأنت تعلم أنَّ الأقربَ تعلُّقه على الوجهين بما ذكرنا.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: نَزِّهه تعالى عن العَجْز عمَّا يمكن، وعن وقوع الخُلف في أخباره التي من جُملتها الإخبارُ بوقوع البعث، وعن وصفِهِ عز وجل بما يُوجب التشبيه، أو نَزِّهه عن كلِّ نقص، ومنه ما ذُكر، حامداً له تعالى على ما أَنعم به عليك من إصابة الحقِّ وغيرها.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ هما وقتا الفجر والعصر، وفضيلتهما مشهورة.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٨٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢٩، وهي غير المشهورة عن يعقوب.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾ مفعولٌ لفعلٍ محذوف يُفسِّره ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾ باعتبار الاتحاد النوعي، والعطفُ للتغاير الشخصي، أي: وسَبِّحه بعضَ الليل فسبِّحه، أو مفعولٌ لقوله تعالى: «سَبِّحه» على أنَّ الفاء جزائيةٌ، والتقدير: مهما يكن من شيء فَسبِّحه بعضَ الليل، وقُدِّم المفعول للاهتمام به، وليكون كالعِوض عن المحذوف، ولتتوسَّط الفاء الجزائية كما هو حقُّها. ولعلَّ المرادَ بهذا البعض السَّحر، فإنَّ فَضْلَه مشهور ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ وأعقابَ الصلوات، جمع دُبْر بضم فسكون، أو دُبُر بضمتين.

وقرأ ابن عباس وأبو جعفر وشيبة وعيسى والأعمش وطلحة وشبل والحِرْميَّان: «إدبار» بكسر الهمزة[1]، وهو مصدر، تقول: أدبرت الصلاة إدباراً: انقضَتْ وتَمَّت، والمعنى: ووقتَ انقضاء السجود كقولهم: آتيكَ خُفوقَ النجم.

وذهبَ غيرُ واحد إلى أنَّ المرادَ بالتسبيح الصلاةُ، على أنَّه من إطلاق الجُزء أو اللازم على الكلّ أو الملزوم، وعليه فالصلاة قبلَ الطلوع الصبحُ، وقبلَ الغروب العصرُ، قاله قتادة وابن زيد والجمهور، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» وابن عساكر عن جرير بن عبد الله مرفوعاً[2]، و«من الليل» صلاةُ العَتَمة، و«أدبار السجود» النوافلُ بعد المكتوبات؛ أخرجه ابن جرير عن ابن زيد[3].

وقال ابن عباس: الصلاةُ قبلَ الطلوع الفجرُ، وقبلَ الغروب الظهرُ والعصرُ، و«من الليل» العشاءان، و«أدبار السجود» النوافلُ بعد الفرائض. وفي رواية أُخرى عنه: الوتر بعد العشاء.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣٠، وقراءة أبي جعفر والحرميّين (وهما نافع وابن كثير) في التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦، وقرأ بها أيضاً حمزة، وخلف من العشرة.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١١٠، والأوسط (٨٠٥٧)، وتاريخ مدينة دمشق ٢١/ ٣٢٠ و٤١/ ٢٤٨، وهو عند أحمد (١٩١٩٠)، والبخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣). ولفظه: «أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾».

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٣.

وفي أخرى عنه أيضاً وعن عمر وعليٍّ وابنه الحسن وأبي هريرة رضي الله عنهم والشعبي وإبراهيم ومجاهد والأوزاعي: ركعتان بعد المغرب. وأخرجه مُسدَّد في «مسنده» وابن المنذر وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه مرفوعاً[١].

وقال مقاتل: ركعتان بعد العشاء يقرأ في الأولى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وقيل: «من الليل» صلاةُ العشاءين والتهجد. وعن مجاهد: صلاةُ الليل. وفيه احتمالُ العموم لصلاة العشاءين والخصوص بالتهجُّد، وهو الأظهر.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ أمرٌ بالاستماع، والظاهرُ أنه أُريد به حقيقته، والمُستمَعُ له محذوفٌ تقديره: واستمع لما أخبر به من أهوال يوم القيامة، وبيّن ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إلى آخره، وسلك هذا لما في الإبهام ثم التفسير من التهويل والتعظيم لشأنِ المُخبَرِ به، وانتصب «يومَ» بما دلَّ عليه «ذلك يوم الخروج» أي: يوم يُنادي المنادي يخرجون من القبور. وقيل: المفعول محذوفٌ تقديره: نداءَ المنادي، وقيل: تقديرُه: نداءَ الكافرين بالويل والثُّبور، و«يوم» ظرفٌ لذلك المحذوف.

وقيل: لا يحتاج ذلك إلى مفعول، والمعنى: كن مستمعاً ولا تكن غافلاً.

وقيل: معنى «استمع»: انتظر، والخطابُ لكلِّ سامع، وقيل: للرسول عليه الصلاة والسلام، و«يومَ» منتصبٌ على أنه مفعولٌ به لـ «استمع» أي: انتظر يومَ يُنادي المنادي، فإنَّ فيه تبيُّنَ صحَّة ما قلته، كما تقول لمن تَعِدُه بورود فتح: استمع كذا وكذا.

والمنادي على ما في بعض الآثار جبريلُ عليه السلامُ ينفخُ إسرافيل في الصور ويُنادي جبريل: يا أيَّتها العِظامُ النَّخِرة والجلودُ المتمزِّقة والشعور المتقطِّعة، إنَّ الله يأمرك أن تجتمعي لفصل الحساب. وأخرج ابن عساكر والواسطي في «فضائل بيت

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١١٠.

المقدس» عن يزيد بن جابر أنَّ إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور فيقول: يا أيَّتها العِظامُ النَّخِرة. . إلى آخره[1]، فيكون المرادُ بالمنادي هو عليه السلام.

وفي «الحواشي الشهابيَّة»: الأول هو الأصح[2].

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ هو صخرة بيت المقدس، على ما رُوي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وبريدة وقتادة، وهي على ما رُوي عن كعب أقربُ الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

وفي «الكشاف» أنها أقربُ إليها باثني عشر ميلاً، وهي وسط الأرض[3]. وأنت تعلم أنَّ مثلَ هذا لا يُقبل إلا بوحي، ثم إنَّ كونها وسطَ الأرض مما تأباه القواعدُ في معرفة العُروض والأطوال، ومن هنا قيل: المرادُ: قريب ممن يُناديهم، فقيل: ينادي من تحت أقدامهم، وقيل: من منابتِ شعورهم، فيسمع من كلِّ شعرة: يا أيَّتها العظام النخرة. . إلخ. ومن الناس من قال: المرادُ بقربه كون النداء منه لا يخفى على أحدٍ، بل يستوي في سماعه كلّ أحد.

والنداء في كلِّ ذلك على حقيقته. وجوّز أن يكون في الإعادة نظير «كُنْ» في الابتداء على المشهور، فهو تمثيلٌ لإحياء الموتى بمجرَّد الإرادة، ولا نداءَ ولا صوت حقيقةً.

ثم إنَّ ما ذكرناه من أنَّ المنادي مَلَكٌ، وأنه يُنادي بما سمعتَ، هو المأثور. وجوّز أن يكون نداؤه بقوله للنفس: ارجعي إلى ربِّك لتدخِلنَّ مكانك من الجنة أو النار، أو: هؤلاء للجنة وهؤلاء للنار. وأن يكون المنادي هو اللهَ تعالى ينادي: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢] أو: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:٢٤] مع قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ [الحجر:٤٦] أو: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠] أو: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ [النحل:٢٧] أو غير ذلك. وأن يكون غيره تعالى وغير المَلَك

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١١٠، وتاريخ مدينة دمشق ٦٥/ ١٣٦.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٩٣.

(٣) الكشاف ٤/ ١٢.

من المكلَّفين ينادي: ﴿يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] أو: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ [الأعراف:٥٠] أو غير ذلك، والمعوَّل عليه ما تقدَّم.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخةُ الثانية، و«يوم» بدل من «يوم ينادي» إلخ، والعامل فيهما ما دلَّ عليه (ذَالِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ) كما تقدَّم، وجُوِّز أن يكون ظرفاً لما دلَّ عليه «ذلك» و«يوم ينادي» غير معمول له بل لغيره على ما مرَّ، وأن يكون ظرفاً لـ «ينادي» وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال من «الصيحة»، أي: يسمعونها ملتبسة بالحقِّ الذي هو البعث. وجُوِّز أن يكون «الحق» بمعنى اليقين، والكلامُ نظير: صاح بيقين، أي: وُجِد منه الصياح يقيناً لا كالصَّدى وغيره، فكأنه قيل: الصيحة المُحقَّقة. وجُوِّز أن يكون الجارُّ متعلِّقاً بـ «يسمعون» على أنَّ المعنى: يسمعون بيقين، وأن يكون الباء للقَسَم، و«الحق» هو اللهَ تعالى، أي: يسمعون الصيحة أُقسم بالله، وهو كما ترى.

﴿ذَالِكَ﴾ أي: اليوم ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور، وهو من أسماء يومِ القيامة. وقيل: الإشارة إلى النداء، واتّسع في الظرف فجعل خبراً عن المصدر، أو الكلام على حذف مضاف، أي: ذلك النداءُ نداءُ يومِ الخروج، أو وقتُ ذلك النداء يومُ الخروج.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا من غير أن يُشاركنا في ذلك أحد ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ الرجوعُ للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا لا استقلالاً ولا اشتراكاً.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ بدل بعدَ بدل، ويَحتمل أن يكون ظرفاً للمصير، أي: إلينا مصيرُهم في ذلك اليوم، أو لما دلَّ عليه «ذلك حشر» أي: يُحشرون يومَ تشقَّق.

وقرأ نافع وابن عامر: «تشَّقَّق» بشدِّ الشين[1]، وقُرئ: «تُشْقَق» بضمِّ التاء، مضارع شُققت على البناء للمفعول، و«تنشقّ» مضارع انشقَّت. وقرأ زيد بن عليٍّ: «تتشقَّق» بتاءين[2].

---

(١) التيسير ص١٦٣، والنشر ٢/ ٣٣٤، وقرأ بها ابن كثير وأبو جعفر ويعقوب.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٣٠.

وقوله تعالى: ﴿سِرَاعًا﴾ مصدر وقع حالاً من الضمير في «عنهم» بتأويل مُسرعين، والعامل «تشقَّق»، وقيل: التقدير: يخرجون سِراعاً، فتكون حالاً من الواو، والعامل يخرج، وحكاه أبو حيان[١] عن الحوفي، ثم قال: ويجوز أن يكون هذا المُقدَّر عاملاً في «يوم تشقَّق».

أخرج ابن المنذر عن مجاهد أنه قال في الآية: تمطرُ السماءُ عليهم حتى تنشقَّ الأرضُ عنهم[٢].

وجاء أنَّ أولَ مَنْ تنشقُّ عنه الأرضُ رسولُ الله ﷺ؛ أخرج الترمذي ـ وحسَّنه ـ والطبراني والحاكم ـ واللفظ له ـ عن ابن عمر قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أنا أولُ من تنشقُّ عنه الأرض، ثم أبو بكر وعمر، ثم أهلُ البقيع فيحشرون معي، ثم أنتظر أهلَ مكة» وتلا ابن عمر: (يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا)[٣].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بَعْثٌ وجَمْع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: هيِّن، وتقديم الجارِّ والمجرور لتخصيص اليُسر به عز وجل، فإنه سبحانه العالم القادرُ لذاته الذي لا يَشْغَله شأنٌ عن شأن.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نَفْي البعث وتكذيبِ الآيات الناطقة وغير ذلك مما لا خيرَ فيه، وهذا تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم.

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: ما أنت مُسلَّط عليهم تقسرهم على الإيمان، أو تفعل بهم ما تُريد، وإنما أنت منذر، فالباء زائدة في الخبر و«عليهم» متعلِّق به.

ويُفهم من كلام بعضِ الأجِلَّة جوازُ كون «جبار» من جَبَره على الأمر: قَهَرَهُ عليه، بمعنى أجبره، لا من أجبره إذ لم يَجِئ فَعّال بمعنى مُفْعِل من أَفْعَلَ إلا فيما قلَّ ك: دَرَّاك وسرَّاع، وقال علي بن عيسى: لم يُسمع ذلك إلا في دَرَّاك.

(١) البحر المحيط ٨/ ١٣١.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١١١.
(٣) سنن الترمذي (٣٦٩٢)، والمعجم الكبير (١٣١٩٠)، والمستدرك ٢/ ٤٦٥. قال الترمذي: هذا حديث غريب، وعاصم بن عمر (أحد الرواة) ليس بالحافظ.

وقيل: جبَّار من جبر بمعنى أجبر لغةُ كنانة، وإن «عليهم» متعلِّق بمحذوف وقع حالاً، أي: ما أنت جبار تجبرهم على الإيمان والياً عليهم، وهو محتمل للتضمين وعَدَمِه، فلا تغفل.

وقيل: أريد التحلُّم عنهم وترك الغِلْظة عليهم، وعليه قيل: الآية منسوخة، وقيل: هي منسوخةٌ على غيره أيضاً بآية السيف.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ فإنه لا ينتفع به غيره، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا: يا رسولَ الله، لو خوَّفتنا، فنزلَتْ: (فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ)(١).

وما أنسب هذا الاختتام بالافتتاح بقوله سبحانه: «ق والقرآن المجيد».

هذا، وللشيخ الأكبر قُدِّسَ سرُّه في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولغير واحد من الصوفية في قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كلامٌ أشرنا إليه فيما سبق.

ومنهم من يجعل «ق» إشارةً إلى الوجود الحقِّ المحيط بجميع الموجودات، والله من ورائهم محيط. وقيل: هو إشارةٌ إلى مقامات القرب. وقيل غير ذلك.

وطبَّق بعضُهم سائرَ آيات السورة على ما في الأنفس، وهو مما يُعلم بأدنى التفات ممن له أَدنى مُمارسة لكلامهم، والله تعالى الهادي إلى سواء السبيل.

---

(١) تفسير الطبري ٢١/٤٧٨.